د. عبد الوهاب المسيرى

أسرار العقل الصهيونى



دار الحسام

إهــــــداء ٢٠٠٨

أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس

جمهورية مصر العربية

د. عبد الوهاب محمد المسيرى

أسرار العقل الصهيونى

دار الحسام

اسرار العقل الصهيونى

المؤلف : د. عبد الوهاب محمد المسيرى

الناشر : دار الحسام

القاهرة ص.ب.٥١٠ الغوريه

ت / ٥١١٥٧٦٣ / ٧٧٠٣٦٤

بيروت ص.ب ٥٣٩٢/١٤

ت : ٢١٨٤٢٥

رقم الإيداع / ٩٢٠٩ / ٩٦

الترقيم الدولى / 3 - 35- 5659 - 977

الطبعة الأولى

سبتمبر ١٩٩٦م

في الإدراك والسلوك والتبعية الإدراكية

من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني . وهي قضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية . وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية : هذا هو هدفه، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه. وعلى الرغم من أن كل الفصول تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به)، إلا أن هذه مجرد دراسات لحالات، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الإدراك، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة متعينة .

١ - الإدراك والسلوك

لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسيّ مادي مباشر، إلا في حالات نادرة، تتسم بالبساطة، كأن تلسع يده سيجارة أو يدخل في عينيه جسم صلب . فالإنسان ليس مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجنسية) التي يمكن أن يُردُّ لها في كليته (كما يزعم الماديون)، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال مشروطة، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا (كما يرى بعض السلوكيين) . فعقله ليس مجرد مخ مادي : صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وإنما هو عقل مبدع، له مقدرة توليدية، وهو مستقَر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية، ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزونة في الوعي واللاوعي .

ولذا حينما يسلك الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر، وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبيته، ومن خلال عقله المبدع

الذي يتفاعل معها بقيم، ومن خلال ما يسقطه على الواقع من أفراح وأتراح، وأشواق ومعانٍ، أو رموز وذكريات، ومن خلال المنظومات الأخلاقية والرمزية التي تحدد له مجال الرؤية، فتُبقي وتستبعد وتؤكد وتُهمّش . كل هذه العمليات المركبة هي التي تمنح الإنسان ذاتيته وخصوصيته، وتمنح كل فرد فرادته، حتى يصبح من الصعب التنبؤ بسلوكه من خلال القوانين المادية والطبيعية العامة .

وبسبب تركيبية الإنسان هذه، ونظراً لأنه لا يستجيب للواقع المادي مباشرةً وإنما يستجيب له من خلال إدراكه نرى أنه لا يمكن لأي دارس أن يحيط بأبعاد أي ظاهرة إنسانية (سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية) إلا بالغوص في أكثر مستويات التحليل عمقاً، أي النماذج المعرفية أو الإدراكية الكامنة، التي تترجم نفسها إلى خرائط معرفية ومقولات إدراكية يُنظم بها الإنسان واقعه ويُصنفه، وإلى صور إدراكية يُدرك من خلالها نفسه وواقعه ومَن حوله من بشر ومجتمعات وأشياء

ونحن نضع النموذج المعرفي (والخريطة المعرفية والصورة الإدراكية) في مقابل الواقع المادي في ذاته - أي الواقع الخام الموجود خارج حواس الإنسان والذي يتشكل بإدراكه . وأزعم أن الخرائط والنماذج المعرفية والصور الإدراكية التي يحملها الإنسان في عقله ووجدانه تحدد ما يمكنه أن يراه في هذا الواقع الخام، فهي تستبعد وتُهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتُؤكد البعض الآخر بحيث يراها هامة ومركزية . ولعل أكثر الأمثلة درامية على ما نقول هو الطريقة التي تتعامل بها كل حضارة مع الألوان . فهناك حضارات لا يوجد في نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى لونين (أبيض وأسود)، وحضارات أخرى لا يوجد فيها سوى أربعة ألوان، وهناك الحضارات الأكثر تركيباً التي يضم نموذجها ألوان الطيف الأساسية وبعض التنويعات الأخرى عليها . ويُقال أن أعضاء الحضارات التي لا يضم نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى أربعة ألوان وحسب لا يرى أبناؤها سوى أربعة ألوان . وقد يبدو هذا أمراً متطرفاً، ولكن حاول أن تنظر إلى صورة زيتية ملونة بصحبة ناقد محنك وستجد أنه سيكتشف من التنويعات اللونية ما لم يطرأ لك على بال لأن نموذجك المعرفي وخريطتك الإدراكية قد حددا إدراكك، وهي خريطة قام الناقد بإضافة مقولات جديدة لها فأدركت من التنويعات اللونية ما

لم تدرك من قبل . ونحن هنا لا نتحدث عن «عمى الألوان» (وهو عيب فسيولوجي قد يُصاب به الإنسان) وإنما نتحدث عن حدود إدراكية ناجمة عن حدود النموذج المعرفي ذاته والخريطة الإدراكية ذاتها . فالإدراك يتم من خلال الأداة، أي النموذج، ويتحدد الإدراك بمقدار مدى ضيق النموذج أو اتساعه .

هذا لا يعني أن الواقع المادي الخام غير موجود بدون الإدراك الإنساني له، فهو ولا شك هناك في ماديته وطبيعيته وموضوعيته ولاشخصيته وعموميته، خلقه الله خارج وعينا وإدراكنا وإرادتنا، وهو ولا شك له أثره في تحديد بعض جوانب فكر البشر وسلوكهم بدرجة تتفاوت في مقدار عمقها من إنسان لآخر ومن لحظة زمنية لأخرى . ولهذا يمكن تفسير بعض جوانب وجود الإنسان وسلوكه باستخدام المنهج المادي والنماذج المستمدة من عالم الطبيعة (والتي تُستخدم عادةً في تفسير الظواهر الطبيعية) . ولكن يظل هناك في الإنسان ما يستعصي على التفسير من خلال هذا المنهج ومن خلال تلك النماذج .

لكل هذا حينما ندرس الظواهر الإنسانية لابد من استعادة لا الفاعل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الجسماني أو الطبيعي وحسب، أي الفاعل الإنساني في علاقته المادية المباشرة مع واقعه المادي، ومع الملابسات المادية (الاجتماعية أو الاقتصادية . . . إلخ) المحيطة به، وإنما يجب استعادة الفاعل الإنساني، الإنسان الإنسان، أي الإنسان في كل تركيبيته وأسراره وفاعليته وإبداعه التي تجعله يتجاوز بيئته المادية الطبيعية المباشرة وتجعل من العسير رده في كليته إليها . ولذا لابد وأن نؤكد أنه لا يمكن دراسة ظاهرة الإنسان والظواهر الإنسانية مثلما نرصد الظواهر الطبيعية، ولا يمكن أن نسجل سلوك الإنسان كفرد أو كجماعة كما نسجل سلوك النملة وجماعات النمل . فمثل هذه الرؤية (بغض النظر عن لا إنسانيتها المقيتة) هي رؤية غير دقيقة لأن الدوافع (خيِّرة كانت أم شريرة)، وأشكال الوعي (مهما كان زيفها وانفصالها عن الواقع المادي)، والمعنى، أي الدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر (مهما كانت سطحيته أو عمقه) تشكل جزءاً أساسيًا من الواقع الإنساني .

وهذه القاعدة لا يمكن لأي إنسان تجاوزها، والصهاينة لا يشكلون أي استثناء لها . ولذا حينما ندرس سلوكهم لابد وأن نُذكّر أنفسنا أن ما يحدد سلوكهم ليس الاستجابة المباشرة للعناصر والملابسات المادية المختلفة المحيطة بهم، وإنما إدراكهم لها . أنظر مثلاً لاستجابة هذين المعلقين الإسرائيليين لحقيقة «مادية موضوعية» مثل ظهور جيل جديد في فلسطين المحتلة وُلد وتربى تحت حكم الاحتلال الإس...

ذهب المعلق الأول، وهو الجنرال بن إليعازر، إلى أن ظهور هذا الجيل يعني في واقع الأمر ظهور جيل برجماتي مرن قادر على التكيف، لا يكترث بالسياسة، مما يجعل من السهل القضاء على أي تمرد له طابع سياسي . بينما يرى الثاني، وهو يحزقئيل درور، أن ظهور مثل هذا الجيل الجديد يعني في واقع الأمر ظهور جيل غير خائف من الإسرائيليين، وأن هذا هو الذي أدى إلى اندلاع الانتفاضة . وهكذا نجد أن نفس العنصر المادي فُسِّر تفسيرين متضادين تماماً . والتضاد مصدره نموذجين معرفيين ورؤيتين مختلفتين للإنسان، واحدة ترى أن الإنسان ينسى تاريخه وتراثه وذاته بمرور الزمن، فهو مادة محضة تعكس الواقع المادي المتغير وقوانين الحركة الأزلية، والأخرى ترى أن الإنسان لا ينسى تاريخه بسهولة، وأن تزايد الظلم قد يؤدي إلى تصعيد الثورة . ومما لاشك فيه أن رؤية كل واحد منهما ستحدِّد طريقة استجابته لما حوله وسلوكه تجاهها .

وأرجو ألا يُفهم مما أقول أنني أذهب إلى أن إدراك الإنسان يتحكم في سلوكه، فمثل هذا التصور يسقط في نفس الواحدية والاختزالية التي يسقط فيها النموذج السلوكي المادي الذي يُنكر أهمية الإدراك تماماً . فالأول يُنكر أهمية الواقع المادي والثاني يُنكر أهمية الإدراك الإنساني . ما نطرحه نحن هو أمر مغاير تماماً، فنحن نذهب إلى أن سلوك الإنسان مركّب للغاية تحدده عدة عناصر متداخلة من بينها إدراك الإنسان لواقعه . وأن الإدراك الإنساني لا يؤدي إلى سلوك بعينه، وإنما يخلق تربة خصبة تزيد من احتمالات أن يسلك الإنسان سلوكاً بعينه دون غيره . فالعلاقة بين السلوك والإدراك - في تصورنا - علاقة احتمالية . وحتى إن وقع الإنسان أسير رؤيته وإدراكه وذاتيته بحيث أصبحت تتحكم فيه تماماً وتُسيِّره فإنه

يمكن الحوار معه وتنبيهه لبعض جوانب الواقع التي يتجاهلها . وأنا كمسلم أؤمن أن الله سبحانه وتعالى قد منح كل البشر قدراً من الرشد، وأن الإنسان بما حباه الله من عقل قادر على أن يتجاوز إدراكه الضيق ليصل إلى إدراك أكثر رحابة وإنسانيته . أما إذا كان الإنسان فاشيًا عنصريًا، ممسكاً بمدفع رشاش، ويُصر على أن يسلك في حدود رؤيته وإدراكه فيبطش بالآخرين ويدوس عليهم، فإن ما نسميه «الحوار المسلح» هو السبيل الوحيد .

ولكن الخطاب السياسي العربي في تحليله للصهاينة (وللحضارة الغربية، بل وللذات العربية) أسقط الإدراك من حسابه وبالتالي أسقط الخصوصية فسقط في التعميم . ولا يعدو رصدنا للعدو أن يكون حديثاً عامًا عن قوة العدو العسكرية والاقتصادية وقوته ومخططاته وربما عنصريته، ولذا نجد أن كثيراً من الدراسات تقوم بتوثيق ما نعرف مسبقاً، دون أي تعميق لرؤيتنا أو إضافة لإدراكنا .

وقد أدَّى هذا إلى تطبيع النظام السياسي الإسرائيلي، أي محاولة دراسته باعتباره كياناً سياسيًا طبيعيًا عادياً بحيث تُستخدم نفس المقولات التحليلية العامة التي تُستخدم في دراسة النظام السياسي الأمريكي وكأن الكيان السياسي الإسرائيلي لا يختلف في أساسياته عن أي كيان سياسي آخر . فيتم الحديث عن نظام الحزبين في الديموقراطية الإسرائيلية، وعن أن كلاً من إنجلترا وإسرائيل لا يوجد فيهما دستور، وأن النظام السياسي الإسرائيلي يتبع النمط الأنجلو أمريكي (الثنائي) لا النمط الأوربي الأكثر تعددية .

وعلماء السياسة العرب الذين يتبنون مثل هذه الرؤيا يُخطئون مرتين : من الناحية المعرفية ومن الناحية الأخلاقية . فمن الناحية المعرفية يمكن القول أن وصفهم للظاهرة الصهيونية ليس له مقدرة تفسيرية عالية، فهو لا يمكنه أن يُفسِّر ظاهرة مثل المنظمة الصهيونية أو دور الوكالة اليهودية التي تساعد سكان الدولة الصهيونية من اليهود وحسب، وتستبعد العرب، فهذه المؤسسة ليس لها نظير في أية «ديموقراطية» أخرى . كما لا يمكنه تفسير قانون العودة ولا ضخامة الدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه العالم الغربي للجيب الصهيوني . كما أنهم يُخطئون من

الناحية النضالية والأخلاقية إذ أنه كيف يمكن الحديث عن ديموقراطية تستند إلى حادثة اغتصاب للأرض وذبح لبعض سكانها وطرد للبعض الآخر واستبعاد لمن تبقى من العملية السياسية ذاتها؟ والفشل الإدراكي المعرفي التفسيري هنا هو ذاته الفشل النضالي الأخلاقي، إذ أن التطبيع يخفي عن الأنظار (وعن الضمير) الظروف الخاصة بالكيان الصهيوني ككيان استيطاني إحلالي، وحقيقة أن استيطانية الكيان الصهيوني وإحلاليته واعتماده الكامل على الدعم الغربي هو المكون الأساسي الذي يحكم ديناميته ومساره في الماضي والحاضر . فهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تُفسِّر عدم وجود دستور حتى الآن في إسرائيل، وتُفسِّر أهمية قانون العودة ومركزيته . وهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تجعلنا نكتشف أن الأحزاب الإسرائيلية ليست أساساً أحزاباً وإنما مؤسسات استيطانية استيعابية تضطلع بوظائف لا تضطلع بها الأحزاب السياسية في الدول الأخرى ويتم تمويلها عن طريق المنظمة الصهيونية العالمية . وهذه الاستيطانية الإحلالية (ودور إسرائيل الوظيفي) هي التي تُفسِّر ضخامة الدعم الإمبريالي لإسرائيل .

وإدراك الإسرائيليين للطبيعة الاستيطانية الإحلالية لدولتهم ولاعتمادها الكامل على الولايات المتحدة ولأسباب وجودهم وسر استمرارهم هو الذي يُحدِّد سلوكهم وحربهم وسلمهم، وما ينكرونه علينا وما قد يُقررون منحه إيانا . وإسقاط هذه الأبعاد الخاصة يجعل من عملية التطبيع المعرفية المنهجية عملية تسويغ وتبرير غير واعية للوجود الصهيوني وإضفاء درجة من الشرعية عليه .

٢ - الإدراك والتبعية للحضارة الغربية

ولابد وأن نثير هنا قضية أخرى مرتبطة تمام الارتباط بسابقتها وهي ما سماه أحد علماء الاجتماع الغربيين «إمبريالية المقولات» - أي أن تقوم إحدى القوى بتحديد النماذج المعرفية والمقولات التحليلية الأساسية بطريقة تعكس إدراكها للواقع وتخدم مصالحها وتستبعد إدراك الآخرين وتهمل مصالحهم . ويبدو أننا نخضع تماماً لإمبريالية المقولات الغربية وأننا سقطنا بشكل شبه كامل في التبعية الإدراكية . فقد استوردنا نماذجنا المعرفية ومقولاتنا التحليلية فيما نستورد من أشياء من الغرب .

ولذا فنحن حينما نتحدث عن الحضارة الغربية وحينما نتحاور بشأنها ونتخذ مواقف معها أو ضدها تتضح تبعيتنا الإدراكية، إذ أننا عادةً ما نفعل ذلك بناءً على المعطيات التي تسمح لنا هذه الحضارة بالاطلاع عليها وداخل أطر جاهزة ونماذج معرفية مسبقة أعدها مفكرون غربيون ونطرح نفس الأسئلة التي يطرحونها هم عن حضارتهم ومن منظورهم، أي أننا ندرك الحضارة الغربية لا بشكل مباشر وإنما كما يشاء أصحابها لنا أن ندركها . بل إننا بدأنا ننظر إلى أنفسنا من خلال مقولات الغرب التحليلية ونماذجه الإدراكية . ولذا بدأ الإنسان العربي يرى نفسه متخلفاً مهما بذل من جهد ومهما أنتج من روائع، وبدأ يحكم على نفسه بالهزيمة في المعركة قبل دخولها . والتبعية الإدراكية ليست تبعية اقتصادية وحسب (وإن كانت تترجم نفسها إلى ذلك)، وإنما هي تبعية عميقة كامنة تنصرف إلى أسلوب الحياة (بما في ذلك النشاط الاقتصادي) وإلى رؤية الذات ورؤية الآخر .

ولنبدأ برؤية الآخر، ولأضرب مثلاً على ما أقول من الثورة الفرنسية التي يعرف معظمنا أحداثها ابتداءً من اجتماع ملعب التنس وانتهاءً بحروب الثورة الفرنسية وظهور نابليون . نحن نعرف كل هذه الأحداث تمام المعرفة . ولكن ماذا عن فندي Vendee؟ بل ما هي فندي هذه؟ يجب عليّ أن أتحلى بشيء من الشجاعة وأعترف أنني لم أكن قد سمعت عنها قط من قبل إلى أن قامت معركة في فرنسا بين بعض مؤرخي الثورة الفرنسية فيها، فعرفت أنها ثورة اندلعت في غرب فرنسا (١٧٩٢ - ١٧٩٣) (أشار لها أحد المراجع بأنها «ثورة مضادة») وقضت عليها قوات الثورة بوحشية بالغة حتى أن المؤرخ الفرنسي بيير شونو (الأستاذ في السوربون) قال : "إن قوات الثورة الفرنسية لم تكن تحاول إخماد التمرد وحسب، وإنما قامت بعملية إبادة (هولوكوست) كانت في فظاعة الإبادة النازية وأكثر فاعلية منه" . وقد قال وسترمان، جنرال الثورة الفرنسية الذي أخمد التمرد : "لقد دست على الأطفال بسنابك خيلي وذبحت النساء حتى لا يلدن أي متمرد بعد ذلك" . ويجب أن نتذكر أن هذه هي كلمات ممثل ثورة الحرية والإخاء والمساواة (التي أرسلت بقواتها الاستعمارية إلى مصر والشرق) .

وقد يقول البعض أن كل هذا في سبيل «التقدم»، ولكن يذهب بعض المؤرخين الآن إلى أن الثورة الفرنسية أبطأت عملية تحديث فرنسا التي كانت قد بدأت تحت حكم الملكية المطلقة، ومن ثم أعطت إنجلترا الفرصة لتصبح القوة الصناعية الكبرى في القرن التاسع عشر . وأعترف أنني لا يمكنني الأخذ برأي هذا الفريق أو ذاك، وبالذات بخصوص فاندي التي لا أعرف عنها شيئاً، أو بخصوص تطور أوربا الاقتصادي، فالذي أعرفه عن هذا الموضوع هو أحداث بعينها تعبِّر عن رؤية محددة للثورة الفرنسية، تتناقلها المراجع الغربية، والمراجع العربية التي تنقل عنها . أما تلك الأحداث التي قد تتحدى هذه الرؤية فيتم استبعادها تماماً أو يتم تهميشها .

كما أننا حينما نطرح أسئلة بخصوص أي ظاهرة فنحن لا نطرحها من وجهة نظرنا وإنما ننساق دائماً وراء تلك الأسئلة التي يطرحها الغرب، وهي أسئلة تعبِّر عن رؤيته ومصالحه . ولنأخذ على سبيل المثال قضية الأسرة، وهي قضية أصبحت لا تعني الإنسان الغربي كثيراً بعد تصاعد معدلات التحديث والعلمنة وتآكل نظام الزواج والأسرة وقبوله التام لهذه الحقيقة كنتيجة حتمية «للتقدم» . ولهذا لا تسأل كتب التاريخ الغربية عن عدد الأطفال غير الشرعيين بعد الثورة الفرنسية، وعما حدث لنسبة الطلاق؟ هل ارتفعت أم انخفضت أم ظلت على ما هي عليه؟ ولكن أليس من الواجب علينا، ونحن على عتبات هذا المستقبل العقلاني المادي الحديث، الذي يبشر به بعض كبار مفكرينا، أن نسأل مثل هذه الأسئلة حتى نعرف بطريقة «علمية» شاملة ومركبة أحداث الثورة لا كمجرد وقائع وإحصائيات «برانية» وإنما كحقائق «جوانية» تركت أثراً عميقاً على الإنسان الفرنسي؟ وقد فتشت عن الإجابة وعرفت أنه بعد اندلاع الثورة بثلاثة أعوام زادت حالات الطلاق زيادة ملحوظة، كما أن عدد الأطفال غير الشرعيين زاد زيادة هائلة .

وقد دأبت على إثارة الشكوك بخصوص قضية «إعلان حقوق الإنسان»، لا لأنني معاد لهذه الحقوق أو رافض لها، وإنما لأنني مدرك أنها قاصرة إلى حدٍّ ما، لأن هذا الإعلان قد جعل الفرد المتعزل البسيط (الإنسان الطبيعي البورجوازي) هو نقطة البدء والانطلاق . واقترح بدلاً من ذلك «إعلان حقوق الأسرة» كوحدة

اجتماعية أساسية مركبة . ولعل الحقائق الخاصة بالأطفال غير الشرعيين بعد الثورة الفرنسية (وفي أوربا منذ ذلك التاريخ، وفي كل العالم عما قريب) قد تُعطي شيئاً من الترجيح للمفهوم الذي أطرحه، لأنه من الواضح أن حقوق الإنسان لا تتضمن الأطفال الذين لم يولدوا بعد! والأطفال غير الشرعيين هم نتاج ذكر وأنثى استمتعوا بـ «حقوق الإنسان» وحرياته (كما حددها الغرب) في لحظات لم يفكروا أثناءها في حقوق الأطفال . ولا يمكن أن نصدر إعلان حقوق الإنسان ثم نحاول الآن إصدار إعلان تكميلي بحقوق المرأة ثم إعلاناً ثالثاً لحقوق الأطفال وهكذا، فهذه العملية غير عقلانية بالمرة لأنها أهملت في البداية الوحدة التحليلية الاجتماعية الحقيقية الواحدة، وهي الإنسان ككائن اجتماعي ينتمي إلى أسرة ومجتمع، وأحلت محله الإنسان كذرة منعزلة، كائن مكتفٍ بذاته (وكأنه وحش الغابة) لا وجود له إلا في ذهن روسو وهولباخ وفولتير وغيرهم من مفكري عصر العقل والاستنارة البورجوازي .

وتظهر التبعية الإدراكية بدرجة فكاهية في تحديد مؤشرات التقدم والتخلف . فعلى سبيل المثال، حتى بداية السبعينيات (قبل "اندلاع" ثورة البيئة) كان استخدام المبيدات والأسمدة الصناعية يُعدُّ من مؤشرات التقدم . وقد قبلناها ساعتها وكنا نحاسب أنفسنا على هذا الأساس، إلى أن اكتشف الغرب أن هذا التقدم يؤدي إلى السرطان وتدمير التربة، فأصبح استخدام المبيدات والأسمدة الصناعية من مؤشرات التخلف . وقد أصبح استخدام التليفونات والسيارات ودرجة التنقل من مؤشرات التقدم (دون حساب تكلفتها كما حدث مع المبيدات) . وقد ضرب الأستاذ عادل حسين مثلاً طريفاً على التبعية الإدراكية في مجال مؤشرات التقدم (استقاه من كتابات الأستاذ أحمد حسين رحمه الله) فأشار إلى أن بعض «العلماء» يتبنون استخدام الكرسي كمؤشر على التقدم والتخلف، فمن استخدمه كان متقدماً ومن لم يستخدمه كان متخلفاً . ولكنه يشير بعد ذلك إلى حقيقة في غاية الأهمية وهي أن الكرسي جزء من التشكيل الحضاري الغربي، استخدمه الغربيون حينما كانوا في أدنى مراحل تخلفهم وكان بعضهم لايزال يُقدِّم الضحايا البشرية (في بعض أجزاء أوربا، مثل البلاد السلافية) . وقد استخدم الغربيون الكرسي لا لتقدم أحرزوه وإنما

لسبب مادي وجيه للغاية وهو برودة الأرض، ولعلهم قدَّموا بعض الضحايا البشرية جلوساً على الكراسي! وهناك شعوب أخرى مثل اليابانيين والعرب لم يستخدموه وهم في أقصى تقدمهم . ولا يمكن الزعم مثلاً أننا أصبحنا أكثر تقدماً من عرب العصر العباسي الأول لأننا نجلس على الكراسي من طراز لويس السادس عشر أو حتى الخامس عشر، بينما كانوا هم يفترشون الأرض، كما لا يمكن أن نزعم أن وكيل وزارة الصناعة مثلاً أكثر تقدماً من مدير شركة «سوني» اليابانية لأن الأول يعود إلى منزله ويجلس على كرسي، بينما يعود الثاني فيخلع رداءه الأوربي ويرتدي رداءه الياباني التقليدي ويجلس على الحصير ويستريح . ولكن الكرسي تحول إلى مؤشر على التقدم بسبب انكسارنا من الداخل وتبعيتنا الإدراكية . وقد سمعت مرة بحثاً لأحد جهابذة عِلم الاجتماع المصري استخدم «عدد ساعات الاستماع للموسيقى السيمفونية» كمعيار للتقدم والتخلف - وياله من معيار هزلي سخيف يؤدي إلى نتائج عنصرية كريهة، إنه يشبه من بعض الوجوه عالِماً غربياً يحكم على فنونٍ بلده بالتخلف لأنها لا تضم فن الخط Calligraphy، ولأن المباني العامة فيها لا تزينها حِكم مكتوبة بخط جميل، ففن الخط فن مقصور على الحضارات الشرقية . وقد وصل هذا الفن إلى قمة ازدهاره عند العرب والمسلمين لأسباب دينية وحضارية خاصة بهم وحدهم، ولا يصلح كمعيار عالمي لقياس التقدم والتخلف .

ونفس الشيء ينطبق على كثير من الأفكار والنظريات التي ترد لنا من الغرب، إذ نتلقاها في سلبية موضوعية مذهلة ونقوم بتطبيقها على أنفسنا بكفاءة شديدة دون أن ندرس شيئاً عن جذورها ولا نعرف شيئاً من خصوصيتها الغربية ولا نعرف إلا القليل عن تضميناتها الفلسفية، فنحن ننقل ما يُراد لنا نقله داخل الأطر القائمة الجاهزة . ولنأخذ فرويد على سبيل المثال، قام الباحثون العرب بنقل كثير من أفكاره وترجمة أعماله بدرجات متفاوتة من البراعة والدقة، ويمكن للإنسان العربي الآن أن يحيط إحاطة كافية بفكره وأعماله من خلال المكتبة العربية . ولكن إن طالعت هذه الكتب العربية لن تجد أيًا منها يتحدث مثلاً عن خلفية فرويد الاجتماعية والإثنية في فيينا في القرنين التاسع عشر والعشرين . هل كان المجتمع

الذي يعيش فيه فرويد والـذي زوده بالقيم مجتمعاً متماسكاً صحيًا أم مجتمعاً غير متماسـك متآكل (حتى لا نستخدم مصطلحـات أخلاقية مثل «منـحل» و«مريض» فتثور ثائرة «العلماء» علينا وهم يفضلـون لغة علمية محايدة)؟ وإن فعلنا ذلك فإننا سنكتشف أن فيينا قبل الحرب العالمية الأولى كانت من أكثر المجتمعات العنصرية في أوربا وازدهرت فيها الأحزاب ذات التوجه العنـصري وما له دلالته أن أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في هذه الـفترة كانت الكتب العنصرية . وهذا أمـر منطقي، فهذه هي المرحـلة الإمبرياليـة وتقسيم الـعالم التي شـاعت إبانها الفـلـسفات الداروينية والنيـتشوية والتـي أعلنت أن الخالـق قد انسحب مـن الكون أو حل فيـه ثم مات (حسـب رأي نيتـشه المعـلن ورأي داروين الـكامن ورأي مـعظم فـلاسفة عـصر التحديـث والتصنيـــع) . ويبدو أن مجتمـع فيينا كان مـتمركزاً بشكـل غير عادي ومتطرف حول فكرة اللذة . يُلاحَظ انتشـار الأمراض السرية بين أعضاء النخبة في أوربا في تلك الفترة .(ومما له دلالته أن كلاً من نيتشه فيلسوف العدمية والعنصرية والنازية وهـرتزل فيلسوف العـنصرية الصهيونـية، كانا مصابين بمـرض سري عجَّل بوفاة كل منهما) . ولا يوجد عندي إحصائيات عن أعضاء الجماعة اليهودية، وهم عادةً ما يمثلون بشـكل متبلـور ما يحدث فـي المجتمع، وفرويـد ينتمـي إلى هذه الجماعـة . ولعلنا لو عرفنا بعض هـذه الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والحضارية من خلفية فرويد لأمـكننا أن نكتشف ملامح جديدة في فكره كانـت خافية علينا، ولأمكننا أن نطرح عليه أسئلة مختلفة عن تلك التي يطرحها العلماء الغربيون الذين يعيشون تحت نفس الظروف .

وماذا عن القبَّـالاه اللوريانية وميراث فـرويد اليهودي؟ إن بحثت فـي المكتبة العـربية لن تجـد كتاباً جـاداً واحداً في هـذا الموضوع (إلا كتـاب الدكتور صـبري جرجس **التراث اليهودي الصهيوني والفكر الديني** الرائد، وهو كتاب كتبه عالم معروف يُشار إليه بالبنان ومع هذا يـتم تجاهله تماماً من قِبل المـتخصصين) . ويبدو أن القبَّالاه اللوريانية هذه تشكِّل إطاراً معرفيًا لأفكار فرويد وكافكا والفلـسفة التفكيكيـة (وُصفت هذه القبَّالاه بأنها تؤله الجنس وتجنس الإله) . وقد يكون من المفيـد أن نعرف علاقة الـقبَّالاه اللوريـانية بالـغنوصية الـتي يتواتر ذكـرها الآن في الكتابات الدينيـة والفلـسفية والأدبية وكأننا في القـرن الأول الميلادي . وأعتقد أنه

من الصعب فهم التحديث والحداثة وما بعد الحداثة دون فهم كامل للقبَّالاه (اليهودية ثم المسيحية) .

وفي الآونة الأخيرة ثار زوبعة ..ية ثم أخرى تفكيكية، كما بدأت تثور زوبعة ما بعد التفكيكية وما بعـ. الحدا. بعد هذا وذاك . فهل حاول أحد ممن يعرض هذا الفكر الأدبي والفا .ي أن يبيِّن علاقته بمدارس تفسير التوراة عند اليهود؟ ويحدثنا رولان بارث عن «لذة النص» وهي لذة ذات طابع جنسي (ولذا يتلاعب هذا «الفيلسوف» بكـ.مات مثل «نصي تكستوال Textual» و«جنسي سيكشوال Sexual» ولنترجمها «جنصي» حتى يمكننا أن نلعب نحن أيضاً)، هل يعرف أحد ممن تحدث عن لذة النص هذه أن هذا مفهوم قديم عند المفسرين اليهود، وأن إحدى مدارس التفسير (المتأثرة بالقبَّالاه اللوريانية) تشبِّه التوراة بامرأة عارية تقف خلف حجب، يتساقط الواحد تلو الآخر إلى أن نصل إلى أعمق مستويات القراءة الذي يشبَّه بالجماع الجنصي؟ وإذا كنا نتحدث عن التفكيكية واللذة فهل لكل هذا علاقة بتآكل فكرة المعنى في الحضارة الغربية؟ هل التفكيكية هي الأخرى تعبير عن تزايد معدلات العلمنة؟ هذه هي بعض الأسئلة التي كان يجدر بمن ينقلون الفكر البنيوي والتفكيكي وغيره من الأفكار أن يطرحونها، بدلاً من نقل الأفكار وكأنها حقائق مطلقة ظهرت كاملة دون مقدمات أو أسباب، فيزيدون من تبعيتنا الإدراكية بدلاً من أن يزيدوننا معرفة وحكمة .

٣ - التبعية الإدراكية والمصطلحات السياسية

وتظهر التبعية الإدراكية في الخطاب السياسي العربي والمصطلحات التي يستخدمها المحللون، فمن الواضح أننا نفشل دائماً في أن نسمي الأشياء ونترك الآخر يصنفها ويسميها لنا، ومن يُسمي شيئاً فقد صنَّفه ووضعه داخل خريطة إدراكية كبرى، تنبع من إدراكه ومصالحه . فنحن على سبيل المثال حينما نكتب تاريخ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في العالم، فإننا عادةً ما نتحدث عن «المسألة الشرقية» وعن «رجل أوربا المريض» مما يجعلنا ننظر إلى الدولة العثمانية (التي كانت تحمي شعوبها - رغم ضعفها واستبدادها - من الهجمة

الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره) فننظر إليها باعتبارها «رجلاً مريضاً» وحسب، وننسى «رجل أوربا النهم المفترس»، أي الإمبريالية الغربية التي كانت تبيد سكان أفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعداداً هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان أستراليا ونيوزيلندا، والتي كانت تقوم باستعباد سكان آسيا، وتخوض حرباً لتسويق الأفيون في الصين لنشر التقدم في ربوعه! ننسى هذا الرجل النهم الذي دس السم في طعام الرجل المريض، كما ننسى أنه لو تُرك الرجل المريض وشأنه لربما شفاه الله وعافاه على يد «رجل مصر الفتي» . ولكنه النموذج الإدراكي المستورد من الغرب الذي يجعلنا ننظر إلى أنفسنا وتاريخنا من خلال عيون غربية .

وتظهر تبعيتنا الإدراكية للغرب في المصطلح الذي نستخدمه لوصف الصهيونية، فنحن نصف الصهيونية بأنها «الصهيونية العالمية»، وهي ترجمة موضوعية وأمينة لعبارة World Zionism (ونحن نترجم حتى حينما نفكر)، ولو نظرنا حولنا بضعة دقائق وتخلينا عن المقولات الإدراكية المستوردة والكامنة في المصطلح لوجدنا أن الصهيونية لا أثر لها في الصين أو الهند أو أفريقيا (باستثناء جنوب أفريقيا) ولا في كل آسيا (باستثناء الجيب الاستيطاني في فلسطين) ولا في أمريكا اللاتينية (إلا في داخل الجيب اليهودي في الأرجنتين) - أي أن الصهيونية (وهي إفراز لحركيات التاريخ الغربي ولا يمكن فهمها إلا داخل هذا الإطار) توجد أساساً في العالم الغربي . ولذا كان من الضروري أن نسميها «الصهيونية الغربية» فهذه هي التسمية الوحيدة الدقيقة التي تستند إلى رؤية عميقة للواقع . ولكننا لم ندرك هذه الحقيقة البديهية لأننا وقعنا صرعى ما صُدِّر لنا من مصطلحات تُجسد نموذجاً معرفيًا غربيًا، والتصقت كلمة «عالمية» بالصهيونية وأحرزت شيوعاً لا نظير له . وكلمة «عالمية» تُضفي على الصهيونية هيبة لا تستحقها، ورهبة لا تنبع منها، وقوة لا تمتلكها . كما أن الكلمة تعبِّر عن مضمون عنصري كامن، فحينما نُحت مصطلح «صهيونية عالمية» كانت كلمة «عالمية» مرادفة في العقل الغربي لكلمة «غربية»، ومن هنا مطالبة هرتزل مثلاً بإنشاء «دولة يحميها القانون العام (أي

الدولي)» وهـو يعني فـي واقع الأمر القانـون الغربي أي القـوة الغربيـة . ويمكن القول أننا نقول «الصهيونية العالمية» مثلما نقول «الإمبريالية»، ونحن في هذا نكون قد تجاوزنا الحقيقة أيضاً . فمـ . الصهيونـية ليس العالم، إذ تظل فلسطين ساحتها الأولى والأساسيـة . وإن قامت الدولة ا بيونية بنـشاط عالمي فهي تـفعل ذلك بهدف تأمين الجيب الاستيطاني في ' سطين .

ومن أكثر الأمثلة درامية على فشلنا فـي تسمية الأشياء وإدراكها من منظورنا «نحن» لا من منظورهم «هم» ـ يتنا للمستوطنين الصهاينة، فنحن نسميهم «روّاد» ويتـفلسـف بعضنـا ممن يعـرفون العـبرية ويـقولون «حالـوتسيـم» أي «روّاد» والـ «حالوتسيوت» أي «الريـادة» . وهكذا تتوارى الحقيقة، ويضيع المتـلقي العربي في محاولة نطق كـلمة أعجمية مخارجهـا الصوتية غريبة عليـه . كما أن كلمة «رواد» تحمل فخامة غير عـادية وإيحاءات إيجابية، فالرائد دائماً في المـقدمة يرتاد الصعب والمجهول . نقول هذا ونحن نـعرف فيما بين أنفسنا أنهم مغتـصبون لأرضنا وأنهم استـولوا علـيهـا بقوة الـسلاح الغـربي، لا بسـلاحهم هـم، وبدعـم من العـالم الاستعماري لا بجهـودهم الذاتية . أما الفلاحون الفلسطيـنيون، في أواخر القرن الماضي فكانوا ينظرون إلى هؤلاء الرواد/ الحالوتسيم ويسمونهم بـ «المسكوب» نسبة إلى موسكو (مسكـفا أو مسكبا) وهي تعني عندهم الأجـانب أو الدخلاء - ويالها من تسمية بـسيطة دالة تصل إلى جوهر الـظاهرة كما نخبرها نحـن، لا كما سماها صاحبها الذي يود إخفاءها وتعميتنا .

وتظهر سخافـتنا غير العادية في قولـنا «معاداة السامية» وهي ترجـمة للعبارة الغربية anti-Semitism وهي عبارة بلهـاء تعادل بين اليهود والساميين وتُقـرن بينهما، مع أن العبـرانيين القدامى كانـوا لا يشكلون سوى خلـية حضارية صغيـرة، تابعة بشكـل يكاد يكون كـاملاً للتـشكيلات الـسامية الكبـرى مثل تشـكيلات البابـليين والآشوريين والآرامـيين، وهي التي ورثـها التشكيـل العربي/ الإسلامـي . وتُعدُّ اللغة العربية أهم اللغات السامية عـلى الإطلاق حسب رأي علماء اللغات السامية، فلو صح استخدام المصطلح للإشارة إلى أحد فإنما يجب أن يشير لنا نحن العرب .

ولكن الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر لم تكن قد وصلت إلى هذا المستوى المعرفي بعد، ولهم عذرهم فالمعرفة لا تأتي دفعة واحدة . كما أن الفكر العنصري الغربي المعادي لليهود كان يحاول استبعادهم كعناصر داخل التشكيل الحضاري الغربي ففرّق بين الآريين والساميين وفضّل الفريق الأول على الثاني . فكأن عبارة «معاداة السامية» هذه تعبير عن جهل غربي وعن عنصرية غربية وعن صهيونية غربية كامنة تهدف إلى التخلص من اليهود والإلقاء بهم في أرض فلسطين . ونقوم نحن بموضوعية بلهاء بترجمة المصطلح ونقول «معاداة السامية» - مع أنه كان من الممكن ببساطة شديدة أن نقول «معاداة اليهود» دون أن نستورد المصطلح المتحيز ضدنا، الخاطئ في حد ذاته .

والصراع العربي/ الإسرائيلي يُعدُّ في شكل من أشكاله صراعاً على تسمية الأشياء، فنحن نسمي تلك الأرض الواقعة بين سوريا والأردن ومصر «فلسطين»، بينما يسميها الصهاينة «إسرائيل» . ونسمي نحن سكانها «الفلسطينيين» ويسمونهم هم «سكان المناطق» . إذ أنه لا وجود لفلسطين ولا للفلسطينيين في المصطلح الصهيوني . ونحن نسمي الوجود الصهيوني في فلسطين «استعمار استيطاني إحلالي» واغتصاب، ويسمونه هم «عودة لأرض الميعاد، أو أرض الأجداد» . وقد تنبّه الصحفي الإسرائيلي روبت روزنبرج لهذا الجانب في الصراع فقال في مقال له في **الجيروساليم بوست** بعنوان «ينامون بعمق في إسرائيل» : "قل لي كيف تصف المناطق وراء الخط الأخضر سأقول لك من أنت : محتلة؟ محررة؟ مهزومة؟ مدارة؟ يهودا والسامرة وغزة؟ قل لي كيف تصف الأحداث التي تقع هناك وسأقول لك من أنت؟ اضطرابات عادية؟ شغب؟ هيجان؟ قمع؟ مبالغة؟ إعلامية مؤقتة؟ حرب؟" .

المصطلحات لا توجد في فراغ وإنما داخل أطر إدراكية تُجسد نماذج معرفية . وقد تمت آخر محاولة لسلب الإنسان العربي حقه في تسمية الأشياء بحسن نية حينما طالب بعض الكُتّاب العرب إسقاط كلمة «انتفاضة» ذاتها وإحلال كلمة «ثورة» محلها لأن الثورة في تصورهم هو عمل أكثر عنفاً وجذرية من الانتفاضة .

وأنا لا أعترض على كلمة «ثورة» كتسمية عامة لما يحدث هناك، وتجمع بينها وبين الظواهر المماثلة كجزء من تراث عالمي، ولكن مع هذا يظل للانتفاضة خصوصيتها التي يجب أن نعبِّر عنها . ونحن لو حللنا تفكير الكتّاب الذين يعترضون على كلمة «انتفاضة» لاكتشفنا أنهم متأثرين بالتراث اللغوي والمعرفي الغربي، حيث ترتب المحاولات الإنسانية لرفض القهر ترتيباً هرمياً يستند إلى تجربة الإنسان الغربي التاريخية، بحيث يوجد في قاعدة الهرم «أعمال الشغب riots» تعلوها «التمردات insurrections» ويعلوها «العصيان rebellion»، ثم أخيراً في قمة الهرم توجد «الثورة revolution» بكل ما تحمل من معاني الانقطاع الكامل والرفض التام للنظام القديم وطرح رؤية جديدة .

وهذه التقسيمات اللغوية نابعة لا من عبقرية اللغات الأوربية وحسب وإنما من التجربة الحضارية التاريخية الغربية ذاتها حيث توجد عدة انقطاعات كاملة . فعصر النهضة كان رفضاً للعصور الوسطى ورفضاً للدين والكنيسة، وهناك كذلك الثورتان الفرنسية والبلشفية وهما تجربتان تاريخيتان ليس لهما ما يشبههما في التشكيلات الحضارية الشرقية، فهما يشكلان ما يشبه الانقطاع الكامل عما سبق وهدما كاملاً للنظام القديم، ورفضاً جذريًا للدين وللقيم الأخلاقية المرتبطة به وطرح رؤية جديدة للعالم والإنسان . وكل هذا أمر مفهوم داخل التاريخ الغربي، وعلينا فهمه واحترامه .

ولكن يبدو أن التغيير داخل التشكيلات الحضارية الشرقية يأخذ شكلاً مغايراً يحتفظ بقدر من الاستمرارية (ربما بسبب الامتداد الزمني لهذه التشكيلات وكثافتها التاريخية) . فالثورة الماوية في الصين، رغم كل ديباجاتها الماركسية اللينينية، احتفظت بكثير من التقاليد الصينية، سواء على مستوى العقيدة أو السياسة . وانتقال اليابان إلى العصر الحديث تم في إطار الحفاظ على التراث والهوية (مما حدا ببعض علماء الاجتماع أن يطرح مصطلح «رأسمالية إقطاعية» ليصف النظام الاقتصادي الياباني) . والإسلام يطرح نفسه كدين توحيدي جديد لا يشكل انقطاعاً عن الأديان التوحيدية التي سبقته وإنما استمراراً لها وتصحيحاً لمسارها .

واعتقد أن الشرق الإسلامي ظل يتمتع بقدر كبير من الاستمرارية حتى نهايات القرن التاسع عشر .

وكلمة «انتفاضة» مناسبة تماماً لوصف هذه الاستمرارية وهي مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» بمعنى «حرّكه ليزيل عنه الغبار أو نحوه» . ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يضرب جذوراً في تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس الجوهر . ويقولون أيضاً «نفض المكان» أي «نظر جميع ما فيه حتى يعرفه»، وهذا تكتيك معروف لدى شباب الانتفاضة . ويقولون أيضاً «نفض الطريق» أي «طهره من اللصوص» . ويقال «النِفضة» وهي الجماعة الذين يُبعثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف، وهذا أيضاً تكتيك آخر للمنتفضين . وتحمل الكلمة أيضاً معاني الخصوبة فيقال : «نفض الكرم» أي «تفتحت عناقيده»

ويقال، وهذا هو الأهم، «نفضت المرأة» أي «كثر أولادها»، و«المرأة النفوض» هي المرأة الكثيرة الأولاد، أي المرأة التي لا تكف عن الإنجاب تماماً مثل الأنثى الفلسطينية . وانظر كذلك إلى تعبير مثل «نفض عنه الكسل» و«نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض واقفاً» وهي كلها اصطلاحات تعني أن ما يحدث الآن كان هناك دائماً، لكنه كان متوارياً وحسب .

ونحن هنا لا نرفض كل المصطلحات والكلمات الغربية ولا نطالب بضرورة اتخاذ «بدائل» عربية لها، فهذا في تصوري تردٍّ كامل وتقبُّل غير مشروط للنموذج المعرفي الغربي، بل ويساهم في ترويجه، إذ أنه يعطيه وجهاً عربيًا إسلاميًا يخبئ واقعاً غربيًا . وهذا الموقف يشبه من بعض الوجوه مهندس الديكور الذي يبني شقة غربية من جميع الوجوه، ثم يضيف لها «حتة أرابيسك» أو «ركن عربي» ليمسك بتلابيب هوية آخذة في التآكل . أنا لا أتحدث عن بدائل (وكأن المصطلحات قطع غيار)، وإنما أطالب بنموذج معرفي متكامل ونسق لغوي يعبِّر عنه، ونقطة ابتداء مغايرة لرصد واقعنا وواقعهم، وهذا النموذج الجديد لا يرفض النماذج الأخرى بل على العكس ينفتح عليها كلها دون خوف أو وجل، لأنه واثق من نفسه .

وظاهرة «الثورة» يمكن دراستها داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل التشكيلات الأخرى، وندرك مضامينها العديدة وقوانينها المتنوعة (فالثورة ليست ظاهرة طبيعية بسيطة لها قانونها المادي العام) ونتفاعل معها ونأخذ منها دون التخلي عن خريطتنا المعرفية . إنني أحترم خصوصيتي مثلما أحترم الخصوصية الغربية وكل الخصوصيات الأخرى التي سأدركها . وفي تصوري أنني من خلال إدراكي لخصوصيتي سأدرك خصوصية الآخرين . واصطلاح «ثورة» كما هو متداول يتسم إما بكثير من العمومية أو بكثير من الالتصاق بالتجربة الغربية في التمرد على الظلم، ولذا فهو لا يصلح لوصف التجارب المغايرة بسبب عموميته الزائدة وخصوصيته المتطرفة، أي أنه ليس اصطلاحاً علمياً بالمرة، ويمثل محاولة فرض مفاهيم واصطلاحات من التاريخ الغربي على أحداث التاريخ العربي . يجب أن ندرس، منطلقين من خصوصيتنا، التجربة الغربية في الثورة (وفي النكوص عنها، وإلا بم نفسّر ما حدث في الاتحاد السوفيتي؟) . ويجب أن نتفاعل مع هذه التجربة دون أن نضطر إلى تسمية «الانتفاضة» (بما تحمل من معاني الخصب والاستمرار والتجذر الواثق من نفسه) «ثورة» (بكل ما تحمل من معاني الاحتراق والبدايات الجديدة) . نفعل ذلك دون أن نفصل الانتفاضة عن التراث الثوري الإنساني الذي لا تشكل التجربة الغربية فيه سوى جزء من كل .

إن الثورة انقطاع، أما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاع للهوية التي سُلبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائماً عبر التاريخ، وكما ستكون بإذن الله في المستقبل . والمناضلون الفلسطينيون في اختيارهم لكلمة «انتفاضة» قد وضعوا يدهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخي المبارك، وهو أنه تحرك داخل إطار الهوية التي تمتد من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، ورفض للتبعية السياسية والاقتصادية والإدراكية . ولا يمكننا أن ننسب لشباب الانتفاضة الذين اختاروا المصطلح معرفة بكل هذا وإدراك واعٍ له، ولكن لا يمكن أيضاً أن ننكر إحساسهم الحضاري السليم بلحظتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بتراثهم أو إعراضهم النفسي والمعرفي عن النموذج الهرمي الغربي . فقد آثروا أن يحملوا علَم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة والدالة والتي لا

نظير لها في اللغات الأوربية . وفي العالم الغربي ذاته أدركوا خصوصية الانتفاضة ولذا فهم يكتبون الكلمة كما هي بحروف لاتينية دون محاولة للبحث عن مرادف لها في معجمهم اللغوي .

٤ - الاستعارة والصورة والإدراك

سيُلاحِظ القارئ أنني في هذه الدراسة (وغيرها من الدراسات) كثيراً ما أتناول الاستعارات والصور الكامنة والواضحة في أقوال العرب والصهاينة، كما أنني لا أحجم أحياناً عن استخدام الاستعارات في التعبير عن بعض الأفكار . وكثيرون يظنون أن الصور زخرفة وأن الاستعارات إضافة ومحسنات لفظية، ولكننا نعرف تماماً أنها أبعد ما تكون عن ذلك، فهي وسيلة إدراكية لا يمكن للمرء أن يدرك واقعه أو أن يعبِّر عن مكنون نفسه دونها . فالاستعارة إذن مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج المعرفية والإدراكية وخير وسيلة للتعبير عنها . وإذا أراد الدارس أن يصل إلى هذه النماذج ويعرف هويتها فلا يمكنه قط أن يطرح الاستعارات والصور جانباً باعتبارها زخارف . بل إننا نعرف أن الاستعارة جزء أساسي من نسيج اللغة ذاتها وعملية التفكير الإنسانية . ومن هنا تناولي الاستعارة بالتحليل واستخدامل إياها . ففي كتابي عن الانتفاضة قمت بتحليل استخدام شامير لصورة «عملاق جلفر» وبيَّنت أنها مقلوب الصورة الصهيونية القديمة «داود وجالوت» . وأشرت إلى التحول الذي دخل على الرأي العام العالمي بحيث أصبح يستخدم صورة داود الذي يمسك بالمقلاع لإدراك العربي . ونحن إذا كنا نحاول دراسة السلوك الإنساني وأن نرصد الإنسان في كل تركيبيته، فإننا لابد أن نرصد المعنى، والمعنى يتجلى في الاستعارات والصور أكثر من الخطاب المباشر .

وقد أشرت في كتابي عن الانتفاضة إلى واقعة دالة وطريفة ذكرها ضابط إسرائيلي، إذ شاهد شاباً فلسطينيّاً يرفع علَم فلسطين فوق مئذنة في يوم مطير . وقد أنجز الشاب ما يريد بعد جهد جهيد . وقد تركت الصورة أثراً عميقاً في نفس الضابط الإسرائيلي، واعتبر أن المجاهد الفلسطيني هو عكس صورة المستوطن الصهيوني الباحث عن الدعة والراحة . وقد تصادف أن بعض المعلقين السياسيين

العرب المهتمين بالانتفاضة استخدموا نفس المقال الذي وردت فيه هذه الواقعة كأحد مصادرهم . وقد فوجئت أنهم أسقطوا كلمة «مئذنة» وحولوها إلى «برج عالٍ» (أي أنهم علمنوها وطبَّعوها وجعلوها جسماً ماديًا عالياً والسلام) . وأنا هنا لا أتحدث عن عدم التزامهم الدقة العلمية، فالمئذنة في نهاية الأمر برج عالٍ . ولكن ما يهمنا في عملية الرصد الدقيقة أن الإسرائيلي شاهد فلسطينيًا يتسلق مئذنة وأن هذا هو ما رآه في أحلامه تلك الليلة، وهذا ما رواه لأصدقائه، وهذا ما سيحدد سلوكه . ولذا فإسقاط الواقعة التي تحولت إلى استعارة وصورة محددة في ذهنه (نموذج إدراكي) سيقلل من مقدرتنا على تفسير سلوك هذا الإسرائيلي وبالتالي التنبؤ به . وكما تحدثنا عن إمبريالية المقولات، يمكننا أيضاً أن نتحدث عن إمبريالية الاستعارات، وهي الاستعارات الأساسية التي تعبِّر عن إدراك الآخر وعن أحاسيسه الوجودية المتعيِّنة وعن نموذجه المعرفي . وكثيراً ما تقتحمنا هذه الاستعارات وتهيمن علينا وبالتالي يهيمن علينا النموذج المعرفي الكامن فيها .

وقد قمت في هذا الكتاب بتحليل بعض المصطلحات السياسية لأبيِّن الجانب المجازي فيها مثل «رجل أوربا المريض»، و«الحمائم والصقور» . واكتشفنا أن الحمائم والصقور مجاز (أي أن المسالمين مثل الحمائم والمتشددين مثل الصقور) ونحتنا استعارتين أخريين، دجاج ونعام، وولّدنا استعارات مختلطة مثل الدجاج والنعام التي تأخذ هيئة الصقور . إن الاهتمام بالمجاز والصور هو في نهاية الأمر اهتمام بالإدراك والدوافع والسلوك المتعين للإنسان وبتركيبيته التي تعجز اللغة الإخبارية المباشرة عن نقلها .

واخيراً....

يجب ألا ننطلق في رصدنا للبشر ولكل الظواهر المحيطة بنا من مقولات ثابتة مسبقة، أو من إدراك الآخرين لهم، إذ يجب أن نؤسس دراستنا على تجربتنا وتفاعلنا نحن مع الظواهر وأن ننفض عنا أي تبعية إدراكية . كما يجب ألا ندرس البشر وكأنهم انعكاس مباشر لواقعهم المادي، أشياء صماء تتأثر بقوانين الحركة المادية، ظواهر طبيعية تُرصد من الخارج كما تُرصد الأشياء، إذ يجب دراستهم كبشر يحسون بما حولهم بطريقة محددة ويسقطون عليها معنى داخلياً هو الذي

يحدد أهميتها بالنسبة لهم ويحدد مدى نجاحهم وفشلهم . وهم كبشر قابلين أيضاً للتماسك والنمو دون حتميات مسبقة تثبط الهمم دون مبرر أو تشحذها دون أساس، أي علينا أن نستعيد الإنسان كفاعل، قابل للانتصار والانكسار - من الداخل والخارج . ونحن إن فعلنا ذلك، زاد إبداعنا، وبدأنا ندرك الآخر في أبعاده المركبة المختلفة .

ونحن في كل هذا وبإدراكنا لخصوصيتنا وخصوصية الآخر لن نهون من قدر الآخر (سواء كان من الصهاينة أم من الحضارة الغربية) ولا من قدر أنفسنا . كما أننا لن نهول من قدره أو قدر أنفسنا . بل نرصده ونرصد أنفسنا بكل ما نضم داخلنا من قوى إيجابية وسلبية، مادية وروحية، حقيقية وكامنة . ونحن لو فعلنا ذلك نكون قد نزعنا عن الآخر أية هالات عجائبية يكون قد خلعها على نفسه (والعظمة "في نهاية الأمر" لله وحده) دون أن ننكر قوته الذاتية الحقيقية . ونكون أيضاً قد استعدنا للإنسان العربي إمكانيات الحركة الكامنة داخله وأدركنا أن ما قد علانا من غبار الهزيمة يمكن أن ننفضه وأن ننطلق لنعلي كلمة الحق والفضيلة في زمن الكذابين والصحفيين المأجورين والإعلام المصقول وأدوات القمع الكفء.

وكما قلت في بداية المقدمة هذا الكتاب يدور حول قضية الإدراك وعلاقته بالسلوك وأثر كل هذا على التحليل السياسي . ورغم أن كل الحالات التي نتناولها مستمدة من عالم الجماعات اليهودية والصهيونية إلا أن موضوع الكتاب هو أولاً وأخيراً قضية الإدراك .

ويتناول الفصل الأول خريطة الإدراك الصهيوني للعرب ومحاولة تجريدهم وتغييبهم . أما الفصل الثاني فيتناول نفس القضية وإن كان المجال يتغيَّر، فهذا الفصل يتناول الإدراك الإسرائيلي للعرب ومدى علاقة هذا الإدراك بسلوكهم، كما يركز هذا الفصل على إدراك الإسرائيليين للدولة الفلسطينية والانتفاضة . وفي جميع الحالات تحاول الدراسات أن تركز على المنحنى الخاص للإدراك وترصد تطوره عبر الزمان . ويتناول الفصل الثالث الإدراك الغربي لليهود وكيف يتحول

اليهود إلى مجرد عنصر نافع بل وإلى «مسلمين» في الوجدان الغربي، ويتناول هذا الفصل تصور العالم الغربي للدولة الصهيونية باعتبارها عنصراً نافعاً كما يتناول رؤية العالم الغربي والصهاينة لحروب الفرنجة (الصليبيين) رؤية النازيين لمفهوم الحكم الذاتي واحتمال تأثر الصهاينة بهذه الرؤية . ويحاول الفصل الرابع (والأخير) أن يقوم بتفكيك الإدراك الصهيوني وتوضيح كيف يعمل هذا الإدراك وكيف يعيد صياغة الواقع بما يتفق مع رؤية الصهاينة ومصالحهم . كما يبيِّن هذا القسم أن التعامل مع الحقائق الصلبة خارج سياقها التاريخي ودون دراسة البُعد الإدراكي والمعنى الداخلي فإنها تصبح إما لا معنى لها أو يفرض عليها أي معنى . ويوضح هذا القسم أهمية عملية التفكيك والخطوات اللازم اتباعها لإنجازه والله أعلم.

د . عبد الوهاب محمد المسيري

دمنهور والقاهرة   يناير ١٩٩٦

الفصل الأول:

فى الإدراك الصهيونى للعرب

١- من العربي المتخلف إلى العربي الغائب

٢- الاستجابة الصهيونية للعربى للحقيقى

١- من العربي المتخلف إلى العربي الغائب

من الحقائق الأساسية التي لابد من إدراكها أن الفكرة الصهيونية استمدت ملامحها الأساسية، ثم مقومات وجودها، من الحضارة الغربية (الرأسمالية/الإمبريالية) في القرن التاسع عشر، خاصة في الجزء الأخير منه. كانت هذه الحضارة في تلك المرحلة الزمنية قد وصلت منعطفاً خطيراً وهاماً للغاية من تاريخها، ومن تاريخ البشرية جمعاء، بعد الانفجار الذي حدث في إنتاج السلع نتيجة للثورة الصناعية، إذ تحولت إلى حضارة نهمة مفترسة جعلت من الإنتاج غاية لا وسيلة، وجعلت الغرض من إنتاج السلع هو الربح لا سد حاجة إنسانية ما.

وقد أدت هذه الانفجارة الإنتاجية (المنفصلة عن أي سياق إنساني أو أي إطار أخلاقي) إلى نمو الظاهرة المعروفة بالإمبريالية التي وصلت إلى ذروتها في العقدين الأخيرين في القرن الماضي (وهي المرحلة التي ولدت فيها الصهيونية واقتسم الغرب فيها العالم).

وكان لابد من ظهور اعتذاريات تبرر هيمنة الإنسان الغربي على مصائر كل البشر، واغتصابه لكل الثروات على وجه الأرض، واقتسامه لآسيا وأفريقيا وأمريكا، ولإبادته لسكان عدة قارات بأكملها (الإمريكتين واستراليا) ولاستعباده ونقله لأعداد هائلة من سكان قارة أخرى (أفريقيا) ولاستغلاله لشعوب قارة ثالثة واحتلاله لبلدانها (آسيا، خاصة الهند). وقد شهدت هذه المراحل بالفعل تطور وتبلور الفكر العنصري الغربي وظهور كل كلاسيكياته المعروفة ابتداء من فكر هيجيل الذي يحتوي داخله على النظرية العنصرية الغربية بشكل جنيني، ومروراً بفختة وتريتشكه ونيتشه وتشامبرلين، وأخيرا هتلر ومنظري النازية.

ومن الصعب «تلخيص» هذا التراث الضخم والمركب من الكتابات العنصرية الغربية، وهو أمر على أية حال يقع خارج نطاق هذا البحث، ولكن قد يكون من المفيد أن نحاول أن نصل إلى بعض ملامحه الأساسية لأننا بذلك ندرك أيضا الملامح الأساسية للفكر الصهيوني. ويمكن القول أن جوهر الرؤية العنصرية في

الغرب هي تحويل الذات القومية، أو «اثنية» الإنسان، إلى المصدر الوحيد للقيمة والمطلق الوحيد الذي يؤمن به الإنسان، بحيث يصبح ماهو خارج هذه الذات مجرد وسائل يمكن استخدامها (على أحسن تقدير) وعوائق يجب إزالتها (على أسوأ تقدير).

وقد أفرزت هذه الرؤية نظرية «للحقوق» الأزلية التي لاتخضع للنقاش والتي لا يتمتع بها سوى صاحب الاثنيه. ولكن كان الحل الإمبريالي لمشاكل أوروبا هو تصديرها إلى الشرق، ولذا عُرِّفت هذه الهوية على أنها متفوقة أيضا بحيث اتسع نطاق نظرية الحقوق ليبتلع حقوق الآخرين «المتخلفين» في آسيا وأفريقيا والأمريكتين حيث توجد تشكيلات حضارية بدائية لاقيمة إنسانية لها، كما كان يدعي الإمبرياليون، ومواد خام يمكن استخدامها لتزويد الآلة الصناعية الرهيبة، وسوق ضخمة تبتلع كل السلع التي أنتجت بهدف الربح.

ويمكننا القول -بكثير من الاطمئنان- أن بنية الرؤية الصهيونية لكل من اليهود والعرب اكتسبت نفس هذه الملامح. فالحركة الصهيونية قد بدأت بين اليهود بإعلان التمرد على الدين اليهودي والشريعة اليهودية وقام الصهاينة بإحلال اليهودي ذاته والاثنية اليهودية محل العقيدة اليهودية كمصدر أساسي للقيمة، وأصبحت هذه الذات هي المطلق الذي يبحث عن التحقق في التاريخ (وكأنها كلمة الله).. ولذلك نجد أن منطق الرؤية الصهيونية للذات الصهيونية وتحققها يعني اختفاء العربي وغيابه (لاسبه أو نعته بالتخلف وحسب على الطريقة الغربية) بحيث يصبح هذا الغياب هو محورها الرئيسي وغرضها النهائي، وقصدها الخفي في معظم الأحيان، والمعلن في أحيان قليلة.

وإذا افترضنا أن تحقق هذا المتصل الإدراكي أو ذروته هو الغياب الكامل للعربي فإن كل الأجزاء والمراحل الأخرى تنزع نحو ذلك. وفي نظامنا التصنيفي سنبدأ بأقصى اليمين وهي لحظات إدراكية نادرة يدرك فيها العقل الصهيوني وجود الإنسان العربي الحقيقي وتاريخه ونضاله بل وحقوقه، وفي أقصى اليسار توجد الرغبة الصهيونية العارمة في أن يغيب العربي حتى تخلص له الأرض دون سكانها. ومن

الطرف الأول إلى الطرف الآخر ثـمة اتجاه تدريجي نحو التخلص إدراكـيا (وفعليا) من هذا العربي ابتداء من نعته بأنه إنســان شرقي ملون متخلف، ثم رؤيته على أنه ممثل للأغيار بكل وحشيتهم وقسوتهم ولذلك فهو يستحق مـايحل به، ثم محاولة تهميشه، وانتهاء بإنكار وجود العربي أساسا.

ويلاحظ أن الحركة هنا هي حركة نحو مزيد من التجريد فبدلا من رؤية الإنسان الفلسـطيني كإنسـان حـقيقي مزارع يعـيش في أرضه وأرض أجداده يزرعهـا وينتج أشكالا حـضارية تستحـق الاحترام، يتحـول إلى إنسان شرقـي متخلف لا يسـتغل الأرض على أكمل وجـه. ثم تزداد درجة التجريد لـيصبح ممثلاً للأغيـار، عليه أن يدفع ثمن الكوارث التي حاقت باليهود عبر التاريخ، ثم يظهر هذا الإنسان على أنه شخصية هامشية تفتقد أية هوية قـومية أو حضارية أو أية دوافع سياسية. ثم يصل التجريد ذروته (والرؤية لحظة تحققها) حينما تنكر الأدبيات الـصهيونية وجود هذا الإنسان أسـاساً وتغفل الإشـارة إليه. وفي بقـية هذا الفصـل سنتناول بـشيء من التفصيل مقولات الإدراك الصهيوني الأربعة:

(أ) العربي المتخلف.

(ب) العربي ممثلا للأغيار.

(جـ) العربي الهامشي.

(د) العربي الغائب.

العربي المتخلف

نظرت الصـهيونية لنـفسها على أنـها جزء من التشـكيل الحضاري الاسـتعماري الغربي حـتى تستفيد مـن نظرية الحقوق والواجـبات السائدة في الغـرب في القرن التاسع عشر، والتي عرّفت واجب الإنسان الأبيض بأنه إدخال الحضارة في المناطق الأقل تحضراً في آسيا وأفريقيا وذلك عن طريق الاحتلال الفعلي للقارتين[١]، حتى لو أدى ذلك إلى إبادة السكان الأصليين [٢].

وقد عرّف منفكرو الحركة الصهيونية اليهود بأنهم جزء من الجنس الأبيض المتقدم، وكان هرتزل يرى مشروعه الصهيوني في إطار فكرة عبء الرجل الأبيض [٣] وتبعه في ذلك زانجويل [٤] وآخرون.

ولذلك نجد في الكتابات الصهيونية حديثاً طويلاً ومملاً عن النظافة الغربية والنظام الغربي والحضارة الغربية التي سيأتي بها الصهاينة كممثلين للحضارة الغربية في «الشرق الموبوء» [٥]، وهذا موضوع أساسي كامن متواتر في الأدبيات الصهيونية يمكن لمن يشاء أن يعود لأعمال معظم المفكرين الصهاينة ليجد أطناناً من الأقوال تدعم رأينا هذا.

هذه الرؤية للذات الصهيونية الغربية المتقدمة تفترض صورة العربي الشرقي المتخلف، وهي صورة محورية في الأدبيات الصهيونية. وقد لاحظ المفكر الصهيوني أحاد هعام عام ١٨٩١ أن المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة، وينظرون إليهم باعتبارهم «متوحشون صحراويون»، «شعب يشبه الحمير، لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم». [٦] كما لاحظ أحد الرواد الصهاينة في أوائل القرن أن الصهاينة يعاملون العرب كما يعامل الأوربيون السود [٧]. أما هارون أرونسون، أحد زعماء المستوطنين في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين، فقدْ حذر الرواد الصهاينة من أن يقطنوا بجوار «الفلاح (العربي) القذر، الجاهل والذي تتحكم فيه الخرافات»، كما أنه كان يؤمن «بأن كل العرب مرتشين» [٨].

والعربي، حسب تصور وايزمان، يتصف بنفس الصفات تقريباً التي ذكرناها من قبل، فهو «عنصر منحط» [٩] يحاول «الجري قبل أن يستطيع السير» [١٠]، وهو شعب غير مستعد للديموقراطية ومن السهل أن يقع «تحت تأثير البلاشفة والكاثوليك» [١١]. وقد أرسل هذا الزعيم الصهيوني خطاباً لترومان رسم فيه صورة مشرقة للذات الصهيونية المتقدمة في مقابل الصورة الكئيبة للمجتمع العربي الأمي الفقير في فلسطين [١٢]. وأعتقد أنه لا يفيد كثيراً أن نأتي بمزيد من «الأدلة» والقرائن والبراهين من أعمال بن جوريون أو جابوتنسكي أو غيره من الكتاب

الصهاينـة إذ أن مثل هذا سيكون مجرد تمـدد أفقي لا يغير من الصـورة كثيرا. وبما أننا لـسنا في مجال محاكمة الفكر الصهيوني وإنما نهدف إلى فهمه وتصنيفه فلنتوقف قليلا لندرس هذا البعد من الإدراك الصهيوني للعرب.

صورة العربي المتخلف تعود بجذورها إلى الاعتذاريات والكتابات العنصرية التي تتحدث عن عبء الرجـل الأبيض ولذلك فهي لا تتسم بأية خصوصـية صهيونية. فالعربي المـتخلف لا يختلف كثـيرا عن الأفريقي المتخلف أو الآسيـوي المتخلف أو حتى الأمـريكي الأسود المتـخلف، فكلـهم سواء من وجهـة نظر الإنسان الـغربي المتقدم. ولذلك نجد أن الوصف هنا يتسم بالـعمومية والتجريد والانتقاء، وهذا أمر حتمي فـي أي تفكير عنصـري لأنه إن لم يتسم بـذلك وجد العنصري نـفسه أمام وجود متعين محسوس له قـيمة تاريخية متعينة محددة وأصبح مـن العسير استغلال صاحب هذا الوجود واقتلاعه وإبادته.

ولكن إذا كان العربي متخلفاً إلى هذا الحـد، والصهيوني متقدماً إلى هذا الحد، أليس من المنطقـي أن نتوقع أن يأخذ الثاني بيد الأول. وهنا يجـب أن نهيب بمنطق التاريخ قلـيلا طارحين جانبا منطـق الأسطورة. وسنكتشف أن وايزمـان العقلاني، الذي كان يـقدح في العـرب لتخلـفهم، لم يـحاول قط أن يأتـى بالنور والحـداثة والتقدم، بل سـاعد على تكريس التخلـف، ولذا بذل قصارى جهده ليـستفيد من الخلافات العـربية المختلفـة ومن الاحتكاك بين الـفلاحين والبدو، ومن الـتوترات والصراعـات بين المسلمين والمسيحيـين وبين العناصـر الحضرية والريـفية[١٣]. بل وحاول الصهاينة في صيف عام ١٩٢١ تأسيس «منظمة قومية إسلامية» تتخذ موقفا مماثلا للبـريطانيين وتعارض المنظمات الإسـلامية / المسيحية والمعارضـة للاستعمار، وقد نجحوا بالـفعل في تأسيس مثل هذه المـنظمات في حيفا والنـاصره وطبريه [١٤] ولكن يبدو أنهـا لم تعمر طويلا. وقد فضل الـصهاينة دائما التعامـل مع القيادات التقليدية و سحق القيادات الحديثة.

والصهاينة محقون في ذلك تماما، فلقد أدركوا منذ البداية أن تحديث العرب وتقدمهم يعني تحقق الإمكانية العربية الكامنة، وتحققها سيؤدي لا محالة إلى الغياب الصهيوني، وهو أمر لا يمكن لحركة سياسية ذات مصالح حضارية/ طبقية محددة أن تسمح به. لكل هذا يمكننا القول أن الإدراك الصهيوني للعربي من خلال هذه المقولة لا يجعل منه إنسانا شرقياً متخلفاً وحسب، وإنما يود أن يبقى عليه في هذا الوضع.

العربي ممثلا للأغيار

تتسم الرؤية الصهيونية للذات بالتنوع بل والتناقض أحيانا، والصهاينة الذين يرون أنفسهم كشكل من أشكال التعبير عن الحضارة الغربية يرون أنفسهم أيضا تعبير عن الجوهر اليهودي الخالص، وبذا يصبح المشروع الصهيوني ليس ممثلا للحضارة الغربية المتقدمة وإنما ممثلا للشعب اليهودي الذي عانى الويلات عبر تاريخه على يد الأغيار. ولكن رؤية الذات -كما أسلفنا- مرتبطة برؤية الآخر، ولذا نجد أن العربي، في هذا السياق الجديد، يتحول من العربي المتخلف إلى العربي ممثلا للأغيار. والموقف الصهيوني من الأغيار يتسم بالاستقطاب المتطرف، فالعالم ينقسم إلى الضحايا اليهود والأغيار الذئاب- شعب مختار وشعوب متربصة به- دائما وأبدا. وإذا كانت الاستراتيجية الإدراكية الأساسية عند العنصريين -كما أسلفنا- هي تجريد الضحية من إنسانيته التاريخية المتعينة وبالتالي من حقوقه، فإن عملية التجريد هنا تكتسب خصوصية تزيد التجريد حدة وضراوة. فمقولة الأغيار أكثر تجريدا من مقولة الزنجي في الأدبيات العنصرية البيضاء، ومن مقولة اليهودي في الأدبيات النازية، ومن مقولة العربي كشرقي متخلف في الأدبيات الصهيونية. وينبع تجردها من أنها لا ترتبط بزمان أو مكان محددين وإنما تضم كل الآخرين في كل زمان ومكان. فالعربي شرقي متخلف مرتبط علي الأقل بمكان ما هو الشرق، وزمان ما هو الماضي، أما حينما يصبح ممثلاً لكل الأغيار فهو يصبح لا تاريخ ولا أرض له، ويفقد كل ملامحه وقسماته وبذا تحقق الاستراتيجية الإدراكية خطوة كبيرة إلى الأمام (نحو الغياب الكامل).

ومرة أخرى يجب أن ندرك أن الصهاينة كانوا يتبعون في ذلك التشكيل الحضاري الغربي. فالصهيونية ذات الديباجة المسيحية والتي يسبق تاريخها تاريخ الصهيونية ذات الديباجة اليهودية تقبلت مثل هذا التقسيم للعالم كيهود وأغيار. ولذلك يتحدث وعد بالفور عن «الجماعات غير اليهودية» -أي جماعة الأغيار التي تشغل الأرض. وقد أشار هرتزل أثناء تفاوضه بشأن كبريت كي تصبح موقعاً للاستيطان الصهيوني- أشار إلى سكانها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم مجرد أغيار، «عرب، يونانيون، هذا الحشد المختلط من الشرق»(١٥).

هذا الإدراك للعربي ممثلا للأغيار ساعد الصهاينة على «تفسير» الثورات العربية الفلسطينية المتتالية تفسيراً يتلاءم مع مصالحهم وتحيزهم ورؤيتهم، إذ تصبح المقاومة العربية جزءاً من مؤامرة الأغيار الأزلية. فقد وصف إسحق بن تزفي، رئيس اسرائيلي سابق، المقاومة العربية بأنها مجرد مذبحة أخرى يرتكبها المعادون لليهود قام قنصل روسيا في فلسطين بالتحريض عليها (١٦). وحينما اختفى القنصل الروسي بعد الثورة البلشفية كانت القيادة الصهيونية ترى عملاء انجلترا ثم عملاء فرنسا في العشرينات، وعملاء ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية في الثلاثينات كمحرضين على هذه الثورة (١٧). أما في الأربعينات فقد أصبحت سلطات الانتداب. والإدارة العسكرية في فلسطين -حسب هذه الرؤية- هي المحرك الرئيسي لثورة الفلاحين الفلسطينيين (١٨). وقد لخص أحد المستوطنين الصهاينة هذا الموقف بقوله أن ثورة الفلاحين الفلسطينيين ليست محاولة لرد العدوان والظلم الواقع عليهم وإنما هي تعبير عن العداء الأبدي الذي يبديه الأغيار نحو اليهود، بوصفهم «شعبا طُرد من بلاده» (١٩).

وهكذا من خلال هذا الإدراك يستوعب الصهاينة التمرد العربي ويضعونه داخل قالب مجرد يفرغه من مضمونه الإنساني بحيث لا يشكل أي تهديد نفسي للمغتصب، بل أنه يحول المغتصب، -مهما بلغ جرمه من بشاعة- إلى ضحية أبدية!.

وقبل أن ننتقل للمقولة الثالثة قد يكون من المفيد أن نذكر أن الإدراك الصهيوني للعرب يركز دائما على الماضي وعلى الحاضر ويكاد يسقط المستقبل تماما في معظم الأحيان، وإذا تم التعرض له فإن المستقبل يُنظر إليه باعتباره امتداداً كمياً للماضي وليس مجالاً للتحول الكيفي. ومثل هذا الموقف هو نتيجة طبيعية لإسقاط التاريخ والزمان وتحويل العربي إلى كم متخلف غير قادر على الحركة أو ممثل لا زمني للأغيار يتخطى الحاضر والمستقبل.

العربي الهامشي

بينًا في بداية الفصل أن الترجمة الكاملة للرؤية الصهيونية هي الغياب الكامل للعرب. وقد لاحظنا أن عملية التجريد التي تحدثنا عنها هي أيضا عملية إسقاط لإنسانية هذا العربي وبالتالي تجريده من أية حقوق إنسانية. وتصل هذه العملية إلى قمتها في مقولة العربي الغائب. ولكننا لا نصل إلى هذه الذروة مباشرة إذ يمكن ملاحظة استراتيجيات إداركية مختلفة تسبق ظهور العربي الغائب سنسميها «تهميش العربي».

ويمكن القول أن عملية تهميش العربي تأخذ أساساً شكل إنكار أي وجود سياسي قومي للعرب عامة وللفلسطينيين على وجه الخصوص. فالصهاينة في إدراكهم للثورات العربية ضدهم ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع لهذه الثورات ليس حب الأرض أو الوطن أو تمسك الإنسان بترائه، وإنما هي ثورة تعبر عن «التعصب الديني» (٢٠). وكان الصهاينة أحيانا يلومون المسيحيين العرب باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الإستيطاني، ويصورون المسلمين باعتبارهم طيبين يمكن التفاهم معهم؛ وأحيانا أخرى كانوا يفترضون العكس فيؤكدون أن العدو الحقيقي هم المسلمون أما المسيحيون فهم على استعداد أكبر للتعاون (٢١). وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة لهم مجرد غوغاء لا تحركها الدوافع القومية يتلاعب بها الإقطاعيون والأفندية (٢٢). وتمرد هذه الجماهير ليس تعبيرا صادقا عن حركة قومية خلاقة وإنما تمليه الاعتبارات الإقطاعية والقبلية الضيقة (٢٣).

إلى جانب هذا كان الصهاينة يرون الفلسطيني أو العربي حيواناً أو مخلوقاً اقتصادياً محضاً تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة، ولذا يمكن حل المشكلة العربية- حسب هذا التصور- في إطار اقتصادي ليس بالضرورة سياسيا (٢٤). ولعل من أول الأمثلة على هذه الاستراتيجيه الإدراكية رشيد بك، هذا العربي المخلّق حسب المواصفات الصهيونية في رواية هرتزل **الأرض الجديدة القديمة**، الذي يؤكد أن الوجود الصهيوني قد عاد علينا بالنفع الكبير. لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، وكانت الهجرة اليهودية خيراً وبركة خاصة بالنسبة لملاك الأراضي لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة(٢٥). وظل لفيف من الصهاينة يؤمن إيماناً راسخاً بأنه يمكن التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التي سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية [بعد إعطائهم التعويض الاقتصادي المناسب عن وطنهم] (٢٦). وكانت إحدى قناعات وايزمان الإدراكية أن تطور فلسطين الاقتصادي سيؤدي إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية (٢٧).

وتعبيراً عن هذا الإدراك للعربي يتواتر في الكتابات الصهيونية موضوع أساسي كامن يمكن تسميته «شراء فلسطين». فكثير من الصهاينة كان ينظر إلى الاستيطان الصهيوني باعتباره عملية شراء أراضٍ بسعر أعلى من سعر السوق، وأنهم بذلك يكونون قد أعطوا العرب «حقهم»- والحق هنا قد عُرِّف تعريفاً اقتصادياً وحسب، وفلسطين هنا ليست وطناً وإنما سوقاً عقارية. وتؤكد لنا يوميات هرتزل أنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بإمكانية شراء فلسطين بالتقسيط المريح وبأسعار مخفضة. وحينما قامت ثورة البراق عرض بعض الصهاينة شراء حائط المبكى.

ولعل موضوع شراء فلسطين متطرف بعض الشيء، ومع هذا يمكن القول أن إدراك العربى كمخلوق اقتصادى ليس له حقوق سياسية أو وعى قومى كان بعداً أساسياً فى الوجدان الصهيونى. ويؤكد والتر لاكير وغيره أن السياسة الرسمية للصهيونية فى العشرينات (ويمكن أن نضيف وبعدها) هو عدم الدخول فى مناقشات سياسية مع العرب وأن ينصب أى تفاوض على التعاون الاقتصادى وعدم التعرض لطبيعة النظام السياسى.

ويلاحظ ان الاستراتيجية الإدراكية هنا تهدف لإسقاط الطبيعة القومية لردة الفعل العربية لأنه لو تم تصنيفها على أنها قومية، لنجم عن ذلك الاعتراف بأن هذا التشكيل القومى له أرض قومية وتراث قومى ومجال قومى ومجموعة من الحقوق القومية تنسف ادعاءات الصهيونية «القومية».

ومع هذا كانت القومية العربية تفرض نفسها فرضاً على الإدراك الصهيونى كدافع محرك للجماهير العربية، وهنا كان يتبنى الصهاينة استراتيجيتين أخريين، هما فى جوهرهما تعتبران أكثر حذاقة وصقلاً عن محاولة «تهميش» العربى ونزع الصبغة السياسية عنه. أما الأولى فهى الاعتراف بالطبيعة القومية للثورات الفلسطينية مع تفسيرها تفسيراً يجردها من مضمونها الإنسانى أو السياسى ويفصلها عن الحركات القومية المماثلة، وبالتالى تصبح قومية ناقصة لاتستحق أن تحصل على كل الحقوق القومية. فالقومية العربية- حسب هذا الإدراك- هى أساساً قومية مخُلقة عميلة للانجليز وللقوى الخارجية (٢٨). (وقد أشرنا من قبل أثناء حديثنا عن العربى ممثلا للأغيار عن الإدراك الصهيونى للتمرد العربى كنتيجة تدخل القنصل الروسى أو الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى او الإيطالى). كما أنهم أحيانا كانوا يرون القومية العربية على أنها مجرد «ردة فعل» للاستيطان الصهيونى ليس لها وجودها الحقيقى، وأنها محاولة سلب للصهيونية، ليس لها دينامية ذاتية مستقلة(٢٩).

كما كان الصهاينة العماليون ممثلو العالم الغربى الاشتراكى وفكرة التقدم الاشتراكية يسمون القومية العربية بأنها قومية «رجعية» (٣٠)، أو كما قال ارلوزوروف أنها قومية تهيمن عليها قوى الرجعية الاجتماعية والطغيان السياسى وأنها لم تنتج قيادات سياسية مثل صن يات صن أو غاندى (٣١).

أما الاستراتيجية الإدراكية الثانية فى مجابهة القومية العربية كأمر واقع يفرض نفسه فرضا، فهو الاعتراف بها كقومية كاملة مع تقليص مجال فعاليتها بحيث لاتضم الفلسطينيين. ويقول أحد مؤرخى الحركة الصهيونية أن إسهام وايزمان

الأساسي للرؤية الصهيونية للعرب تتلخص في تمييزه بين العرب والفلسطينيين، إذ كان يرى إمكانية التوصل إلى اتفاق مع القومية العربية بل ومساومتها في مقابل أن يتخلى العرب عن مطالبهم في فلسطين [٣٢]. وكان هو أيضا صاحب نظرية أن فلسطين جزء غير هام من الوطن العربي الكبير [٣٣]. وكان ارلوزوروف موافقاً على التعاون مع العرب، ولكنه كان متشائما بخصوص التعاون مع الفلسطينيين [٣٤]. ويمكن أن نرى مفاوضات وايزمان/ حسين ومعظم اتصالات الصهاينة مع العرب في هذا الإطار بل إن الصهاينة قدموا عام ١٩٣٠ مشروعاً، طرحه موشيه بيگنسون، نائب رئيس تحرير دافار، ونال تأييد بن جوريون الحذر، هو في جوهره تعبير عن هذه الاستراتيجية- وكان المشروع يدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون جزءاً من اتحاد فدرالي يضم الشرق العربي بأسره، وفي هذه الدولة يكون الفلسطينيون أقلية ولكن الدولة ذاتها تشكل أقلية داخل الاتحاد العربي[٣٥].

ولعل هذه الاستراتيجيات الإدراكية من أذكى الأستراتيجيات على الإطلاق وأكثرها فرادة ودهاءً وتعبيراً عن خصوصية الصهيونية كحركة استيطانية إحلالية لا تهدف إلى غزو العالم واستعباده (على طريقة النازية) ولا حتى السيطرة على العالم العربي، وإنما الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وحدها دون ساكنيها. فعملية التهميش هنا تصبح قاصرة على الضحية المباشرة وحسب، أي الفلسطيني، دون حاجة لاستجلاب عداء الآخرين سواء في الشرق أم الغرب.

العربي الغائب

بمعنى من المعاني يمكن القول أن كل الاستراتيجيات الإدراكية السابقة هي من قبيل محاولة تغييب العربي. فالعربي المتخلف، والعربي ممثلا للأغيار، والعربي الهامشي والذى ليس له حقوق قومية هو عربي مُغَيَّب مفتقد للحقوق الواضحة. إن كل هذه المحاولات هي تعبير عن النزوع الصهيوني نحو إخفاء العربي. وكما أسلفنا يصل الإدراك الصهيوني للعربي إلى ذروته ولحظة تحققه النماذجية في الإنكار الكامل لوجود العربي، فلا يُذكر بخير أو شر، ويتم إظهار عدم الاكتراث الكامل به بل والتزام الصمت حياله. وهذه الرؤية للآخر مرتبطة برؤية الذات وهي

رؤية اليهودى الخالص- وهو اليهودى المطلق ذو الحقوق المطلقة الخالدة التى لاتتأثر بوجود أو غياب الآخرين. بل إن وجود الحقوق اليهودية الخالصة يجعل حقوق الآخرين مجرد حقوق «خارجية وعرضية ومؤقتة» [٣٦]، وجودها مثل غيابها لا يؤثر فى علاقة اليهودى بالأرض وحقوقه فيها. ومن هنا كان الشعار الصهيونى بأن «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فمن عليها من بشر غائب لاوجود له، وإن كان له وجود فهو وجود عرضى وغير هام. (أما اليهود فشعب بلا أرض لأن حقوقهم اليهودية الخالصة تربطهم برباط لاتنفصم عراه بهذه الأرض وهذه الأرض وحدها، مما يؤدى الى تفكك أواصر الارتباط بأية أرض أخرى). وكما قال بن جوريون إن فلسطين «بلد بلا سكان»[٣٧]، فامتلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصليين، ولا يمكن للبشر يهوداً كانوا أم عرباً «أن يتساءلوا عن معنى هذا القرار، لأن محور مشكلة فلسطين» وفقا لما قاله بن جوريون «يتلخص فى حق اليهود المشتتين فى العودة» [٣٨]، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ وحتى آخره. ولذا يمكن أن يؤكد فى خطاب له فى اكتوبر ١٩٣٦أنه لا يوجد أى صراع بين القومية اليهودية والقومية الفلسطينية لأن الأمة اليهودية ليست فى فلسطين (بعد) ولأن الفلسطينيين ليسوا أمة [٣٩].

وقد فسر بعض المفكرين الصهاينة هذا الإصرار على العربى الغائب أنه ضرورة نفسية واضحة؛ لأن تحقق الصهيونية كان يعنى بالضرورة نقل (أو تغييب) العرب[٤٠]. وسواء أكان ذلك ضرورة نفسية أم لا، فإن غياب العربى -كما أسلفنا-هو المحور الأساسى ونقطة التحقق الكاملة للاستعمار الصهيونى الاستيطانى الإحلالى- الذى تتبع صهيونيته (نقل الشعب اليهودى إلى أرض الميعاد) من إحلاليته(تفريغ الارض من سكانها الاصليين). وذكر العرب، ولو فى مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمنى بهم ، كما أن إخفاءهم وراء مقولة الأغيار ينطوى أيضا على قسط من الاعتراف. ونفس القول ينطبق على التهميش، إذ أنه يمكن رؤية دماء الضحية السائلة. أما الإغفال الكامل فهو عملية نظيفة للغاية إذ يتم الذبح كما يتم مواراة الجثة!.

ورصد مقولة العربي الغائب وتوثيقها أمر صعب للغاية؛ لأنه لايمكن رصد وتوثيق ما هو غائب بالطريقة التقليدية من حشد الاقتباسات والنصوص وتحليلها. ومع هذا يوجد عدد كبير من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لايمكن فهمها إلا في إطار مقولة العربي الغائب. ويمكن أن يندرج تحت ذلك كل هذا الحديث المستفيض عن «الأرض المقدسة» «وارتس يسرائيل» و«صهيون» و«أرض الميعاد» فهو حديث يستند في نهاية الأمر إلى افتراض غياب فلسطين العربية. فعبارة مثل «أرتس يسرائيل» تغيب كلمة «فلسطين» تماما، وبالتالي تغيب الفلسطينيين، وتؤكد الرابطة العضوية والأزلية بين اليهود وهذه الأرض. ولهذا نجد أن الصهاينة يكتبون دراسات «علمية» رصينة عن الجماعة اليهودية في طبرية أو دور اليهود في الدفاع عن القدس إبان الحروب الصليبية. ويكتشف المرء في طي مثل هذه الدراسات أن عدد ساكني طبرية من اليهود لايتجاوز المائة، وأنهم كانوا من المتصوفين اليهود، وأن المدافعين اليهود عن القدس، إن كان هناك مدافعون، لايتجاوز بضعة أشخاص، ولعلهم وُجدوا أثناء المعركة بالصدفة. ولكن هذه التواريخ «العلمية» تنظر لهؤلاء باعتبارهم الأساس والجوهر وما عداهم من جماعات بشرية فلا أهمية تذكر لها. والحديث عن استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها «عاليا» أي«صعود» وعنهم باعتبارهم «معبيليم» هو أيضا حديث يفترض غياب العرب. بل ويمكن القول أن المصطلح الصهيوني ككل (نفي ، وعودة، تجميع المنفيين. .الخ) يفترض هذا اليهودي الخالص الذي يفترض بدوره العربي الغائب. وحينما يتحدث الصهاينة عن «التاريخ اليهودي» يتحدثون في واقع الأمر عن تشكيل يهودي حضاري عالمي مركزه ارتس يسرائيل (أي فلسطين)، وأن تاريخ هذه المنطقة الجغرافية هو «تاريخ يهودي» وحسب، أما التواريخ الأخرى - سواء تاريخ الكنعانيين مئات السنين قبل التسلل العبراني أم التاريخ العربي لمئات السنين بعد الفتح الإسلامي وتواريخ كل الأقوام الأخرى التي كانت تعيش في أرض كنعان/ فلسطين. فهذه كلها أمور ثانوية. والحديث عن «النفي والعودة» و«تجميع المنفيين» هو تعبير عن نفس الرؤية والإدراك. فنفي اليهود يعني أن الوجود العربي عرضاً مؤقتاً، و«العودة» تعني ضرورة «الخروج» أو «النفي العربي»، و«تجميع المنفيين» عنى تشريد الفلسطينيين

ـإن أحزان صابرا وشاتيلا كامنة فى الخطاب الصهيونى. وقد صدر بالفور من نفس المنطق والرؤية حينما تحدث عن الغالبية الساحقة لسكان فلسطين فى بداية هذا القرن باعتبار أنهم «الجماعات غير اليهودية». فالمنطق الصهيونى والاستعمارى اتفقا على الإدراك وعلى المخطط وهو تغييب العرب عن طريق نفيهم وتحويلهم إلى كم مهمل (مهما كان حجمه) قابل للنقل وربما للإبادة إن سنحت الفرصة. ومن هنا الحديث فى كتابات الصهاينة حتى الآن عما يسمى «بالترانسفير» أو نقل العرب أى تهجيرهم بالقوة، أى تغييبهم. إن قراءة أى نص صهيونى وفهم أى برنامج صهيونى أمر صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، دون افتراض مقولة العربى الغائب.

الصمت إذن بليغ فى حالة العربى الغائب، ولكن ثمة نصوص وبرامج سياسية صهيونية تفصح رغم أنفها عن مقولة العربى الغائب الكامنة، ويحدث هذا حينما يفرض العربى الامبريقى نفسه فرضاً، كوجود موجود، ككيان بيولوجى من الصعب تجاهله- كجثة ترفض أن تذوب فى السحب أو تختفى تحت التراب. هنا يلجأ الصهاينة إلى تغييبه. ومن الأمور التى لها دلالة عميقة أن كثيراً من المفكرين الصهاينة (من المسيحيين واليهود) الذين لم يكونوا قد احتكوا بعد بالعرب بل ولم يعرفوا بوجودهم الفعلى اقترحوا نقلهم أو إبادتهم. وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن أن نذكر الحاخام كاليشر الذى لم يكن قد ذهب قط إلى فلسطين ومع هذا كتب عام ١٨٦٢ يتحدث عن «خطر العصابات العربية»(٤١)، ويبدأ يفكر فى طريقة إزاحتهم عن الطريق الصهيونى. ويمكن أن نذكر سير لورانس أوليفانت ولورد وشافتشبرى وغيرهم من الصهاينة المسيحيين الذين اقترحوا ضرورة نقل العرب ووضعوا الخطط لذلك. ومن بعد ذلك يمكننا أن نشير إلى هرتزل هذا الليبرالى الرقيق الذى يتحدث عن طرد السكان الأصليين سواء كان يتحدث عن مشروع استيطان صهيونى فى قبرص أم فلسطين، ومن بعده نورداو، وزانجويل الذى اقترح تهجير العرب على نمط هجرة البوير إلى الترنسفال وعلى نمط هجرة اليونانيين أو الأتراك كل إلى بلده(٤٢). ولم يكل الصهاينة التصحيحيون بطبيعة الحال والرؤية

عن تأكيد ضرورة «تنظيف» الأرض ومن سكانها. وهي نفس العبارة التي استخدمها وايزمان «العقلاني» وغيره من الصهاينة لوصف طرد الفلسطينيين العرب عام ١٩٤٨[٤٣]. وعلى كل كان وايزمان منذ البداية يرى في نقل و تغييب العرب حلاً للمشكلة الصهيونية[٤٤].

أما بوروخوف المفكر الصهيوني، والذي يقدم اعتذاريات اشتراكية ماركسية، فقد اقترح أن يكون مصير العرب هو الانصهار في المستوطنين الصهاينة، وهي طريقة تغييب ثورية اشتراكية مبتكرة[٤٥]. وقد تبعه الممارسون العماليون مثل بن جوريون وموتزكين وغيره. وقد قمت في كتابات أخرى، كما قام غيري، بتوثيق هذا الجانب في الإدراك والمشروع الصهيوني، ولا يوجد أي مبرر لتكراره.

ولكن يجب أن نؤكد مرة أخرى أن الصهاينة لم يكونوا منفردين في ذلك، فالمنطق السائد في التشكيلي الحضاري الغربي كان يستبعد الآخرين ويهدر كل حقوقهم نظريا. وإذا كان إهدار الحقوق في حالة الصهيونية يأخذ شكل تغييب العرب، فإن هذا يعود إلى بنية الصهيونية ذاتها والتي تستمد خصوصيتها من طبيعة المشروع الصهيوني الخاصة. ولذا يجب ألا نفسر هذا الجانب من الإدراك الصهيوني تفسيراً أخلاقياً فننعت الصهاينة بأنهم أكثر شراً وانحلالاً خلقياً من الاستعماريين التقليديين او الاستعماريين الاستيطانيين الغربيين، لأننا لو فعلنا لتصورنا أن المسألة تستند إلى الإرادة، وكأنه يمكن للصهاينة أن يتوبوا يوماً ما عن فعلتهم ويرعووا ويبدوا الندم ويعودوا عما ارتكبوه من ذنوب، وبذلك يغيب عن إدراكنا مدى حدة الصراع وأبعاده البنيوية الموضوعية.

اليهودى كعربى والعربى كيهودى

وقبل أن نلخص نتائج هذا القسم نود أن نذكر موضوعين أساسيين يستدعيان بعض التوقف إن لم يكن لأى شئ فعلى الأقل لطرافتهما، وإن كنا لا يمكن أن ننكر أيضاً إمكانياتهما التفسيرية والتحليلية، هذان الموضوعان الأساسيان هما اليهودى كعربى، ونقيضه العربى كيهودى.

والموضوعان رغم أنهما نقيضان إلا أنهما ينبعان من إحدى الأفكار الأساسية المتواترة فى الفكر الصهيونى، وهى فكرة تصفية الدياسبورا (أى أعضاء الأقليات اليهودية فى العالم) وتجميع اليهود فى الوطن القومى. فالصهيونية تنطلق من الإيمان بأن الدياسبورا غير جديرة بالبقاء. فيهود المنفى شخصيات عليلة مريضة طفيلية. ومما يجدر ذكره أن أدبيات معاداة اليهود تحتوى على نقد متكامل متماسك لما يسمى بالشخصية اليهودية، وقد أصبح هذا الانتقاد جزءا من ترسانة الصهيونية الإدراكية التى طرحت نفسها على أنها الحركة التى ستطبِّع اليهود- أي تجعلهم قوماً طبيعيين وتخلصهم من الصفات السلبية المفترضة اللصيقة بشخصيتهم.

وقد تواتر الموضوع الأساسى الأول، أى اليهودى كعربى، فى الكتابات الصهيونية التى صدرت قبل أن تتحدد معالم المشروع الاستيطانى الصهيونى تماما، وقبل أن تتبلور خريطته الإدراكية، وقبل أن يتحول العربى إلى الآخر (ولعل هذا قد حدث بعد وعد بالفور). وفى هذه المرحلة كان من الممكن النظر إلى العربى على أنه الشرقى ويمثل الأغيار الأصحاء الذى يمكن التشبه بهم والتوحد معهم للشفاء من أمراض المنفى. وحسب هذا الإدراك يتحول العربى إلى رومانسى تحيطه غلالات أسطورية كثيفة(٤٦) ويبدو أن بعض المستوطنين الصهاينة الأول، إنطلاقاً من الرؤى الرومانسية التى كانت سائدة فى أوروبا آنداك، كانوا ينظرون إلى استيطانهم فلسطين على أنه نوع من «العودة إلى الشرق» الطاهر (فى مقابل الغرب المدنس الملئ بالشرور). وأن «العربى» هو الحكيم الذى سيعلمهم كل الأسرار ويأخذ بيدهم ويهديهم سواء السبيل. وقد تبنى هذه الرؤية أحد زعماء موجة الهجرة الثانية، ماثير ويلكانسكى، وتبعه فى ذلك جوزيف لوبدور (صديق الزعيم الصهيونى حاييم برنر والذى خر صريعاً مع صديقه فى إحدى المعارك مع العرب). ويلاحظ أن أول جماعة عسكرية صهيونية والتى كانت تدعى الهاشومير كانت ترتدى زياً عربياً وأن بعض أعضائها كانوا يعيشون مع البدو ليتعلموا طرقهم.

وكان الأدب الصهيوني في هذه المرحلة الأولى مفعم بهذه الرؤية الرومانسية فكتب موشيه سميلانسكي الكاتب الصهيوني سلسلة من الكتب تحت اسم مستعار هو «الخواجه موسى» يصور فيها -وبإعجاب شديد- حياة الفلسطينيين الذين تحولوا في هذه الكتب إلى بدو ورعاة جائلين يذكّرون القارئ بشخصيات العهد القديم. وفي قصة قصيرة كتبها زئيف يافيتس عام ١٨٩٢ يرد وصف لطفل يهودي في مستوطنة بتاح تكفا يتعلم من العرب كيف يدرب جسده على «الحرارة والصقيع وعلى الفيضانات والقحط».

ومن أكثر الأمثلة تطرفاً وطرافة مسرحية آرييه أورلوف/ أربلي التي نشرت عام ١٩١٢ في مجلة **هاشيلواح** (لسان حال الحركة الصهيونية في روسيا والتي كان يحررها ويصدرها آحاد هعام في أوديسا). تصور المسرحية جماعة من المستعمرين الرواد من موجة الهجرة الثانية كانوا يعيشون في مزرعة جماعية. وبطلة المسرحية هي المستوطنة الصهيونية ناعومي التي ترفض حب اثنين من زملائها وتؤثر عليهما بائعاً جوالاً عربياً يدعى عليا ! وحينما يقتل أحد الرواد شاباً عربياً ينتقم على لصديقه العربي المذبوح بأن يقتل الصهيوني! ولكن حتى هذا الفعل لا يغير من حب ناعومي له وتنتهي المسرحية بمونولوج عاصف تقول فيه ناعومي مخاطبة إخوانها الصهاينة: «إن روحي تحتقركم أيتها الديدان المتحضرة. لقد تعلمت من العربي الضاري شيئا، لقد تعلمت منه هذه الكلمات: الله كريم. (وهذا هو عنوان المسرحية).

ويبدو أن هذا التيار كان شائعا لدرجة كبيرة حتى أن مجلة **هاشيلواح** نشرت مقالا لجوزيف كلاوزنر، الناقد الصهيوني، وجه فيه اللوم للكتاب الصهاينة المستوطنين في فلسطين «الذين يصورون كل اليهود في فلسطين كمتحدثين العربية يشبهون العرب في كل شئ». وقد استمر هذا التيار وأخذ شكلاً مغايراً وهو الدعوة إلى الوحدة السامية والإيمان بأصول العرب واليهود السامية المشتركة والتي عبر عنها فكر الحركة الكنعانية التي انتشرت بعض الوقت بين المثقفين الصهاينة(٤٧) .

ويجب ملاحظة أن هذا الموقف من العربي كبدوى وكبطل رومانسي يتسم هو الآخر بقدر كبير من التجريدية، فالعربى هنا ليس إنسانا حقيقياً تاريخياً وإنما مقولة رومانسية مجردة ليس لها حقوق متعينة. كما أن العربى هنا بدوى أى إنسان متنقل غير مرتبط بالأرض، الأمر الذى يخدم المصالح الصهيونية ولاشك. فتمجيد العربى هو فى واقع الامر فصل له عن أرضه وعزله عن إنسانيته المتعينة ليصبح شيئا يشبه الآثار الساكنة (التى نسميها الأنتيكة فى مصر). والصهيونية فى هذا مرة أخرى لا تختلف كثيراً عن العنصرية الغربية، التى كانت لا تمانع بتاتاً فى الإعجاب «بالماضى التليد» و«الأمجاد الغابرة»، طالما أنها تظل شيئا متحفياً مثل الآثار الفرعونية لا علاقة لها بالواقع، وطالما أنها لاتُستخدم كمؤشر على ما يمكن لصاحب هذا التراث أن ينجزه فى المستقبل.

أما مقولة العربى كيهودى فهى أكثر وضوحاً فنحن إذا ما نظرنا لكثير من المقولات الإدراكية السابقة: العربى كمتخلف وتهميش العربى والعربى كحيوان اقتصادى، والعربى كشخص يحركه التعصب الدينى، والقومية العربية كقومية عميلة للإنجليز، للاحظنا أن هذه هى ذاتها صفات اليهودى فى أدبيات معاداة اليهود فى الغرب، والتى كانت تهدف لإسقاط حقوق اليهودى وطرده باعتباره شخصية طفيلية هامشية غير منتمية وإلى إبادته فى نهاية الأمر. وكما قلنا كانت هذه المقولات جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية تشبعت بها وتبنتها وطبقتها على الآخر أى يهود المنفى، ثم أسقطتها على الآخر الآخر، إن صح التعبير، الآخر مضاعف الأخروية، أى العربي، كمحاولة لتغييبه وتهميشه وتجريده وطرده وإبادته واجتثاث علاقته بالأرض، تماماً كما فعل المعادون لليهود باليهود داخل التشكيل الحضارى الغربى.

تلخيص ونتائج

١- تأخذ الخريطة الإدراكية أو الطيف أو المتصل الإدراكى الصهيونى للعرب الشكل التالى:

العربى الحقيقى- العربى المتخلف- العربى ممثلاً للأغيار- العربى الهامشى- العربى الغائب، ويلاحظ الابتعاد التدريجى عن العربى الحقيقي والوصول إلى الذروة ونقطة التحقق وهى العربى الغائب عبر درجات متزايدة التجريد.

٢- يلاحظ أن ثمة تلازم لرؤية الذات ورؤية الآخر، ففى مقابل اليهودى ممثل الحضارة العربية وحامل مشعلها يوجد العربى الشرقى المتخلف، وفى مقابل اليهودى الخالص صاحب الحقوق المطلقة نجد العربى الغائب الذى لا حقوق له على الإطلاق لأنه غائب تماماً من منظور الأرض المقدسة.

٣- أطلقنا على هذا الإدراك أحيانا إستراتيجية إدراكية لا لأنه طريقة متعمدة فى الإدراك (فمن وجهة نظر هذا البحث لايهم سواء أكان الإدراك واعياً أم غير واع) وإنما لأنه إدراك تصوغه وتحدده مصالح المدرك وتحيزاته ومشروعه الاستيطانى. وقد كان هذا الطيف الإدراكى أساسياً بالنسبة للصهاينة فقد زودهم بإطار تفسيرى وفسر لهم الواقع بطريقة تتناسب مع هذه المصالح وسوغ لهم عمليات الاغتصاب والاقتلاع والقمع وأحيانا الإبادة، بل وحولهم إلى الضحية من وجهة نظرهم، وبالتالى أمكنهم الاستمرار فى إنجاز مشروع استيطانى يتسم بالشراسة الفريدة إذ لانعرف مشروعا استيطانياً إحلاليا آخر فى القرن العشرين.

٤ ـ حاولنا فى هذا الفصل أن نبتعد عن عملية التشهير بالصهاينة وهى عملية أثيرة لدى الكثير من الكتاب العرب فى حقل الصهيونية، فالتشهير له طبيعة عملية إعلامية وله أهمية تعبوية بالنسبة للجماهير أو فى مجال تحسين الصورة فى الخارج. ولكنها لا تفيد كثيراً فى عملية فهم الآخر والتنبؤ بسلوكه، وهو أمر

أساسى فى عملية إدارة الصراع. ونعتقد أن صانع القرار العربى لابد وأن يأخذ الإدراك الصهيونى العربى فى الاعتبار؛ لأن هذا الإدراك أحد المكونات بل والمحددات الأساسية للكيان الصهيونى. وأعتقد أن فشل مخابرات العدو عام ١٩٧٣ فى التنبؤ بالهجوم العربى المجيد إنما كان نتيجة جمودهم الإدراكى، إذ أن الانسان فى نهاية الأمر يقع صريع تحيزه، والعربى الحقيقى القادر على أن ينهض وأن يتملك ناصية الأسلحة الحديثة ويوقع الهزيمة بالمغتصب ليس جزءاً من ترسانة الصهاينة الإدراكية، ولذا لم يتوقع العدو ولم «ير» رغم أنه كان «يشاهد ويراقب ويسجل».

ومع هذا، هل يظل الإنسان الصهيوني قابعاً داخل تحيزه، أم أنه ثمة لحظات إدراك للإنسان العربى الحقيقى؟ وما نتائج هذا الإدراك؟ وما هو أثر الإدراك الصهيونى الذى تشكل قبل عام ١٩٤٨ على الاسرائيليين؟ هذان هما السؤالان اللذان سأحاول الإجابة عليهما فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

1 - Richard Crossman, **A Nation Reborn: The Israel of Weizman, Bevin, and Ben Gurion**,(London: Hamish Hamilton,1969),P.58.

٢ - نفس المراجع.

3 - Rapael Patai,ed., **The Complete Diaries of Theodore Herzl**, (5 vol), (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff,1960),Trans. Harry Zohn, vol. 3,p.1361.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بعباره «**يوميات هرتزل**»

4 - George Jabbour, **Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East** (Beirut: Palestine Liberation Organization Research Cetter,1970),p.28.

٥- **يوميات هرتزل**، الجزء الأول، ص ٣٤٣،٣٣٨.

٦- صبرى جريس، **تاريخ الصهيونية**، الجزء الأول ـ(بيروت : منظمة التحرير الفلسطينيه، مركز الأبحاث، ١٩٧٧)، ص ١٣٩.

7 - Walter Lacquer, **A History of Zionism** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1472),p.217.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمه «لاكير».

8 - Simha Flapan,**Zionism and the Palestinians** (London:Croom, Helm,1979),p.55-56

سيشار إليه من الآن فصاعد بكلمه «فلابان»

٩- نفس المرجع، ص٣٩.

١٠- نفس المرجع، ص٢٦.

١١- نفس المرجع، ص٧١.

12 - Harry Truman, **Memoirs** 2 Vols, (Garden City, New York: Doubleday, 1955), Vol I,p.159.

١٣- فلابان، ص٦٤.

١٤- نفس المرجع.

15 - Amos Elon, **The Israelis: Founders and Sons** (New York: Holt, Rinehart,and Winston, 1971),p.172.

16 - Ehud Ben Ezer,ed., (New York : Quadrangle The New York Times Book,1974),183.

سيشار اليه من الآن فصاعداً بكلمه «بن عيزر».

١٧ - لاكير، ص٤٧

١٨ - فلابان، ص٥٦.

١٩- بن عيزر، ص٣٢٤-٣٢٥.

٢٠- لاكير، ص٢٤٧.

٢١- نفس المرجع.

٢٢- نفس المرجع، ص٢٥٠.

٢٣- فلابان، ص١٩.

٢٤- نفس المرجع، ص٦٩.

٢٥- لاكير، ص٢١١.

٢٦- فلابان، ص٦٥.

٢٧- نفس المرجع، ص٢٦.

٢٨- نفس المرجع، ص٦٥.

٢٩- نفس المرجع.

٣٠- لاكير، ص ٢٦٣.

٣١- نفس المرجع، ص٢٥٨.

٣٢- فلابان، ص١٩، ٣٩.

٣٣- نفس المرجع، ص١٩.

٣٤- لاكير، ص٢٥٨.

٣٥- صبرى جريس، السنوات الخمس السمان فى تاريخ الوطن القومى اليهودى فى فلسطين (١٩٣١-١٩٣٦)، ٤- محاولات التفاهم مع العرب، شئون فلسطينية (تموز- أغسطس ١٩٨٥) ص٤٩.

36-Meir Ben-Horin, **Max Nordau:Philosopher of Human Solidarity** (New York: Conference of Jewish Social Studies,1956),p.199

٣٧ - ايلون، ص١١٥.

38 - David Ben Gurion, **Rebirth and Destiny Of Israel,** (New York,Philosophical Library, 1954)p.38.

٣٩- فلابان، ص١٣١.

٤٠-بن عيزر، ص٢٠٣.

٤١- لاكير، ص٢١٠.

٤٢- نفس المرجع، ص٢٣١.

43 - Abdelwahab M. Elmessiri, **The Land of Promise: A Critique of Political Zionism** (New Brunswick, New Jersey: North American,1977),p.143.

٤٤- فلابان، ص٨٢.

45 - Shlomo Avineri, **The Making of Modern Zionism: The Intellectual Origins of the Jewish State** (London: Weidenfeld and Nicolson, 1981),pp.139-150.

46 - Amnon Rubinestien, **The Zionist Dream Revisited: From Herzl to Gush Emunim and Back** (New York: Schocken Books,1983),pp.56-60.

سنشير إلى هذا الكتاب من الآن فصاعدا بكلمه«روبنشتاين».

٤٧- لاكير، ص٢٢٨.

٢- الاستجابة الصهيونيه للعربى الحقيقى

من أوائل المفكرين الصهاينة الذين أدركوا العربى كإنسان حقيقى تاريخى، المفكر الصهيونى الروسى آحاد هعام، الذى أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب الى احتجاجه منذ البداية على طريقة معاملة الصهاينة للعرب. وقد نبههم إلى أن العرب - على عكس ما تدعى الأسطورة الصهيونية- ليسوا غائبين، وهاجم مقاطعة الصهاينه للعمال العرب(فى خطاب له بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩١٣)(١)، باعتبارها محاولة صارخة لتهميشهم وتغييبهم. وقد وصل إدراك آحاد هعام الذروة حينما أدرك الحاخام الروسى أن حلم العودة الى صهيون، كما فسره الصهاينه، وكما أخذ فى التحقق «يؤدى إلى تدنيس ترابها بدم الأبرياء»- أى أنه رأى الجثة التى يحاول الصهاينة إخفاءها. ولذا فعلى الرغم من أن فكر آحاد هعام فكر عنصرى نيتشوى إلى أقصى درجه(فهو صاحب فكرة اليهود«كسوبر أمة» ، وهو صاحب فكرة تحول فلسطين إلى مركز ثقافى لليهود واليهودية) إلا أن العربى الحقيقى فرض نفسه فرضاً على وعيه ولذا لم يملك الحاخام إلا أن يقول: إن الله قد أنزل بي العذاب إذا مد في حياتي حتى أرى بعيني رأسي، أنني قد حدت عن جادة الصواب إذا كان هذا هو الماشياح(المسيح المخلص اليهودى)، فإننى لا أود رؤية عودته»؟(٢)، أى أنه لايود رؤية تحقيق الحلم(أو الكابوس) الصهيونى- فتحقيق الحلم يعنى تغييب العربى، وتغييب العربى، كما رأى هو بنفسه، يعنى القتل والقتال والدماء النازفة.

حزب الفلاحين

ومن أهم المفكرين والمستوطنين الصهاينة الذين تخطوا التحيز الإدراكى الصهيونى ورأوا العربى فى كل تركيبيته التاريخية والإنسانية إسحق إبشتاين، أحد كبار المسئولين عن الاستيطان الصهيونى فى فلسطين، والذى حذر الصهاينة من سطحيتهم وعجزهم عن الغوص لباطن الأمور»،(٣)والذى حاول أن يبين لهم أن الحق قد يكون فى جانبهم من الناحية القانونية (السطحية) ولكن الموقف يصبح أكثر تركيبا إن تمت رؤيته فى إطار سياسى أخلاقى(٤).

وقد حذر ابشتاين في محاضرة له ألقاها على بعض مندوبي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) (ونشرت فيما بعد في هاشيلواح عام ١٩٠٧)- حذر من الموقف الصهيوني الشائع (التبريري في واقع الأمر) القائل بأن فلسطين غير مفلوحة بسبب «نقص في الأيدي العاملة أو كسل السكان» وبيّن أنه «ليس هناك حقول مقفرة، بل على العكس، يحاول كل فلاح أن يضيف الى أرضه من أرض البور المجاورة لها. . وعندما نشتري قطعة أرض كهذه، نبعد عنها مزارعيها السابقين تماما. . فنحرم بهذا أشخاصا بائسين من ممتلكاتهم الضئيلة. ونسلب لقمة عيشهم. . ولايزال حتى اليوم يرن في أذنيّ نحيب النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة، وهي مستوطنه روش بينا، وانتقلن للسكن في حوران شرقي نهر الأردن. فقد ركب الرجال على الحمير ومشت النساء وراءهم باكيات، يملأن السهل نحيبهن. وللحظات وقفوا وقبلوا الحجارة والتراب. . . إن شراء [أراضيهم] على هذا الشكل يترك في قلوبهم جرحاً لا يندمل. وسيذكرون دائما ذلك اليوم الملعون الذى انتقلت فيه أملاكم إلى أيدى الغرباء. . لأنه إذا كان هناك فلاحون يروون حقولهم بعرقهم وحليبهم، فهم العرب. . وفي النهاية سيعملون على استرجاع ما سلبته منهم قوة الذهب. . .». وبعد أن يرسم ابشتاين صورة الفلاح العربي الحقيقي الذي يحب أرضه، ويكد ويتعب من أجلها، يضعه في إطار سياسي عربي تاريخي واسع: «وهذا الشعب، والذي لم تستنفذ المدينة حتى الآن قواه وتضعفه، ليس إلاجزءاً صغيراً من الشعب الكبير الذى يسيطر على كل المناطق المجاورة. . سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر. . ولهذا من المستحسن أن نعرف من هو الفريق الآخر. . . وأن نأخذ بالحسبان قوتنا والقوى التي تواجهنا. ويمكننا القول أنه، حتى الآن على الأقل، لاتوجد حركة عربيه بالمفهوم القومي والسياسي لهذا التعبير. ولكن لاحاجة لهذا الشعب لمثل هذه الحركة، إنه كبير وكثير ولا حاجة لبعثه، لأنه لم يمت أبدا، ولم ينقطع وجوده يوما. ويفوق في تطوره الجسدي كل شعوب أوروبا. . ينبغي ألا نستخف بحقوقه، وألا نستغل ضده خبث بعض أخوته الذين يظلمونه. لا تتحرشوا بأسد نائم! ولا تأمنوا جانب الرماد الذي يغطي الجمر، فقد

تنطلق شرارة تسبب حريقاً لايطفأ». ولم يكتف أبشتاين بالشكوى والنحيب على طريقة آحاد هعام بل قدم توصيات محددة فاقترح على المستوطنين ممارسة نشاطهم الاستيطاني في فلسطين من خلال اتفاق مع «حزب الفلاحين» وبعد الحصول على موافقتهم، لأنهم أكثرية سكان البلد[٥]. كما اقترح محاولة «إقامة تحالف عربي صهيوني بدلا من التحالف التركي الصهيوني» المقترح آنذاك[٦].

ويلاحظ أن إدراك ابشتاين للعربي يختلف جذريا عن الإدراك الصهيوني العام، وكان إدراكا ولاشك شجاعا لم يحاول تهميش العربي أوتغييبه ولم يختبئ وراء أية مقولات ضبابية كاذبة، إذ اعترف بحقيقة القومية العربية والطابع السياسي القومي للنضال الفلسطيني، وبيّن غباء مقولة «شراء فلسطين».

ولم يكن إدراك العربي الحقيقي أمراً قاصراً على الشخصيات الصهيونية المبهمة أو الهامشية مثل آحاد هعام او ابشتاين، بل إننا نجد أن كثيرا من زعماء الصهيونية ومفكريها قد عاشوا لحظة الإدراك هذه .فهرتزل على الرغم من عمق سطحيته (إن صح التعبير) وعلى الرغم من عدم فهمه لكثير من الأفكار السياسية في عصره كان قادراً على إدراك تاريخية الواقع العربي وتركيبته. .فحينما كان في القاهرة يتفاوض بخصوص واحد من مشروعاته الاستيطانية الكثيرة استمع إلى محاضرة عن الري، ويبدو أنه رأى بعض العرب المصريين واستمع لأسئلتهم، فكتب يقول: «إن المصريين هم سادة المستقبل هنا. ومن العجيب أن الإنجليز لايرون ذلك، فهم يعتقدون أنهم سيتعاملون مع الفلاحين إلى الأبد». ثم أخذ هرتزل بعد ذلك يصف كيف ان الاستعمار ذاته يخلق الجرثومة التي تقضي عليه. وذلك لأنه «يعلّم الفلاحين الثورة»[٧]. ثم أبدى هرتزل دهشته لفشل البريطانيين في إدراك هذه الحقيقة البسيطة. ونلاحظ هنا أن هرتزل لا يجزئ العرب أمامه الى مسلمين ومسيحين او أثرياء أو فقراء، وإنما يدرك وجود تيار تاريخي له ماض وحاضر ومستقبل، وأنه تيار سياسي قومي يهدد أعتى الإمبراطوريات.

حرب وليس إرهاب

وحتى بن جوريون ذاته لم يفلت من لحظة الإدراك هذه. ففى عام ١٩٣٨ كتب التقييم المستفيض التالى لثورة الفلسطينيين آنذاك، والذى سنقتبسه برمته نظراً لأهميته: «ابتداء أحب أن أبدد كل الأوهام التى سادت بين الرفاق إن الإرهاب [العربى] هو مسألة مجموعة من العصابات ممولة من الخارج. . نحن هنا لانجابه إرهاباً وانما نجابه حربا، وهى حرب قومية أعلنها العرب علينا. وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب. هذه مقاومة فعالة من جانب الفلسطينيين لما يعتبرونه اغتصابا لوطنهم من قبل اليهود- ولهذا يحاربون. ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات. ومنذ زمن الشيخ عز الدين القسام أصبح واضحا لى أننا نجابه ظاهرة جديدة بين العرب. هذا ليس النشاشيبى أو المفتى، فهذه ليست مسألة مصالح سياسية أو مالية شخصية. إن الشيخ القسام كان زيلوتيا [غيورا دينيا]، على استعداد للتضحية بحياته من أجل مثل أعلى. ونحن اليوم لانواجه واحداً وحسب مثله وإنما نواجه المئات بل الآلاف [أمثاله] ووراءهم كل الشعب العربى. نحن نقلل من أهمية المعارضة العربية فى أحاديثنا السياسية فى الخارج، ولكن ينبغى علينا ألا نتجاهل الحقيقة فيما بيننا. إن احترامى للحقائق السياسية هو الذى يجعلنى أصر على ذكر الحقيقة. والاعتراف بهذه الحقيقة يؤدى بنا إلى نتائج حتمية وخطيرة بخصوص عملنا فى فلسطين. . يجب ألا نبنى الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، إذ أنه إذا ما نال من أحدهم التعب، سيحل آخرون محله. فالشعب الذى يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعا. . . فمن الأيسر لهم أن يستمروا فى الحرب وألا يكلوا ولا يتعبوا مما هو بالنسبة لنا. . . والعرب الفلسطينيون ليسوا بمفردهم، فالسوريون سيمدون لهم يد المساعدة. فمن وجهة نظرنا هم غرباء، ومن وجهة نظر القانون هم أجانب، ولكن بالنسبة للعرب هم ليسوا أجانب على الإطلاق. . . إن مركز الحرب هو فلسطين، ولكن أبعادها أوسع من ذلك بكثير. وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا- فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب، فبالنسبة لأمننا وحياتنا، نقوم بالدفاع عن أنفسنا، ووضعنا المعنوى والجسدى ليس سيئا. . ويمكننا مواجهة العصابات. . وإذا ما سمح لنا بتعبئة كل

قوانا فأنه لا يوجد أدنى شك بالنسبة للنتيجة. . . ولكن القتال ما هو إلا جانب واحد للصراع الذى هو صراع فى جوهره سياسى. ومن الناحية السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتى ونستوطن، ونأخذها منهم، حسب تصورهم. . . يجب ألا نظن أن الإرهاب هو نتيجة لدعاية هتلر أو موسولينى - قد يكون هذا عاملاً مساعداً، ولكن مصدر المعارضة يوجد بين العرب أنفسهم»[٨].

وقد اقتبسنا كلمات بن جوريون بشئ من التفصيل نظرا لجديتها وجدتها، فتحليل بن جوريون للوضع فى فلسطين لا يختلف إلى حد كبير عن أى تحليل ثورى عربى أو إسلامى لطبيعة الصراع. وهو يضع القضية فى إطارها السياسى القومى الصحيح، ويراها فى بعدها التاريخى- فى الماضى والحاضر والمستقبل. والأكثر من هذا تدل كلماته على احترام لعدوه وعلى تمييز بين الأفندية والشيوخ من جهة (أى القيادات التقليدية) والقيادات الفدائية الجديدة من جهة أخرى.

وقد عبر موشيه شاريت هو الآخر فى أحاديثه ويومياته وخطبه عن إدراكه للعربى الحقيقى. ففى خطاب له فى ٩ يوليه ١٩٣٦ امام اللجنة السياسية لحزب الماباى عرّف الثورة العربية بأنها ليست ثورة الأفندية الذين يدافعون عن مصالحهم الشخصية إنما هى ثورة الجماهير التى تمليها المصالح القوميه الحقه، وأضاف أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التى تضم العراق والحجاز واليمن، ففلسطين بالنسبة لهم هى وحدة مستقلة لها وجه عربى، وهذا الوجه آخذ فى التغير، فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية، وهاهى ذا قد أضحت يهودية. ورد الفعل لايمكن أن يكون سوى المقاومة. وفى ٢٨ سبتمبر من نفس العام، كان شاريت قاطعا فى تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة[٩]، كما لاحظ وجود عناصر جديدة فى حركة المقاومة: إشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات فى حركة المقاومة[١٠]، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبيّن أن من أهم دوافع الثورة هو الرغبة فى إنقاذ الطابع العربى الفسطينى وليس مجرد معارضة اليهود[١١].

بين الإدراك والسلوك

من كل ماتقـدم يمكن القول أن إدراك الصهاينـة للعربى كان يتخـطى فى بعض الأحيان التحيز والمصلحة المباشرة وسُحُب الاعتذاريات ليصل إلى الحقيقة التاريخية الحية. ومن هنـا يطرح السؤال نفسه، لـمَ لَمْ تعد هذه اللحظـات الإدراكية، رغم ندرتها، تشـكيل الرؤية الصهيـونية؟ وإن لم تعد تشكـيلها، فلِمَ لَمْ تدخـل عليها قدراً من التركيبية على أقل تقدير؟

لعل الإجابة عـلى هذا السؤال عسيرة بعـض الشئ لأننا هنا لانتعـامل مع عالم الأفكار ولاحتى مع كيفـية نشوئها وتحددها واكتسابها ملامـح محددة، وإنما نتعامل مع مدى تأثير الأفكار فى الواقع، وهذه الرقعة التى تلتقى فيها الأفكار بالواقع رقعة مبهمة غامضة ضـبابيه ليس لها قوانين محددة، وإن كانت تحكـمها قوانين ما، فهى لم يتم اكتشافها بعد.

ومع هذا لن يصـيبنا القنوط وسنحـاول أن نجيب على الأسئلة التـى طرحناها، ولكن ينبغى مع هذا أن ننبه القارئ للطبيـعة الذهنية لمحاولتنا التفسيرية. ويجب أن نؤكد ابتداء أن الإدراك مهمـا كان عميقا وجذريا لايترجم نفسـه بالضرورة إلى فعل فاضل أو سلوك بعينه. وإذا أردنا أن نكون أكـثر حيادية ووضوحا لقلنا إن الإدراك الجذرى، باعتبـار أنه يصل إلى الواقع وجذوره، جذرى وحـسب، وقد يؤدى إلى راديكالية ثورية تطمح إلى تغيير الواقـع أو إلى راديكالية فاشية تحاول الحفاظ عليه بكل شراسـة. ويمكن لإدراك ما أن يتحـدى الرؤية القائمـة ولكنه يمكنـه أيضا أن يعمقـها، ويتوقف ذلك كـله على مركب هـائل من العوامل الـتاريخية والـسياسية والاجتماعيـة والنفسية والعصبيـة. ولذا رغم أن إدراك العربى الحقيقـى يمثل لحظه كشف لنفس الحـقيقة بالنسبه لكل الصـهاينة، إلا أنها تترجم نفسهـا إلى استجابات صهيـونية وأشكـال سلوكية مـتباينة سـنحاول دراستـها بتقسـيمها إلـى ثلاث أنماط أونماذج:

(١) هناك نمط من الصهاينة أدرك طبيعة الجرم الكامن فى عملية تغييب العرب هذه فتنكر لرؤية الصهيونية تماما وتخلى عنها، وعاد الى أوروبا. وهناك كثيرون من حزب بوعالى صهيون(عمال صهيون) عادوا إلى الاتحاد السوفييتى بعد الثورة البلشفية حتى يشاركوا فى الثورة الاجتماعية وحتى لا يشاركوا فى الإرهاب الصهيونى . ولكن هؤلاء قلة نادرة على ما يبدو، وعلى كل فإنهم يختفون تماما من التواريخ الصهونية ومن الإدراك الصهيونى (اليهودى الغائب؟). ولذلك فهم لا يؤثرون من قريب أو بعيد فى البرنامج السياسى الصهيونى أو سلوك الصهاينة نحو العرب. ولكن لعلنا لو أعدنا كتابة تاريخ الصهيونية وفتشنا عن هؤلاء الغائبين لوجدنا أن هذا النمط أكثر شيوعاً مما نتصور، ولعله قد يكون من المفيد والطريف فى ذات الوقت أن يقوم أحد الباحثين العرب بكتابة دراسة فى هذا الموضوع.

٢) وهناك نمط ثان من الصهاينة أدرك العربى الحقيقى ولكنه لم يطرح رؤيته الصهيونية جانبا، وبذل محاولات يائسة أن يعيد صياغة المشروع الصهيونى بطريقة تستوعب وجود العربى الحقيقى وتأخذه فى الحسبان. ولكن من الملاحظ أن مثل هذه الشخصيات تحولت بالتدريج إلى شخصيات مبهمة وهامشية، من وجهة نظر صهيونية، تنتمى إلى منظمات هامشية وتدافع عن رؤى هامشية لا تؤثر على المركز أو الممارسات الأساسية. ولعل سيرة ابشتاين وآرثر روبين (وهو مسئول صهيونى آخر عن الاستيطان) وغيرهم خير دليل على ذلك. فهؤلاء الصهاينة، نظراً لاحتكاكهم الدائم بالواقع العربى، أدركوا مدى تركيب الموقف فطرحوا صيغاً مركبة نوعاً مثل الدولة ثنائية القومية وطالبوا بالتعاون مع الحركة القومية العربية وأسسوا جمعية بريت شالوم ثم جمعيه ايحود لإجراء حوار مع العرب يعترف بهم ككيان قومى ولا يتعامل معهم كمجرد مخلوقات اقتصادية. ولكن المحاولات كلها ظلت فى نهاية الأمر تعبيراً عن ضمير معذب أكثر منها ممارسات حقيقية. ولعل يهودا ما جنيس من أكثر الشخصيات المأساوية فى تاريخ الصراع العربى الصهيونى، فقد أدرك

الخلل العميق فى وعد بالفور منذ البداية بإنكاره وتغييبه للعرب، وأدرك مدى عمق الصراع المحتمل بين المستوطنين الصهاينة والعرب؛ ولذا قضى حياته كلها يحاول أن يصل إلى صيغة صهيونية تنيرها لحظة الإدراك النادرة دون جدوي. وانتهى به الأمر أن تنكر له مجلس الجامعة العبريه التى كان يترأسها (الصهيونى الهامشى؟).

ويمكن أن نذكر فى هذا السياق آحاد هعام نفسه الذى تعلم أن يعيش مع التناقض الحاد، بعد أن رأى الدماء العربية النازفة وبعد أن ولول وكأنه أحد أنبياء العهد القديم، يستمطر اللعنات على شعبه لم اقترف من آثام، ومع هذا نجده بعد ذلك فى لندن مستشاراً لحاييم وايزمان، فى الفترة التى سبقت إصدار وعد بالفور، يدلى له بالنصيحة بخصوص كيفيه الاستيلاء على فلسطين، ولا يذكِّره من قريب أو بعيد- بالعربى الحقيقى أو بالدماء النازفة. وينتهى به المطاف أن يستقر هو ذاته على الأرض الفلسطينيه بكل ما يحمل ذلك من معان اغتصاب وقهر. ولكنه حتى وهو فى فلسطين، بعد وعد بالفور، ظلت تخامره الشكوك بخصوص المشروع الصهيونى وظل موقفه مبهما حتى النهاية.

وهكذا نجد أن محاولة إعادة صياغة الرؤية الصهيونية وتأكيد وجود العربى الحقيقى أدى إلى تهميش مثل هؤلاء الصهاينة ودفع بهم بعيدا عن المركز وعن مجال صنع القرار، ولذا لم تظهر سياسة صهيونية فعالة تجسد الإدراك الصهيونى للعربى الحقيقى!.

(٣) وهناك أخيراً النمط الثالث، وهو أكثر الأنماط شيوعاً وهو النمط الذى يؤدى إدراكه للعربى الحقيقى إلى مزيد من الشراسة الصهيونية.

وهنا يجب أن نطرح هذا السؤال: لم هذه الاستجابة الشرسة من جانب هؤلاء؟ والأهم من ذلك: بم نفسر شيوع هذا النموذج؟ ومرة أخرى سنحاول أن نطرح التفسيرات الأخلاقية جانبا، فهى تفسيرات نهائية مطلقة ولن يفيدنا كثيرا أن نقول ان استجابة هذا النمط الثالث نابعة من عمق الشر الكامن فى أنفسهم (فنسبة الشر واحدة تقريبا فى كل البشر). ولذا فلنحاول أن نصل إلى تفسير يعمق إدراكنا بتفاصيل الواقع وآلياته.

وقد ذكرنا من قبل أن ثمة أسباب مختلفة هى التى تحدد كيفية تحول إدراك ما إلى سلوك، وقلنا أنها أسباب سياسية واجتماعية ونفسية وعصبية. ولكننا لا يمكن أن نخوص، فى هذا البحث، فى الجوانب العصبية أو النفسية (مع إدراكنا لأهميتها)؛ لأن مثل هذا يتطلب معرفة حقائق ومعطيات ليست متوفرة للباحث الآن. كما أن الجوانب العصبية والنفسية قد تفسّر الاختلافات الفردية بين الزعماء والمفكرين الصهاينة، ولكنها لايمكنها أن تفسر بأية حال الاختلافات العامة ذات الطابع السياسى والاجتماعى.

ولذا قد يكون من المفيد أن نحاول التفكير فى الأسباب السياسية والاجتماعية وحدها. وقد بينا من قبل أن التحيز الايديولوجى هو أحد المحددات الأساسية للإدراك، ويمكننا أن نضيف هنا عنصراً آخر وهو ميزان القوى: فقبل عام ١٩٤٨ كانت الإمبريالية الغربية مهيمنة على معظم العالم بما فى ذلك العالم العربي، ولم تكن القومية العربية قد تحددت معالمها بعد كقوة يحسب حسابها. ولم يكن الوضع فى فلسطين أحسن حالا، اذ أن القوى الاجتماعية هناك لم تكن هى الأخرى قد تبلورت، وبالتالى لم يكن قد تبلور بعد تفكير ثورى نضالى قادر على تعبئة الجماهير من كل الطبقات والأديان ضد عدو يتهددها كلها بالطرد والفناء. لكل هذا كان العربي الحقيقى، حينما يظهر على شاشة الوعى الصهيونى، يبهت ويشحب ثم يصبح هامشيا ويختفى أمام موازين القوة التى لم تكن فى صالحه. فلو أن هذا العربي الحقيقى كانت تسانده القوى اللازمة لثبت الإدراك فى وعى الصهاينة ولظل العربى الحقيقى حقيقياً ثابتا يُقام له حساب ووزن، ولتحول هذا الإدراك إلى برنامج سياسى وإلى سلوك محدد يأخذ العرب فى الحسبان. ولربما أمكن حينئذ لشخصيات الصهيونية مثل إبشتاين أن تصبح هى الشخصيات القيادية صاحبة القرار. ولكن العربي كان ضعيفا ولذا أصبح من الممكن تغييبه أو تهميشه.

إن ما أقترحه، من الناحية المنهجية، أن نرى بنية الإدراك وشكله (الطيف الإدراكى) لا فى ضوء التحيزات الايدلوجية وحسب وإنما فى ضوء بنية القوه الموضوعية (أو موازين القوى) إذ لايمكن أن نرى الواحد دون الآخر، ولا يمكن تفسير الواحد دون الآخر، فالعربى ككيان امبريقى كان هناك موجوداً أمام الجميع،

والإحصائيات لابد وأنها كـانت متوفرة، والصـراعات كانت دائرة، واستعدادات الصهاينـه «للدفاع عن انفسهم» ضـد العرب كانت قائمة علـى قدم وساق منذ أول يوم. ومع هذا ظـهر العربى متخلـفا وهامشيا في وجـدان الصهاينة، وحينـما ظهر حقيقياً فقد تقرر تهميشه وتغييبه- حسبما يتطلب التحيز الايديولوجي الذي تساندة القوة. هذا هو الذي يفسر موقف النمط الثـالث(وهو الأكثر شيوعاً) من الصهاينة الذين يسـمون «بالمتطرفين» والـذين نسميهم «بـالواقعيين». فهؤلاء أدركـوا العربى الحقيقى فأصبحوا أكثر ضراوة وشـراسة بسبب هذا الإدراك لارغما عنه. «فالآخر» إذا أصبح حقيقا فانـه يشكل تهديدا حقيقياً للذات، أما إذا كان هـامشيا فإنه لايمثل خطراً كبيراً. إن الصهـاينه المتطرفين هم أكثر الناس إدراكاً لخطـورة العربى الحقيقى ولطبيعة المشروع الصهيونى ولموازين القوى فى ذات الوقت.

الحائط الحديدى

ولنضـرب مثلاً علـى ذلك بفلاديمـير جابوتـنسكى- زعـيم الحركة الـصهيونـية التصحيحـية- الذى أدرك منذ البداية أن الصراع بـين الصهيونية كحركة استيطانية مغـتصبة لـلأرض والعرب أمـر حتمى، فـلم يختبئ وراء الـسحابة الـكثيفـة من الاعتذاريات الصهيونية أو الحديث عن اليهودي كعربى أو الحقوق اليهودية الازلية، فقد كان هو مـلحداً علمانياً، يـؤمن بالقومية كقيـمة مطلقة، كما لـم يختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، أو وراء الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه مـن الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربـة أن الصهيونية جزء من التشكيـل الاستعمارى الغربى الذى لم يكن بمقـدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السلاح، ولذلـك طالب منذ البداية بتسليـح المستوطنين الصهاينه (تمـاما مثلما يتسلح المسـتوطنون الاوروبيون فى كينيـا وفى كل مكان)(١٢) ،أي طالب بتـعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهـيونى. فالعرب- حسبما صرح- لن يقبلوا بالـصهيـونيـة (وتحيزاتـها ورؤيتـها) الا إذا وجدوا أنـفسهـم فى مـواجهة حـائط حديدى(١٣).

ونفس النتيجة توصل لها بن جوريون أذ أن إدراكه للعربى الحقيقى والتزامه فى ذات الوقت بالرؤية الصهيونية وحقوق اليهودى الخالص جعله يدرك أن لامناص من فرض هذه الرؤية عن طريق القوه وحد السيف. ولذا لم يبحث الزعيم الصهيونى عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام- على حد قوله- مستحيل، كما أنه لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا ولاشك سراب. إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوريون، «إن هو إلا وسيلة وحسب، أما الغاية فهى الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصل الى اتفاق [مع العرب]. إن الشعب اليهودى لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لاتخدم هذا الغرض... ولذا فالاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن، [فالعرب] لن يستسلموا فى إرتس يسرائيل إلا بعد أن يستولى عليهم اليأس الكامل، يأس لا ينجم عن فشلهم فى الاضطرابات التي يثيرونها أو التمردالذى يقومون به وحسب وإنما ينجم عن نمونا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة]فى هذاالبلد. ثم استمر يقول: لا يوجد مثل واحد فى التاريخ أن أمة فتحت بوابات وطنها [للآخرين] ... إن تشخيصى للموضوع أنه سيتم التوصل الى اتفاق [مع العرب] لأننى اؤمن بالقوه، قوتنا التى ستنمو، وهى إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه»(١٤). وهكذا تم عقد اتفاقيات «السلام مع العرب».

وماذا عن شاريت الذي عرف العربى الحقيقى عن قرب وكتب عنه مدافعا. هنا أيضا سنجد أن المثل الأعلى الصهيونى الذى تسانده القوة يفرض نفسه عليه ويحدد له الواقع، كما يحدد له طريقة سلوكه. ولذا صرح قائلا: «إن معاناة العرب لاتهمنا لأننا سنحقق قوميتنا [قومية اليهودى الخالص]، ويمكنهم هم أن يحصلوا على بلاد أخرى. نحن نهدف إلى إنشاء دولة ولكن يجب ألا نستخدم هذه الكلمة»(١٥). وهو أيضا يتبنى سياسة الحائط الحديدى، شأنه فى هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكى: «لا أعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا . ولكنى أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقاً ثابتاً مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسي هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما

باعتبارنا قوة فعلية»(١٦).. وهكذا يمكن القفز من العربى الحقيقى الى العربى الهامشى ومنه إلى العربى الغائب، كما يمكن القفز من يهودى المنفى إلى اليهودى الخالص- اى يمكن القفز من الواقع إلى المثل الأعلى الصهيونى المتحيز عن طريق العنف والقوة، وكلما زاد العربى حقيقة فى الوعى الصهيونى لابد وأن تكون القوة أكثر ضراوة لسد الهوة بين الحقيقة والمثل الأعلى- هذه هى بنية الايديولوجية: هذه هى طبيعة الإدراك: هذه هى موازين القوى: وهاكم هى الوسائل.

وقد طرح أحد الصهاينه الذين أدركوا وجود العربى الحقيقى السؤال التالى فى أحد المؤتمرات الصهيونية: «هل تريد الحركة الصهيونية الحرب مع العرب أم لا؟»(١٧). ولعل طرح السؤال على هذا النحو يلقى كثيراً من الضوء على القضية موضع البحث: فهل المسألة مسألة «إرادة» و«رغبة»، أم أنها مسألة بنية فكرية تحوى داخلها الحد الأقصى من العنف؟ وحينما تأخذ هذه البنية شكلاً مؤسسياً تساندة القوة، فهل يمكن لإرادة الأفراد آنذاك أن تتحكم فيها، أم أنها تتخطى تلك الإرادة وتصبح لها ديناميكية مستقلة تدوس كل من يقف فى طريقها؟

ويمكن لوايزمان أن يساعدنا فى الإجابة على هذا السؤال ، فهو كان يدرك تماماً أن الصراع موضوعى، له بنية مستقلة عن إرادة الأفراد، وأنه لو تم تعديل الرؤية الصهيونية التى تحاول تغييب العربى، بحيث يمكن لهذا العربى تحقيق وجوده، ولنقل داخل إطار حكومة ديموقراطية، فإن لمثل هذا الوضع عواقبه الوخيمة، اذ أنه سيؤدى إلى «سيطرة العرب على الأمور».

فهذه الحكومة ستتحكم فى الهجرة والأرض والتشريع- وبذا سيحقق الصهاينة السلام- ولكنه «سلام المقابر»(١٨) والصهاينة شأنهم شأن كل من فى موقفهم، كانوا لايبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم وإنما للآخرين. ولذا لابد من إسقاط العربى الحقيقى، وإذا فرض نفسه على وعى الصهاينه فإنه لابد من تهميشه وتهشيمه وتغييبه. وإن طفا هذا العربى مرة أخرى على سطح الوعى فان ردة الفعل لابد وأن تكون مزيداً من التطرف فى مواجهة الخطر الحقيقى من العربى الحقيقى، ولذا فالاتفاق الذى يتحدث عنه جابوتنسكى ثم بن جوريون وشاريت ووايزمان ليس اتفاقا مع العربى الحقيقى إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه أو

ترويضه عن طريق القوه والحائط الحديدي، ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التى يفرضها تحيز الآخر وإدراكه. وهذه رؤية ولاشك واقعية: إذ كيف يمكن أن نتوقع من العرب أن يرضخوا طواعية لرؤية تلغى وجودهم؟

الاستجابة العربية

وهذا ما أدركه العرب «المتخلفون» المغيبون منذ البداية . فرغم كل محاولات الصهاينه المعلنة عن الحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهوديه والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون أن الصهاينه قد أتوا تحت راية الاستعمار الانجليزى وبمساعدة جيوشه وبوارجه، وأن وعد بالفور قد وعدهم بفلسطين، وأنه أشار بشكل عابر إلى حقوق «الجماعات غير اليهودية»، أى أن الصياغة اللفظية ذاتها قد قامت بتهميشهم وتغييبهم على مستوى المخطط ، ولم يبق سوى التنفيذ والممارسة. ولم يكن العرب غافلين عن المفاهيم الصهيونية مثل العمل العبرى أو عن المؤسسات الصهيونية مثل الكيبوتس والهستدروت والهاجاناه التى تستبعدهم وتستعبدهم وتُغيّبهم. وفى علاقاتهم اليومية مع مؤسسات إدارة الانتداب كانوا يعرفون أن بوابات وطنهم قد فُتحت على مصراعيها ليهود الغرب ليستوطنوا فيه، كما كانوا يدركون أنه بغض النظر عن نوايا بعض الصهاينة الطيبة تجاه العربى الحقيقى (مهما خلصت النية) وبغض النظر عن مدى جديتهم فى دعاواهم (مهما بلغت درجة الجدية)فإن الواقع الذى كان آخذاً فى التشكل كان واقعاً صراعياً، فالصهاينة كانوا يهدفون دائماً إلى زيادة عدد اليهود فى فلسطين وإلى إقامة كيان اقتصادى اجتماعى (عسكرى) منفصل، وفى نهاية الأمر مهيمن.

وقد وصف نجيب عازورى ، هذا المؤلف الفسطينى العربى المسيحى، والذى كان أول من أدرك حقيقة ما يحدث« بأن الصراع سيستمر إلى أن يسود طرف على الآخر»[١٩]. وهذا الرأى ليس رأيا متشائما ينكر مثاليات البشر، وإنما هو رأى يحكم على هذه المثاليات فى ضوء الطموحات والممارسة، وفى ضوء ما تشكل فى الواقع بالفعل،ونحن إن لم نفعل ذلك أصبح المثل الأعلى ضباباً يغشى الأبصار وليس منارة تضئ للإنسان طريقه وتساعده على تغيير واقعه إلى واقع أفضل. وهذا ما قاله أحد القادة الفلسطينيين لأحد أعضاء جماعة بريت شالوم من دعاة السلام

مع العرب: «أحب أن أخبرك بكل صراحة أننى أفضل أن أتعامل مع شخص مثل جابوتنسكى على التعامل معك. أعرف تماما أن جابوتنسكى هو عدونا اللدود وأننا ينبغى أن نحارب ضده، بينما يبدو أنك صديقنا. ولكن بكل صراحه لا أرى أى فارق بين هدفك وهدف جابوتنسكى. أنت أيضا تتمسك بوعد بالفور والوطن القومى والهجرة بلاقيد ولا شرط وشراء اليهود للأرض- أى بكل ما هو بالنسبة لى مسألة حياة أو موت»[٢٠].

إن ما يقوله العربى هنا ليس تعبيراً عن يأسه بخصوص الطبيعة البشرية، وليس تبنيا لرؤية داروينية اجتماعية تشبه رؤية الصهاينه التى ترى أن الواقع هو حلبة صراع الجميع ضد الجميع، وإنما هى تعبير عن محاولة لفهم الآخر فى ضوء فكره وسلوكه- فإذا كان القول مشرقاً عادلاً والفعل مظلماً ظالماً فلا مناص من أن نضع النقط على الحروف، بل يكون من الأفضل فى هذه الحالة أن نتعامل مع عدو تطابق أقواله المظلمة أفعاله الظالمة، فهذا الموقف ، على الأقل، يتسم بفضيلة الوضوح.

وقد تنبه أحد زعماء حزب الاستقلال فى فلسطين الى أن الرؤية الصهيونية للسلام مع العرب، مهما بلغت من اعتدال، رؤية فى نهاية الأمر وهمية (أيديولوجية بالمعنى السلبى للكلمة) وأن أى تحقق لها يعنى سلب حقوق العرب. ولذا حينما كتب له يهودا ماجنيس يقترح إمكانية التخلى عن فكرة الدولة اليهودية على أن يسمح لجماعة يهودية أن تتمتع بحكم ذاتى محدود فى فسطين، رد عليه قائلا: «لا أرى أى شئ في اقتراحاتك سوى استفزاز صريح ضد العرب، الذين لن يسمحوا لأحد أن يقاسمهم حقوقهم الطبيعية.. أما بالنسبة لليهود فليس لديهم أية حقوق سوى ذكريات روحية مفعمة بالكوارث والقصص المحزنة.. ولذا من المستحيل عقد لقاء بين زعماء الشعبين- العربى واليهودى»[٢١].

وكان العرب يدركون تماماً أن الحديث العذب عن التقدم وخلافه إنما هو حديث عن التغييب وعن سلب الوطن . إن التقدم فى إطار غير متزن من القوة لصالح المغتصب يعنى أن العربى سيفقد كل شئ، خاصة إذا كان الآخر لا يعترف بالعربى

ككيـان تاريخي وإنما كـمخلوق اقـتصادي. ولذا تغـير كثير مـن الشعوب المـقهورة استراتيـجيتها التـحررية وبدلا من البـحث عن التقدم تـفضل الدفاع عن الـبقاء أو «التشرنق» إذا ما استخدمنا عبارة المفكر العربي المصرى الدكتور شكرى عياد.

ولعل هذا هو الـذى يفسر رفض موسى العـلمى لكلمات بن جـوريون (الحلوة العذبة) حين تقابـلا عام ١٩٣٦ فى منزل موشى شاريت. فطبقـا لما جاء على لسان بن جوريون بدأ الحـديث بترديد النغمة (القـديمة) التى أعدها عن المستنـقعات التى يجرى تجـفيفهـا، والصحارى الـتى تزدهر بـالخضرة، والرخـاء الذى سيعـم على الجميع. ولكن العربى قاطعه قائـلا: «اسمع ياخواجه بن جوريون، إننى أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة لمائة عـام أخرى، أو ألف عام أخرى إلى أن نـستطيع نحن استـصلاحها ونأتى لها بـالخلاص». وهنا مارس بن جوريـون إحدى لحظات الإدراك الـنادرة ولـم يسـعه إلا الاعـتراف بـأن العـربى [الحـقيـقى] كـان يقـول الحقيقـة، وأن كلماته هو [الـيهودى الخالص] بدت مـضحكة وجوفاء أكـثر من أى وقت مضى[٢٢].

وهكذا أيقن العرب أنـه لايمكن التصالح أو التفاهم أو الاستـفادة من مستوطن صهيونى يدرك الواقع بطريقة تنكر وجودهم ابتداء أو تهميشهم على أحسن تقدير، وهو إدراك تـسانده موازين القوى العالمية والمحلية التى لم تكن فى صالح أهل البلد. وقد أثبت مسار التاريخ صدق حدسهم ودقة تقييمهم للموقف.

١ - تم إقتباسه فى

Hans Kohn,"Ahaad Haam"in Gary Smith,ed., **Zionism:**

The Dream and the Reality: A Jewish Critique (New York,

Barnes and Noble,1974),P.23.

2- Published in **Haartz** in Sept 8,1922,Moshe Menuhin and Cited by **Jewish Critics of Zionim** (New York, Arab Information Centere.)P.2.

٣- صبري جريس، **تاريخ الصهيونية**،

٤- لاكير، ص٢١٥-٢١٦.

٥- صبري جريس، **تاريخ الصهيونية**، ص١٤٠.

٦- لاكير، ص ٢١٥-٢١٦.

٧- **يوميات هرتزل**، الجزء الرابع، ص ١٤٤٩

٨- فلابان، ص ١٤٠-١٤٢.

٩- نفس المرجع، ص ١٤٩-١٥٠.

١٠- لاكير، ص ..

١١- فلابان، ص ١٤٩-١٥٠.

١٢- «شهادة مقدمة إلى اللجنة الملكية لفلسطين» (١٩٣٧) في **الفكرة الصهيونيه: النصوص الاساسية**، إشراف الدكتور أنيس صائغ (بيروت، مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٠)، ص ٤٣٧.

١٣- لاكير، ص ٢٥٧.

١٤- فلابان، ص ١٤٣-١٤٤.

١٥- نفس الرجع، ص١٥٣.

١٦- نفس المرجع، ص١٥٦.

١٧- لاكير، ص ٢٤٢.

١٨- فلابان، ص ٧٦.

١٩- لاكير، ص ٢١٥.

٢٠- روبنشتاين، ص ٥٦٢.

٢١- نفس المرجع، نفس الصفحة.

٢٢- بن عيزر، ص٨٣.

الفصل الثانى:

فى الإدراك الاسرائيلى

١- الإدراك الإسرائيلى للعرب

٢- الإدراك الإسرائيلى للدولة الفلسطينية

٣- الإدراك الإسرائيلى للإنتفاضة

١- الإدراك الاسرائيلى للعرب

يمكننا فى هذا الفصل أن نترك الإدراك الصهيونى للعرب وننتقل إلى الإدراك الاسرائيلى. ولنبدأ بطرح السؤال التالى:

هل نجح الاسرائيليون فى تجاوز التحيز الإدراكى الصهيونى؟ وإن كانوا قد نجحوا، فهل تحول الإدراك إلى برنامج سياسى ما، أو هل أثر إدراكهم فى سلوكهم؟ بمعنى- هل ثمة إدراك اسرائيلى للعربى منفصل عن الإدراك الصهيونى، وهل أدى تحول المستوطن الصهيونى إلى الدولة الصهيونية إلى تحول مماثل فى الإدراك؟

أعتقد أن الوجدان الاسرائيلى لايزال حبيس الإدراك الصهيونى الغربى بكل تحيزاته. وهذا ليس بأمر مستغرب، فالإنسان الاسرائيلى إنسان مستفيد من المشروع الاستيطانى الصهيونى، ولا يوجد له أى كيان خارجه، وظهور العربى الحقيقى يهدد هذا الكيان وينسف الادعاءات الصهيونية من جذورها. (وقد بينا فى مكان آخر كيف تساهم عملية تمويل الكيان الصهيونى من الخارج [عن طريق الولايات المتحدة ويهود الغرب] فى فصل الاسرائيلى عن واقعه وبالتالى تساعد على تدعيم الإدراك الصهيونى المتحيز للواقع وللإنسان العربى وتضمن له الاستمرار، إذ أنها تمد هذا الإدراك ببنية القوة التحتية)(١).

العربى المتخلف

ولنبدأ بمقولة العربى المتخلف (والصهيونى كممثل للحضارة الغربية). هناك الكثيرون بطبيعة الحال فى إسرائيل الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم حملة شعلة الحضارة الغربية فى جبهة الشرق الأوسط، وأن العرب هم ممثلو الشرق المتخلف. فعلى سبيل المثال يرى أبا ايبان أن إسرائيل فى الشرق الأوسط ولكنها ليست منه، ويتبعه فى ذلك بن جوريون وبيجين ومعظم القيادات الصهيونية.

بل إن سياسة إسرائيل بكاملها، ابتداء من نمط تصويتها فى هيئة الأمم إلى تحالفها الاستراتيجى مع الولايات المتحدة، هو ترجمة لهذه الرؤية للذات. ويمكن أن نضيف أن الأسلحة الاسرائيلية التى تدك مخيمات اللاجئين هى، فى معظم الأحوال، أسلحة غربية متقدمة أو ثمرة من ثمرات التكنولوجيا الغربية. كما أن القنابل العنقودية بدرجة فتكها العالية هى ولا شك نتاج حضارة متقدمة منظمة على أكمل وجه، والمعونات التى تلتهمها إسرائيل أولا بأول هى معونات غربيه بشكل عام، وأمريكية على وجه الخصوص. وقارئ الصحافة الاسرائيلية يعرف أن الدولة الصهيونية لاتكف عن الحديث عن نفسها باعتبارها امتداداً للغرب وواحة الديمقراطيه الغربية، كما يعرف أن أسلوب الحياة هناك استهلاكى غربى(على الأقل بالنسبة للأشكناز).

وتنعكس هذه الرؤية الصهيونية للذات وللآخر على موقف الدولة الصهيونية الاشكنازية من يهود البلاد العربية، فهى تنظر لهم بالمنظار الغربى، وترى أنهم عنصر من عناصر التخلف الحضارى العام فى الجيب الصهيونى. بل إن إنكار الإنجاز الحضارى العربى قد انسحب على إسهام اليهود العرب للحضارة العربية، وعلى إسهام اليهود السفارد لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط. ولذا لايأتى ذكر لهذه الإنجازات، إلا نادراً، فى الكتب المدرسية الاسرائيلية. ومن السخرية بمكان أنه حتى بدايات القرن الثامن عشر، كانت إسهامات اليهود الاشكناز لحضارات بلادهم فى حكم المنعدمة، ولا تخرج عن نطاق الفتاوى التلمودية والإشراقات القباليه، فلم ينتج يهود الغرب شخصية مثل موسى بن ميمون أو شاعرا مثل يهودا هاليفى (إلا مع بدايات القرن الثامن عشر).

ولكن الهدف المقصود هو صاحب الأرض الفلسطينية، أى العربى وليس اليهودى الشرقى، ولذا نجد أن صورة العربى المتخلف هى صورة متواترة فى الصحافة الاسرائيلية لاتكف أجهزة الاعلام عن تأكيدها، ولاتكف المقررات الدراسية عن تدعيمها فى الوجدان الاسرائيلى. وقد صدرت كتابات عربية عديدة لتوثيق هذا الجانب من الإدراك الاسرائيلى للإنسان العربى.

وقد ذكرنا من قبل امتداداً طريفاً لصورة العربى كشرقى وهو صورة اليهودى كعربى . وعلى الرغم من أننا ذكرنا أن هذه الصورة قد ظهرت قبل تبلور الإدراك الصهيوني للعربى، إلا أنها مع ذلك لايزال لها أصداؤها فى الوجدان الاسرائيلى، وتأخذ شكل الفكرة الكنعانية التى تنطلق من الإيمان بأن اليهود العائدين لإسرائيل إنما هم عبرانيون - أي جزء من التشكيل الحضاري السامى، ليس لهم علاقة بيهود الشتات. ولعل الدعوة للقومية الاسرائيلية (ككيان منفصل بل ومناقض للهوية اليهودية) وتمجيد الصابرا فى مقابل يهود المنفى هو تعبير جزئى عن نفس هذا الإدراك.

العربى ممثلاً للأغيار

أما العربى ممثلا للأغيار فهو أيضا إدراك لايزال سائدا فى إسرائيل، فقد فسر المفكر والعالم يشياهو ليبوفتز ما سماه الصراع العربي اليهودى على أنه تعبير عن الجوهر الأزلى لمأساة الشعب اليهودى التاريخية[٢] أى مشكلة اليهود مع الأغيار. أما الشاعر بنحاس صادح فيرى أن العرب هم التعبير عن حاجة العالم المسيحى لتصفية ظاهرة اليهود[٣]. ويفسر الكاتب الاسرائيلى يهوشاوا المقاومة العربية على أساس أنها شئ غير مفهوم، ودوافعها غير عقلانية إلى حد كبير. فثمة شئ ما فى اليهود يؤدى الى إثارة جنون الشعوب الأخرى[٤].

وهم فى إسرائيل لايتحدثون عن اليهود والعرب، وإنما يتحدثون فى كثير من الأحيان «عن اليهود وغير اليهود»[٥] أى الأغيار على طريقة وعد بالفور. وفى هذا الصدد قد يكون من المفيد أن نتذكر أن الحاخام ابراهام افيدان أوصى الجنود الاسرائيليين- فى إحدى نشرات الحاخامية العسكرية للجيش الاسرائيلي- بقتل المدنين الأغيار أو غير اليهود، ولكنه كان يعنى بطبيعة الحال العرب، إذ أنه لايوجد سواهم وحسب. ولاشك أن جنود جيش الدفاع الاسرائيلى كانوا يعرفون تماماً ما كان يرمى إليه الحاخام الصهيونى، فالعربى، حسب هذا الإدراك، هو ممثل الأغيار.

وقد ذكر الصحفي الاسرائيلي(وعضو الكنيست) يوري افنيري في إحدى مقالاته (أثناء حرب الاستنزاف على الحدود المصرية) أن الطيارين الاسرائيليين يطيرون بطائراتهم ويدكون المنازل والمدارس المصرية ثم يعودون إلى منازلهم ولا يرون في أحلامهم ضحاياهم، وإنما يرون جيتو شرق أوروبا أثناء إحدى المذابح التي كانت تدبر ضد اليهود- أي أن الاسرائيلي يدرك نفسه على أنه الضحية الدائمة وأن العربي يمثل الأغيار والجزار، حتى بعد أن قام هو شخصيا بذبحه.

العربي الهامشي

أما العربي الهامشي فيظهر في الرؤية الاسرائيلية على أنه شخص له حقوق مدنيه يمكن ممارستها من داخل مجالس البلديات ومجالس القرى، ولكنه ليس له حقوق سياسية أو قومية ينبغي التعبير عنها من خلال مؤسسات سياسية، ومن هنا عدم السماح بقيام أحزاب عربية قومية. والمفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي لايخرج عن هذا الإطار. ومفهوم الإدارة الذاتية هو في جوهره تعبير عن ذلك، فهو مفهوم يفصل الإنسان العربي عن أرضه ويحقق الرؤية الصهيونية في مرحلة أصبحت الإبادة فيها شبه مستحيلة وأصبح تفريغ الأرض من سكانها أمراً صعباً. ويظهر التهميش كذلك في إصرار الاسرائيليين على التعامل لا مع العرب وإنما مع المسلمين والمسيحيين والدروز وسكان القطاع وسكان الضفة ومع القيادات التقليدية. بل إن الاستراتيجية الصهيونية الحالية تجاه المنظومة العربية بأسرها لاتزال تدور في إطار الإدراك القديم وهو إنكار القومية العربية والتعامل مع الجماعات الإثنية والقومية المختلفة، وهذا هو في نهاية الأمر إطار كامب ديفيد.

العربي الغائب

أما التغييب فيأخذ الآن فكرة تهجير الفلسطينيين ودفع تعويضات لهم وتشجيعهم على الهجرة إلى الغرب حتى يمكن تفريغ الأرض من سكانها. وقد دأبت أجهزة الدعاية الصهيونية على وصف تغييب عرب فلسطين عام ١٩٤٨ وإرغامهم على الخروج من فلسطين عن طريق الإرهاب بأنه كان عملية «تبادل سكان» تم من خلالها توطين الفلسطينيين خارج فلسطين وتوطين العرب اليهود داخلها.

ولكن التبادل يعني القبول من الطرفين، وهو أمر كما نعلم لم يحدث، فالفلاحون الفلسطينيون لم يقبلوا أن يتركوا أراضيهم ليحلوا محل رجال الأعمال والمحامين من أعضاء الأقلية اليهودية في مصر أو العراق، وبالتالي فلم يكن هناك ثمة تبادل. كما أنه لم يتم تبادل أرض بأرض فنحن لا نعرف أن الحركة الصهيونية قد دبرت للفلسطينيين المغيبين قطعة أرض في مكان ما. ولكنه مع هذا «تبادل» من وجهة نظر الإدراك الصهيونية باعتبار أن فلسطين هي المكان الطبيعي لليهودي الخالص، ولا يوجد فيها مكان للعربي الغائب أو الذي يجب أن يُغيَّب. ولذا حينما يخرج العربي (حتى ولو بقوة السلاح) ويحل محله اليهودي فإن في هذا تحقيق لرؤية إدراكية مسبقة، وبالتالي يبدو أمراً طبيعياً ومنسجما.

ومن أشكال التعبير عن تغييب العرب الاصطلاح القانوني الاسرائيلي «الغائبون الحاضرون» وهو يشير إلى الفلسطينيين الموجودين بالفعل داخل حدود ٤٨، والذين مُنعوا من الوصول لأرضهم بأمر الحاكم العسكري. ولو تُرجم هذا المصطلح إلى «الحاضرين المتغيبين» لظهر معناه الحقيقي.

أما إغفال العرب فيظهر في إنكار وجود حركة المقاومة الفلسطينية ورفض التعامل معها والإصرار على الإشارة للفدائيين على أنهم «متسللين وإرهابيين وقتلة»، وفي رفض التصريح بعدد ضحايا الهجمات الفدائية، وفي وصف جولدا مائير لنفسها بأنها «فلسطينية».

العربي كيهودي

ثم نأتي أخيراً لعملية الإسقاط الصيهونية التي تحول العربي إلى يهودي المنفى. ويبدو أن هذه الظاهرة أيضاً لها إمتداداتها. وقد لاحظ أحد المؤلفين العرب (دكتور رشاد الشامي في جامعة عين شمس بالقاهرة) في دراسة له في قصة «خربة خزعة» لساميخ يزهار، أن الفكر الصهيوني الاسرائيلي بدأ ينسب إلى العربي السمات السابقة نفسها التي كان ينسبها ليهود المنفى، وهي السمات التي استوردتها الصهيونية بدورها من أدبيات معاداة اليهود.

وقد بدأ الدكتور علي جاد أستاذ أدب انجليزي بجامعة الملك سعود الرياض، في نشر مجموعة من الدراسات عن هذا النمط الإسقاطي كما يرد في الرواية الصهيونية في الولايات المتحدة.

ومن الأمثلة الأخرى التي نسوقها على هذا الإسقاط الصورة التي رسمها المفكر الصهيوني الأمريكي هوارس كالن للفلسطيني في المستقبل كما يحب أن يراها، فقال: «لوحصل اللاجئون على جوازات سفر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كاف من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سبل العيش المعقولة، وقيل لهم أن هذا هو كل ماسيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً- لوحدث هذا لبدأوا عندئذ في الاعتماد على النفس» [٦]. ولنلاحظ أن الصورة الكامنة هنا هي صورة «اليهودي التائه» الذي يرحل من مكان لآخر دون توقف، والذي لا يهمه سوى المبلغ الذي يحمله، أي أنها صورة اليهود في كتابات المعادين لليهود.

ومن الأمثلة الدرامية الأخرى على عملية الإسقاط هذا الحوار التالي الذي نشر في جريدة **حاداشوت** (٢٠ نوفمبر ١٩٨٤) والذي دار بين مراسلي الجريدة وزوجة موشيه ليفنجر زعيم جوش ايمونيم. أخبرت السيدة المراسل أن الأطباء العرب أقل نظافة ومهارة من الأطباء الاسرائيليين وأنها تفضل أن تعالج أسنانها عند أطباء يهود «لأنني أثق في المعايير اليهودية وحسب. فاليهود موهوبون في هذه الأمور، أما العرب فهم غير قادرين على تطوير صناعات متقدمة، وتستورد السعودية آلاف الفنيين. إن كل أمة لها اتجاهاتها الخاصة، والعرب لا يصلحون إلا أن يكونوا تجارا». إن العربي هنا هو يهودي البروتوكولات- التاجر المرابي الطفيلي. وهو أيضاً، شأنه شأن يهودي البروتوكولات، مصدر كل الشرور ويهدد أمن الدولة: فقد نشرت، على سبيل المثال، **عال هامشمار** (٢٣ نوفمبر ١٩٨٤) خبراً مفاده أن الطلبة العرب أرسلوا خطابا لأعضاء الكنيست يهددونهم فيه بالذبح، وأنهم سيدمرون كل اليهود!.

العربي الحقيقي

وأخيراً نأتي للإدراك الإسرائيلي للعربي الحقيقي وسنكتشف أنه على الرغم من وجود مؤسسات حكومية اسرائيلية لدراسة العرب، وعلى الرغم من وجود احتكاك يومي بين الاسرائيليين والعرب إلا أنه يمكن القول أن الأمر لم يتغير كثيراً. فإدراك الاسرائيليين للعربي الحقيقي لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاضل وإنما تنتج عنه الاستجابات الثلاث التي سبق وأشرت إليها:

١- أن يتخلى الاسرائيلي عن صهيونيته.

٢- أن يعدل الاسرائيلي من صهيونيته في ضوء إدراكه فيتحول هو إلى شخصية هامشية أو مبهمة.

٣- أن يتمسك بصهيونيته، فيزيد إدراكه من ضراوته وشراسته نظرا لتزايد إحساسه بالخطر المحدق.

وهذه الأنماط الثلاثة هي ذاتها الأنماط التي كانت سائدة بين الصهاينة قبل ١٩٤٨، وقد لاحظنا شيوع النمط الثالث، ويبدو أن الأمر لا يزال على ماهو عليه.

وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على النمط الأول ممن أدركوا العرب كحقيقة تاريخية وتقبلوا هذا الإدراك وحددوا سلوكهم في إطاره لذكرنا موشيه ماخوفر المواطن الإسرائيلي الذي تحول إدراكه إلى رفض للصهيونية، فغادر الكيان الصهيوني واستقر في لندن.

وهناك كذلك المناضل الاسرائيلي اليهودي أديب الذي انضم لصفوف المقاومة الفلسطينية ودخل السجن دفاعاً عما تصوره الحقيقة التاريخية والعدل الإنساني.

أما بالنسبة للنمط الثاني فيمكن أن نذكر شخصيات مثل متيتياهو بيليد ويوري افنيري وأرييه الياف فهم يدركون العرب كحقيقة تاريخية لابد من التعامل معها،

ولكنهم مثل إيشتاين والآخرين ينطلقون من تقبل الكيان الصهيوني كحقيقة قائمة، ولذلك يطلبون من الإنسان العربي التاريخي أن يتعامل مع الإنسان الإسرائيلي ككيان تاريخي قائم. وقد تسبب موقفهم هذا في تهميشهم تماما، خاصة في حالة إلياف، الذي كان شخصية أساسية قيادية في المؤسسة العمالية ثم بدأ يدعو لفكرة التصالح مع العرب والاعتراف بهم فأخذ يتحرك من المركز إلى الهامش حتى فشل في الحصول على مقعد في الكنيست.

أما النمط الثالث، وهو النمط الأكثر شيوعاً، فيضم أولئك الذين أدركوا أبعاد الرفض العربي لهم، وأنه رفض تاريخي حقيقي مستمر، تحركه الدوافع القومية، فزادهم ذلك إصراراً وتمسكاً بموقفهم. وسنجد أن هؤلاء قد تبنوا مفهوم إين بريرا- أي «لاخيار» - أي أنه لا يوجد أمام الاسرائيلي سوى الحرب المستمرة. ومن أهم ممثلي هذه الرؤية موشيه ديان وهو من جيل الصابرا الذي نشأ على الأرض العربية وعرف العربي عن قرب. ومن أهم المفكرين الاستراتيجيين الذين تتسم رؤيتهم بالإدراك الواضح وبالعنف والشراسة شلومو أرونسون الذي تنبأ بمايسميه حرب المائة عام بين إسرائيل والعرب. وهؤلاء الاسرائيليون يشبهون في كثير من الوجوه شاريت وبن جوريون وجابوتنسكي حيث يترجم الإدراك نفسه لا إلى تعديل للرؤية وإنما إلى تعميق الإحساس بعدم الأمن الذي يترجم نفسه بدوره إلى مزيد من الضراوة.

القصور الإدراكي

بعد هذا العرض السريع للطيف الإدراكي (الصهيوني/الاسرائيلي) تجاه العرب وبعد أن عرضنا لإشكالية العربي الحقيقي وأثره على السلوك الصهيوني، قد يكون من المفيد أن نحاول أن نشخّص موطن الخلل أو القصور الأساسي في هذا الإدراك. وثمة خلل وقصور ولا شك، وإلا بم نفسر حالة الصراع الدائمة التي استمرت إلى مايزيد عن مائة عام، والآخذة في التصاعد والتي لا توجد أية مؤشرات على إمكانية انفراجها إلا عن طريق استسلام أحد الطرفين للآخر. وفي

محاولة التوصل إلى طبيعة هذا الخلل سنشير إلى مقال نشر عام ١٩٢٢ في مجلة كانت تصدرها جماعة صهيونية «اشتراكية» تسمى «فرقة العمل». وقد حاول كاتب المقال أن يعبر عن رؤيته لمستقبل كيبوتس عين هارود الزاهر الذي كان يجري تشييده آنذاك في وادي جزريل. وقد تخيل كاتب المقال الكيبوتس بعد مائة عام، وتأمل ثراءه وإنجازاته الثقافية ومنازله التي ستشيد على «الطريقة الشرقية». وحلم المؤلف بأنه سيشيد في وسط الكيبوتس تمثالا لرجلين «واحد عربي والآخر يهودي»، جالسين على صخرة ويحملان راية نُقشت عليها ثلاث كلمات: «المساواة والأخوة والحرية»(٦).

إن الصورة الإنسانية المتوحـ [illegible] التي رسمها المؤلف الصهيوني لكيبوتس المستقبل تتجاهل عدة حقائق:

١- لا ندري كيف صوّر المؤلف الصهيوني ذلك العربي الجالس إلى جوار اليهودي، ولكننا مع هذا يمكننا التخمين فنحن نعرف أن الصهاينة كانوا لا يعترفون بالتشكيل القومي العربي، خاصة داخل فلسطين، ولذا فالعربي الجالس هناك علي الصخرة كان شخصية مجردة من حقوقها القومية وتراثها الحضاري، فرد قد يكون له حقوق مدنية وربما بعض الحقوق السياسية على أكثر تقدير، ولكنه كان عليه أن يتنازل عن كثير من حقوقه، ويقتسمها مع اليهودي الذي انتسم معه الصخرة، وكأن لهما نفس الحقوق ونفس الشرعية. وهذا ولا شك خلل إدراكي. فالعربي عاش آلاف السنين يفلح هذه الأرض ولا يعرف له وطناً غيرها، ولا يمكنه أن يقتسم فلسطين مع الصهيوني الجالس إلى جواره، فهذا الأخير جسم غريب غُرس غرساً في هذه الأرض بمساعدة الاستعمار الغربي.

٢- والصهيوني الجالس علي الصخرة إلي جوار العربي، حتى لو كان من كبار المدافعين عن قيم الحق والعدالة، مغتصب، فوجوده في فلسطين عدوان، وكيبوتس عين هارود أُسس على أرض غُيِّب سكانها. ولذا فهذا الثوري اليهودي [illegible] وطنه في أرض غيره. وهذه حقيقة لا تحتاج لمنظرين يساريين أو ثو[illegible] ملك إيطاليا لهرتزل. وإذا كان الصهاينة لم يروا هذه

الحقيقة البديهية فإن ذلك دليل قاطع- وكأننا نحتاج لمثل هذا الدليل- على مدى خلل إدراكهم للواقع.

لا يمكن تحقيق الحلم الصهيوني إلا بتغييب العربي أو تهميشه على الأقل، فغياب العربي هو تحقق الصهيونية، وتحقق الصهيونية هو غياب العربي: وهذا ماعرفه جابوتنسكي صاحب فكرة الحائط الحديدي، وتبعه تلميذه بيجن ومعظم الاسرائيليين. وقد أكد بيجن في خطاب له أمام سكان كيبوتس عين هارود، وبعد تأسيسه و«نجاحه»، أكد على ضرورة تغييب العربي والتمسك بالزعم بأن فلسطين لا توجد، وأنها كانت ولا تزال وستظل إرتس يسرائيل: «فلو كانت هذه هي فلسطين [أرض العربي الحقيقي] وليست أرض اسرائيل [أرض اليهودي الخالص] إذن فأنتم فاتحون ولستم مزارعين يفلحون الأرض، أنتم إذن غزاة. إذا كانت هذه فلسطين [أي إذا اعترفنا بوجود العربي الحقيقي ذي الحقوق القومية والسياسية] فهي تنتمي إذن للشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها. لن يكون لكم حق العيش فيها إلا إذا كانت هذه هي أرض إسرائيل». (٧) وقد تولى بيجن رئاسة الوزارة فيما بعد، ولم نعد نسمع عن ماجنيس أو إيشتاين وأمثالهما في كتب التاريخ. ولكن البشر لا يوجدون داخل وعي الآخرين وإدراكهم، ولذا فهم يرفضون الغياب والتواري عن الأنظار والتحول إلى كائنات إقتصادية، ويحملون السلاح دفاعاً عن وجودهم وشرفهم. ولذا بدلا من النصب التذكاري الذي حلمه المؤلف الصهيوني يوجد الآن في عين هارود نصب تذكاري شيده الإسرائيليون للقتلى الصهاينة الذين سقطوا في الحروب التي لا تنتهي مع العرب (٨) والتي تنبأ بها بن جوريون في إحدى لحظات الصفاء!.

الاعتدال والتطرف الصهيونيان

لعل من أهم النتائج التي خلصنا لها في تقييمنا للإدراك الصهيوني للعرب إنفصال الإدراك عن السلوك، إذ أن نفس الإدراك لنفس الظاهرة (إدراك الصهاينة للعربي كإنسان حقيقي له حقوق) قد يؤدي إلى أنواع متباينة من السلوك. فإدراك آحاد هعام ويهودا ماجنيس وبن جوريون للعربي الحقيقي قد نجم عنه تذبذب من

جانب الأول، ومحاولات يائسة للتوفيق بين رؤيتين متناقضتين من جانب الثاني أدت إلى تهميشه هو شخصياً، ومزيد من الشراسة من جانب الثالث. وكما بينت من قبل تختلف الاستجابات من فرد لآخر نتيجة لمركب هائل من العوامل النفسية والعصبية والتاريخية والسياسية. وقد بيّنا أن موازين القوى تلعب دوراً هاماً في ترجيح صورة إدراكية على حساب الأخرى، ولذا في غياب القوة العربية وجدنا أن النمط الثالث هو أكثر الأنماط الصهيونية شيوعا، فهو النمط الذي كان يدرك منطق الرؤية الصهيونية والذي كان يعرف موازين القوة معرفة جيدة. ويمكننا أن نرسم مخططاً متكاملاً لطيف الإدراك الصهيوني فى علاقته بموازين القوى:

١- في حالة اتجاه موازين القوى لصالح العرب وضد صالح الصهاينة فإنها تدعم الإدراك الواقعي ويساهم ذلك في تبديد الأوهام الايديولوجيه، ويبدأ الإدراك الواقعي في فرض نفسه. وقد يتحول إلى برنامج سياسي يعكس الواقع- أي أنه يتم ترشيد العقل الصهيوني (وفي هذا الإطار قد تتحول الشخصيات الهامشية «المجنونة» مثل اسرائيل شاهاك وافنيري إلى شخصيات قيادية. ويمكن أن تظهر أيضا قيادات سفارديه على استعداد لتعديل اسطورة الذات الصهيونية).

٢- في حالة اتجاه موازين القوى لصالح الصهاينة وضد صالح العرب فإنها ستدعم الإدراك الصهيونى المتحيز وسيساهم ذلك في أن يتحول الواقع التاريخى إلى شيء هامشي باهت ويتدعم البرنامج السياسي الصهيوني كمرشد للتعامل مع

ويمكن ان نفسر التطرف والاعتدال الصهيونيين في ضوء الاحتمالين السابقين.

فإن ظل العربي الحقيقي ساكنا دون أن يتحدى الرؤية أو موازين القوى أصبح من الممكن قبوله كشخصية متخلفة هامشية غائبة، ويصبح من الممكن إظهار التسامح تجاهه، بل و«منحه» بعض الحقوق (وهنا تكمن المفارقة). أما إذا بدأ العربي الحقيقي في التحرك لتأكيد حقوقه ولرفض الهامشية وتحدي الرؤية

الصهيونية وحاول تغيير موازين القوة لصالحه يصبح مصدر خطر حقيقي ويصبح من الضروري ضربه لتهشيمه وتهميشه ويصبح التسامح مرفوضا.

هذا لا يعني أننا نسقط أهمية الإدراك من حسابنا ونؤكد موازين القوى وحسب، فالواقع لا يفرض نفسه على عقل الإنسان بشكل مباشر وإنما من خلال طيف إدراكي وتساهم القوة في تقويض الإدراك أو تدعيمه، فهي علاقة مركبة إلى أقصى حد. ولذا يجب أن نعرف تماماً أننا نعيش في عالم ليس من صنعنا وهو عالم يؤمن بالحواس الخمسة وبكل مايقاس، ولا يعترف كثيراً بالحق أو الخير أو الجمال. ولذا لابد وأن نضغط على حواس أعدائنا الخمسة بكل ما أوتينا من قوة حتى يعرف الآخرأن العربي الحقيقي ليس مجرد صورة في وجدانه يمكنه تناسيها، وإنما هو قوة واقعية يمكن أن تسبب له خسارة فادحة إن هو تجاهلها أو حاول تهميشها وتهشيمها.

ولعل هذا هو القصور الأساسي في محاولات التوصل للسلام في إطار كامب ديفيد. فقد ظن مهندسو هذه الاتفاقية أنهم عن طريق رفع رايات السلام سيغيرون صورة العربي في وعي العالم، وأن هذه الصورة ستخلق دينامية تفرض على الاسرائيليين أن يصلوا إلى اتفاق عادل أو شبه عادل. ولكن الذي حدث عكس ذلك تماما. فبعد الأسابيع الأولى وبعد أن طويت عدسات التليفزيون الساخنة ظهرت حسابات القوة الباردة التي فرضت منطقها الثلجي البارد القاسي على الجميع.

وقد جاء في مجلة **نيوزويك** الأمريكية أنه بعد أن قبل الرئيس السادات بشروط كامب ديفيد كما فرضها بيجين، طلب تخصيص رقعة ما في القدس ترفع عليها الأعلام العربية حتى تكون «غنيمة أخرى» يعود ليتباهى بها، وكان تعليق أحد أعضاء الوفد الاسرائيلي هو أن تُرفع الأعلام على المقابر العربية («سلام المقابر الذي لم يرده وايزمان لنفسه»). أما ديان فقال "السادات يريد بقشيش" أي أنه نظر إلى الرئيس السادات من خلال الطيف الإدراكي الصهيوني وحوله إلى إنسان متخلف هامشي، شحاذ ليس له حقوق، يمكن أن «تهبه» شيئاً إن أردت من قبيل

الاعتدال الصهيوني. وقد كان ديان أكثر واقعية من الرئيس السادات، فحسابات القوة الباردة في عالمنا لا تعرف الحق والحقيقة. ولو كان هناك وراء السادات دبابة عربية، تقف شامخة جميلة، لما رآه ديان شحاذا يقف على عتباته.

ومرة أخرى رغم معرفتي بمنطق القوة لا أكن له حباً ولا احتراماً، ولكنني كما قلت في عالم ليس من صنعنا، وهو عالم قبيح صُنع أساساً في الغرب في القرن التاسع عشر، وإن أردنا التعامل معه بكفاءة علينا أن نقيّمه تقييماً موضوعياً. ومع هذا أعتقد أنه يجب ألا نرفض فكرة الحوار مع الآخر. فالآخر موجود الآن في وسطنا، ومدجج بالسلاح، ولذا أطالب دائما بالحوار المسلح- حوار يمكنّني من فهم الاسرائيلي الحقيقي ويمكّنه من فهم العربي الحقيقي. ولكن الحوار بدون سلاح قد يطرح صورة إدراكية صادقة ولكنها معرضة للشحوب ثم الاختفاء لأنها تساندها القوة. ولذا يجب أن تستند بنية الإدراك لبنية القوة، وحينئذ قد يتحول الإدراك إلى فعل فاضل، وتتحول الحقيقة إلى عدل.

(١) تم إقتباسه في:

عبدالوهاب محمد المسيرى، **الأيديولوچيه الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة** (الكويت، سلسلة عـالم المعرفة اصدار المجلس الوطني للثقـافة والفنون والآداب، ١٩٨٢-١٩٨٣)، انـظر خاصة الـفصل الثاني عشر.

(٢)- بن عيزر، ص ١٨٣ .

(٣)- المصدر نفسه، ص٢٤٥ .

(٤)- المصدر نفسه، ص٣٠٤-٣٢٥ .

(٥)- **يديعوت أحرونوت** ٢٠ ديسمبر ١٩٧٤ .

(٦)- روبنشتاين، ص ٦٧ .

(٧)- يديعوت أحرونوت ١٧ أكتوبر ١٩٦٩ .

(٨)- روبشتاين، ص ٦٧ .

٢-الإدراك الاسرائيلى للدولة الفلسطينية

وصفنا المتصل الأدراكى الصهيونى الاسرائيلى فى الدراسات السابقة، وبينا أن هذا الإدراك يصل لحظة تحققه النماذجيه فى التغيب الكامل ، وهذا هو الحلم الصهيونى فى لحظة تحققه الوهمية وفى حده الأقصى ورغم أنه حلم، إلا أنه يشكل البنية التحتية لكل أفكار ومواقف الصهاينة الأخرى، ولا يمكننا أن نصف الاختلافات والتفرعات الأخرى إلا بأخذ هذه النقطة فى الاعتبار. ويجب التأكيد على أن الأفكار تلعب دوراً أساسياً فى تحديد سلوك المستوطن فى الجيوب الاستيطانية بشكل يفوق الدور الذى تلعبه فى تحديد سلوك المواطنين فى التشكيلات السياسية العادية. ففكرة القومية الفرنسية تحرك الجماهير الفرنسية وفكرة القومية اليونانية تحرك الجماهير اليونانية، ولكن القومية الفرنسية ليست مجرد فكرة أو مشروع قد يفشل أو ينجح، وإنما هو واقع تاريخى ممتد ترجم نفسه إلى مؤسسات وتراث، ولم يعد من الممكن وضع وجوده ذاته موضع تساؤل. كما أن الفرنسيين ليسوا مهددين بشعب آخر كان يشغل أرضهم ولا بتاريخ آخر كان يشغل الحيز الزمانى فى وطنهم، وبالتالى تكون فكرة القومية بالنسبة لهم مجرد تعبير عن واقع قائم راسخ، متعين مركب. أما بالنسبة للجيوب الاستيطانية فهى عادة تستند إلى فكرة هى فى الواقع كذبة تاريخية كبرى (إن السكان الأصليين غير موجودين)، وهذه الفكرة ليست واقعاً قائماً وإنما إطاراً عقلياً وعاطفياً. ولذا نجد أن هذه الفكرة (الحلم - الوهم) تلعب دوراً حيوياً فى تحديد علاقة المستوطن مع واقعه، بل ونجدها فى كثير من الأحيان تحل محل الحقيقة.

ومع هذا تظل الحقيقة التاريخية قائمة، ويخرج المستضعفون والمغيبون من الغابات والقرى ومن بين شقوق الأرض فيظهرون على شاشات التليفزيون وعلى شاشة الوعى ويقبعون فى أحلام الظالم الذى ظن أنه قد غيبهم وإلى الأبد - فيتقلص الوهم أو يتبدد. وبدلا من العربى المغيب يبدأ بعض المستوطنين بالحديث عن إمكانية التعايش مع السكان الأصليين مع إعطائهم حق تقرير المصير المحدود.

وبتزايد الضغط، قد تظهر قطاعات توسع من نطاق هذه الحدود، فيتحدثون عن حق تقرير المصير الكامل، ولكن المشروط بنزع السلاح، وهناك من يقبل بدولتين متساويتين في السيادة القومية وهكذا. وهناك أخيراً (كما أسلفنا) من يصل إلى تقبل العربي الحقيقي ويدرك تماماً أن تاريخ فلسطين إنما هو تاريخ عربي، وهو في هذه الحالة يخرج على المشروع الصهيوني ذاته ويصبح معادياً للصهيونية، رافضاً لها.

الحد الأقصى الصهيوني

ولنحاول الآن دراسة نماذج من التفكير السياسي الاسرائيلي بخصوص فكرة الدولة الفلسطينية. هنا سنجد أفكاراً متضاربة عديدة واقتراحات لا حصر لها ولا عدد تقع على درجات مختلفة من المتصل الإدراكي الذي اقترحناه. ولتبسيط الصورة حتى يمكن تناولها بشيء من التحليل سنقسم المواقف إلى ثلاث يقترب أولها من الحد الأقصى الصهيوني أي تغييب العرب ويكاد يلتصق به، ويبتعد ثالثها عنه حتى يبدو وكأنه نقيض، ويقف ثانيها في نقطة اعتبارية متوسطة بينهما. وقد اخترنا شموئيل كاتس- أحد مؤسسي حركة حيروت والذي شغل منصب مستشار رئيس الوزراء مناحم بيجين عام ١٩٧٨ كممثل للنموذج الأول[١]. وليعبر كاتس عن وجهة نظره يقتبس كلمات بن جوريون الذي يشير فيها إلى «تاريخ اليهود» وإلى «بلاد اسمها يهودا وهي التي نسميها أرض اسرائيل. . . إن هذه البلاد جعلت منا شعباً، وشعبنا خلق هذه البلاد. ويضيف كاتس: «خلال مئات السنين هذه التي تخللتها عمليات قتل وطرد وتمييز ومستوى معيشي سيء لم يتأثر الوجود اليهودي في فلسطين ولم يتخل اليهود عن عاداتهم وتقاليدهم».

وخلال هذه الفترة «لم يتأثر التراث اليهودي كما لم تتأثر الثقافة اليهودية أي اللغة العبرية التي بدء باستعمالها في القرن العاشر في طبريه». ونحن لن نحاول تفنيد هذه الأفكار الصبيانية أو الرد عليها فهي من التفاهة بحيث لايصح أن ينشغل المرء بها إلا بمقدار كونها مؤشراً على حدود صاحبها الإدراكية. وكاتس لايرى

سوى حضور يهودى كامل وثـابت عبر التاريخ يقابله غياب عربى كامل. ويقتبس كلمات كاتب أمريكى،هو مارك توين، الذى زار فلسطين سائحا، للدلالة على رأيه وكأن مارك توين هـو أحد كبار مؤرخي المنطقـة العربية: «لقد وجدنا الـبلاد خالية تماماً (عام ١٨٦٧) لا أثر للحياة فيها.. ولـم نجد فى الطريق أية روح حية، وكانت أرض إسرائيل أرضاً جرداء وكأنها لاتنتمى إلى هذا العالم».

ويستمر شموئيل كـاتسل في التغييب فينكر حتي وجود الـعرب ككل، أما البشر الذين وجدوا فى فـلسطين فهؤلاء مهاجـرون من البلاد المجاورة (عناصر مـتحركة يمكن تحريكها مرة أخرى). ولذا فهؤلاء الذيـن يطالبون بأرض إسرائيل ليسوا سوى مدعين عرب وإرهابيين فلسطينين. وهو يختم مـقاله بعبارة تصل إلي البنية التحتية لكل الأفكار الـصهيونية: «إذا انتصر الـعرب فى الحرب فإن الدمار سيـلحق شعب إسرائيل كله، أما إذا انتصرت إسرائيل فسـيكون على العرب الرضوخ للأمر الواقع وتقبل إسرائيل».

ويلاحظ أن حل الـصراع العربى ـ الصهيـونى من المنظور الاسرائيـلى لايتم إلا من خلال الـصراع المسلـح ـ الانتصار أو الهـزيمة والخضوع للـشروط الإسرائيـليه وللسلام على الطريقة الاسرائيلية.

الاعتدال الإسرائيلى

أما الـنموذج الثالث فـيمثله مـئير بعيـل وهو من نشيـطى مابام، ومن المـنادين بالصهيونية ذات الديباجة اليسارية. وأطروحاته العقائدية وإطاره التاريخى لايختلفان عن أطروحات وإطار كاتس، فهو يعرّف الحركة الصـهيونية بأنها حركة تحرر وطنى، أي حركة تغـييب للفلـسطينيين. وقد امـتازت الصهيونـية «بأنها ضمـت يهوداً من مختـلف الاتجاهات والمـيول الذين رأوا بـأعينهم هـدفاً مشتـركاً وهو جمـع شتات الشعـب اليهودى وبنـاء أمة يهودية مـتجددة على أسـاس العمل العـبرى فى أرض إسرائيل». فبعـيل ينطلق إذاً من الإيمان بأن للـشعب اليهودي حقوقاً تاريـخية كاملة

فى أرض إسرائيل. ثم يفسر بعيل وجود الشعب الفلسطينى فى أرض فلسطين على أساس صهيونى. «فلولا قيام الحركة الصهو نية لما ظهر الفرع الفلسطينى التابع للحركة القومية العربية. ويمكن الاعتقاد بأن مجىء اليهود الى أرض أسرائيل واستيطانهم فيها كان هو الحافز الذى أدى إلى نشوء الكيان الفلسطينى». بل إنه يؤكد أنه «من الصعب أن نتصور اليوم كيف كانت ستبدو الأوضاع فى أرض إسرائيل لو لم يتحقق فيها الفكر الصهيونى».

فوجود الفلسطينيين - حسب تصوره- عرضى، ولكنه ـ وهنا مصدر الاختلاف بينه وبين كاتس ـ ليس بالضرورة زائل، فهو يرى أن بعض الصهاينة قد اعترفوا بحقوق الشعب الفلسطينى «بصفته يمتلك حقوقا طبيعية فى بلاده». ولا ندرى ماهو الفارق بين حقوق اليهود التاريخية وحقوق العرب الطبيعية،ولكن مايهمنا فى سياق هذا المقال أن ثمة اعترافاً ما بوجود العرب وبحقوقهم. وهذا الاعتراف نابع من خوف عميق أن العنصر الفلسطينى داخل الدولة الصهيونية يهدد هويتها اليهودية ويهدد الطبيعة الإحلالية للكيان الصهيونى، بل إن بعيل يطرح السيناريو التالى: «هناك مخاوف من أنه إذا استمرت سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة سوف تشتد حدة المقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلى، لتصل حمى المقاومة إلى العرب الإسرائيليين المقيمين فى المثلث الصغير وفى الجليل بحيث يطلب عرب إسرائيل بعد جيل أو جيلين الانضمام إلى المطالبين بحق تقرير المصير للفلسطينيين».

ولكن كيف يمكن التصدى لهذا التيار ولتلك الحمى؟ يرى بعيل «أن ذلك يتم من خلال إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل. . وكلما سارعت إسرائيل فى تقديم مبادرة السلام المقترحة للشعب الفلسطينى كلما كان أفضل لها». ثم يأتى بعد ذلك بحشد هائل من التفاصيل عن الجمارك والكهرباء وعن ارتباط الدولة الجديدة بالأردن، اذ لابد وأن تولد الدولة مقيدة، ليس لها من الدولة غير الاسم.

ارض فى مقابل السلام

ويمكننا اختيار شلومو افنيرى كمثال على النموذج الثانى. وافنيرى من كبار المفكرين الاسرائيليين وشغل منصب مدير عام وزارة الخارجية فى حكومة العمال بين عامى ٧٦ ـ ١٩٧٧. وهو يتحدث أيضا عن أرض إسرائيل ذات التراث اليهودى المجيد وأرض الخلاص بالنسبة لليهود. والصهيونية هى الحركة القومية اليهودية التى ستقوم بعملية الخلاص هذه (وهو فى واقع الأمر تخليص الأرض وتغييب أصحابها الأصليين، أى العرب). وهو يرى أن المطالب الصهيونية فى كافة مناطق أرض إسرائيل مطالب عادلة، ولكن الحركة الصهيونية رضخت لقرار التقسيم لأن «أحداً فى العالم لم يكن يؤيد المطالب اليهودية». ثم يضيف إلى هذا ديباجات أخلاقيه عن «أن الصهيونية تجد صعوبة فى المطالبة بحق تقرير المصير لنفسها، ومعارضة منع هذا الحق لفئة سكانية أخري». ويسمي افنيرى نفسه بأنه من اتباع الصهيونية السوسيولوجية (فى مقابل صهيونية الأراضى) وصهيونيته تهتم بالطابع اليهودى للدولة، أما صهيونية كاتس فهى تركز اهتمامها على ضم الأراضى، ومن هنا حديث «المعتدلين» عن الأرض فى مقابل السلام. ولكن مهما كانت الأسباب، (الضغوط الدولية أم عذاب الضمير الصهيونى أم الخوف على الطابع اليهودى للدولة) فإن افنيرى يطرح الحل التالى الذى يسميه حلاً وسطا : «لا دولة إسرائيل الكاملة ولا دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة، بل استعداد بعيد الأثر لقبول الحل الوسط فى إطار حل أردنى ـ فلسطينى». ولعل هذه النماذج الثلاث تغطى كل الاتجاهات السياسية الاسرائيلية تجاه الدولة، مع اختلاف طفيف فى الديباجات، فجوش إيمونيم والليكود ينتميان للنموذج الأول بينما تنتمى بعض الأحزاب الصغيرة الليبرالية ومابام للنموذج الثالث، وينتمى المعراخ للنموذج الثانى.

خصوصية الإدراك الإسرائيلى

بعد أن رسمنا خريطة الإدراك الإسرائيلى لفكرة الدولة الفلسطينية وارتباطها برؤية الذات ورؤية الآخر لابد وأن نوضح بعض النقاط الأساسية، كمحاولة لتوضيح المزيد من الأبعاد الخصوصية:

١ ـ يُلاحظ أن جميع الصيغ الصهيونية، المتطرف منها والمعتدل، اليمينى منها واليسارى، لايتوجه البتة لقضية الفلسطينيين الذين طُردوا عام ١٩٤٨ واستوطنوا سوريا ولبنان والأردن ومصر وأنحاء أخرى متفرقة من أنحاء العالم العربى، وهو لايذكر بتاتا قضية الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوقهم في حيفا ويافا وعكا وكل بقعة فى أرض فلسطين المحتلة والذين صدر قرار من هيئة الأمم لتأكيد حقهم فى العودة إلى ديارهم أو التعويض لمن لايريد العودة.

٢ـ لايتحدث الصهاينة البتة عن الأراضى خلف الخط الأخضر التى خصصها قرار التقسيم للفلسطينيين مثل الجليل وغيرها من المناطق. وهكذا حول الخطاب الصهيونى الخط الأخضر إلى مطلق صهيونى جديد لا يأتيه الباطل من بين يديهِ ولا من خلفه، وعلينا الرضوخ والقبول. وهذا أيضاً أمر منطقى ومفهوم، فالتفاوض بشأن الأراضى فيما وراء الخط الأخضر وبشأن حق العرب فى السكنى فى فلسطين المحتلة قبل ١٩٤٨ هو فى واقع الأمر تفاوض بشأن فك الكيان الصهيونى. وعلينا أن نعى ذلك تماما، فعدونا يعيه وإن كان لايتحدث عنه.

٣ ـ يلاحظ أن كل الحلول مبنية على فكرة القسر والرضوخ، وأن أحد الأطراف سيضطر الطرف الآخر للتسليم بوجهة نظره. فالصهاينة يرون أن رؤيتهم للتاريخ هى الرؤية الوحيدة السليمة التى لايمكن التراجع عنها على مستوى العقيدة حتى لو تم التراجع عنها على مستوى الإجراءات البرجماتية. وقد لخص ذلك الموقف أهارون ياريف بقوله: «الصهيونية هى حركة التحرر الوطنى للشعب اليهودى. .

اصطدمت بالحركة القومية العربية عامة والحركة القومية الفلسطينية خاصة». ولكنه يضيف: «إن أقوالى هذه لاتنطوى على تنازل أو استعداد للتنازل عما نعتبره حقنا التاريخى فى إرتس يسرائيل وفى علاقتنا التاريخية بها». هذا الموقف المبدئى السائد فى صفوف الجميع يخلق استعداداً كامناً دائماً لدى كل الصهاينة، مهما كان موقعهم على خريطة المتصل الإدراكى السياسى، أن ينزلقوا دائما نحو تغييب العرب وإنكار حقهم فى إنشاء دولة حقيقية خاصة بهم إن سنحت الظروف، كما أنه يضفى صيغة الشرعية على موقف دعاة إسرائيل الكبرى. فالأصل فى الموقف الصهيونى هو ابتلاع كل الأرض وتغييب كل العرب، والاستثناء هو المرونة والاستعداد للتفاوض بشأن الأرض خارج الخط الأخضر وبشأن الفلسطينيين خارجه. ولعل هذا يفسر كيف أن الاستيطان الصهيونى فى الضفة الغربية قد بدأ إبان حكم العمال المعتدلين وأنهم اعتمدوا ملايين الدولارات لإنشاء مستوطنات هناك فى نفس الأرض التى بدأ بيريز بالإعلان عن استعداده للتنازل عنها فى مقابل السلام.

٤ ـ لابد وأن نحدد خصوصية علاقة الإدراك الاسرائيلى للفلسطينيين ولفكرة الدولة الفلسطينية بالسلوك الاسرائيلى، فهى علاقة مركبة لأقصى حد، تختلف عن علاقة إدراك العربى للدولة الصهيونية وسلوكه نحوها، اذ أن محددات سلوك العربى نحو الدولة الصهيونية مختلفة عن محددات سلوك الصهيونى نحو الدولة الفلسطينية:

أ ـ ومن أهم العناصر التى يجب ذكرها ابتداء أن الحركة الصهيونية منذ نشأتها حركة تفتقد إلى الجماهير، فهى رأس دون جسد، ورؤية دون تجسد، وهذا يعود لأسباب تاريخية عديدة من أهمها أن الجماهير اليهودية فى شرق أوروبا آثرت الهجرة إلى الولايات المتحدة على الهجرة إلى فلسطين.

ولا تزال الحركة الصهيونية حتى الآن تعانى من هذه الظاهرة التى يعبرون عنها بعبارة «نضوب المصادر البشرية». ولكن مايهمنا فى هذا السياق أنه

بغياب الجماهير كان المنظِّرين الصهاينة يحددون أطروحاتهم النظرية دون أخذ الواقع التاريخى (سواء واقع الجماعات اليهودية فى العالم أو واقع فلسطين) فى الاعتبار. فنجد هرتزل يسجل عبارة «من النيل الى الفرات» فى مذكراته. ولكنه فى اليوم التالى يقبل بالتنازل عنها، ويرضى بصيغة برجماتية: «كلما زاد عدد المهاجرين تزداد رقعة الأرض التى نستولى عليها». ثم لم يكن عنده مانع من الانتقال إلى شرق أفريقيا. بل أن يورى افنيرى يرى أن التوسعية الصهيونية لم تعد مرتبطة بأى إدراك صهيونى أو مخطط رهيب أو غير رهيب، وإنما أصبحت مرتبطة بقوة إسرائيل الذاتية وبما يُطلب منها من القوة الاستعمارية التى ترعاها. فما يحدد سلوك الصهاينة ليس إدراكهم أو رؤيتهم وحسب وإنما أيضا وبالدرجة الأولى قدرتهم الذاتية المستمدة من الدعم الإمبريالى، ويمكن أن نضيف ومدى قوة أو ضعف العرب.

ب ـ اعتمدت الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية على دولة عظمى تضمن لها البقاء وتحقق لها الأمن نظير أن تقوم الدولة الصهيونية على رعاية مصالحها فى الشرق الأوسط. وقد ازداد اعتماد الدولة الصهيونية على الولايات المتحدة لدرجة غير عادية، حتى أنه يمكن القول أن الولايات المتحدة أصبحت طرفاً فى العقد الاجتماعى الذى يستند إليه التجمع الصهيونى. هذا يعنى أن الإدراك الصهيونى للدولة الفلسطينية ليس هو العنصر الوحيد الذى يحدد السلوك الصهيونى، فالولايات المتحدة، التى تقع خارج نطاق هذا الإدراك، تحدد سلوك الصهاينة بشكل قد يكون أكثر فعالية من الإدراك ذاته.

لكل ماتقدم يجب أن نكون فى منتهى الحذر حين نرصد التغيرات التى تدخل على الإدراك الصهيونى لفكرة الدولة الفلسطينية. فما يقال له تشدداً قد لايكون تشدداً على الإطلاق،وما يسمى بالاعتدال قد لايكون إلا تعبيراً عن الثقة بالنفس والصلف. بل إننى أعتقد أن تصاعد الضغط العربى على الجيب الصهيونى سيؤدى

إلى التشدد في بداية الأمر، فهذه هي طبيعة المجتمعات التي تستند الى رؤية فاشية، فهي تزداد صلابة وتمركزاً وتحجراً مع تزايد ضغط التاريخ على الأسطورة. ولكن هذا التشدد في حد ذاته قد يكون مؤشراً على تزايد التوترات داخل الكيان، وبالتالي احتمال ترشيده أو ترشيد بعض القطاعات داخله. والعكس صحيح، فحينما يركن العرب للنوم ويخلدون للراحة ويظهرون استعداداً للمرونة والاستسلام للسلام بالشروط الصهيونيه فإن العدو على استعداد لأن يمنحنا بعض الحقوق المدنية ويظهر تفهماً لبعض «مطالبنا العادلة» مثل حرية لعب كرة السلة أو كرة الطاولة أو أية كرة نشاء داخل ملاعب حرة مستقلة تابعة لبلديات فلسطين لا مخالب لها ولا أظافر.

فالاعتدال الصهيوني قد يكون مؤشراً على التخاذل العربي، اذ لا يمكن الاعتدال مع العربي الحقيقي، أما هذا الكم الهامشي المهمل الذي يقف على عتبات العدو يطلب منه الغفران والرضا، ويتحدث عن سنغافورة باعتبارها المثل الأعلى، في حالة هي أقرب الى الغياب منها إلى الحضور، فهذا يمكن ممارسة التسامح والاعتدال معه.

---

(١) كل النصوص مستقاة من كتاب **هل يوجد حل للقضية الفلسطينية؟** الذي أعدة معهد فانلير في اسرائيل، ونشرته دار الجليل ترجمته في عمان (الاردن)، ١٩٨٦.

٢- الإدراك الإسرائيلى للانتفاضة

فى الفصول الأولى لهذا الكتاب حاولت تقديم خريطة الإسرائيليين الإدراكية للعرب وتأخذ هذه الخريطة - كما أسلفنا- شكل طيف إدراكى يبدأ بالعربى الحقيقى الذى يزرع ويحصد ويقاتل ويخلق أشكالاً حضارية. ثم تتحرك الخريطة نحو درجات متزايدة من التجريد ابتداء من العربى المتخلف إلى العربى ممثلا للاغيار مسئولا عن كل ما حاق باليهود من مآسى ووصولاً إلى محاولة تهميش (ومن ثم تهشيم) العربى، وفى نهاية الأمر تغييبه تماماً -عملاً بالمقولة الاستيطانية الإحلالية: أرض بلا شعب. وكما يرى القارئ لم أقنع باستيراد مقولات العنصرية الغربية الإدراكية وطبقتها على الصهيونية ولم أحاول أن أدلل على أنها «عنصرية» وحسب، وإنما حاولت أن أصوغ مصطلحات عديدة تتماثل مع ما أسميه «المنحنى الخاص للظاهرة»، أى سماتها الخاصة المتعينة كما أدركها وكما أخبرها لا كما يتفق مع إدراك عمومى مجرد. والظاهرة التى أمامنا ليست ظاهرة استعمارية وحسب ولا حتى استيطانية وحسب وإنما هى أيضاً ظاهرة إحلالية تستخدم اعتذاريات أو ديباجات يهودية. ومجموعة المصطلحات التى استخدمتها فى دراستى الآنفة يمكنها التعبير عن استعمارية الصهيونية واستيطانيتها وإحلاليتها، وعن مزاعمها اليهودية أيضاً، وعن كيف يعبر كل هذا عن نفسه فى إستراتيجيات إدراكية واضحة.

الحجارة والإدراك

وإذا ما حاولنا أن نرصد استجابة المستوطنين الصهاينة للانتفاضة لقابلنا مرة أخرى النموذج المعرفى الغربى الذى يعبر عن نفسه فى هيكل المصطلحات، ولوجدنا أن هناك مقولتين اثنتين وحسب: الاعتدال والتشدد واللذان يشار لهما بالحمائم والصقور. وهذه طريقة متعسفة للغاية للرصد، ولعلها تعود إلى تبسيطات النموذج المادى الإدراكى الذى يحول الإنسان المركب إلى مادة بسيطة ثم ينظر لها من الخارج كما لو كانت مجرد حركة دون دوافع أو وعى. وتميل التصنيفات المادية

إلى تصنيف الواقع بأسره إلى سالب وموجب. وقد قام أحد كبار المعلقين السياسين العرب بكتابة مجموعة من المقالات عن أثر الانتفاضة على المستوطنين الصهاينة، فقام بحصر عدد المصابين في المستشفيات والجرحى وكمية الأحجار المستخدمه،وكأن هذا هو «الأثر» الذى أحدثته الانتفاضة، مع أنه فى دراسته هذه لم يزد عن تسجيل واقعة إلقاء الحجارة فى شكلها الخارجى -كحجر يخرج من يد عربى ويستقر على رأس إسرائيلى ، دون أن يذكر ماذا حدث للعربى (من إحساس بالانتصار) وكيف استجاب المستوطن الصهيونى لهذه الواقعة. وهى استجابة يمكن أن تأخذ شكل تشدد أو اعتدال أو تشدد على يخفى اعتدالاً فعلياً أو خوفاً يدفعه للفرار أو رفضاً لاستيعاب الموقف. فالحجر فعل لا يحدد استجابة المصاب وإنما يحدده مركب من العناصر النفسية والتاريخية. إن عدد المصابين الاسرائيلين حقيقة مباشرة مصمته ليس لها دلالات حقيقية فى حد ذاتها - فالإنسان الذى يصاب بحجر فى رأسه يمكن أن ينهار ويمكن أن يتحول إلى وحش كاسر ويمكن أن ينال شيئاً من الحكمة والرشد حينما يرتطم الحجر برأسه. ومن الصعب أن يفى مصطلحان اثنان(حمائم وصقور) فى محاولة وصف هذه الاستجابات المتداخلة العديدة.

حمائم وصقور وطيور إدراكية اخرى

سأحاول توسيع هذا النموذج الإدراكى بما يتفق مع تركيبية الظاهرة الصهيونية وأضم للحمائم والصقور الدجاج والنعام (وتنويعات أخرى). والحمائم كما يقال مسالمة دئماً، والصقور يُفترض فيها أنها عدوانية شرسة. وأما الدجاج فهو -حسب رأى الخبراء -متخصص فى الهرب، ويجيد النعام فن دفن رأسه فى الرمال. وأعتقد أن النعام هو أكثر أنواع الطيور الإدراكية انتشاراً فى المستوطن الصهيونى خاصة بعد الانتفاضة، وإن كان لا يعدم الأمر وجود عدد كبير من الدجاج الذى يتحدث كالصقور، وتوجد قلة نادرة من الحمائم ليس لها وزن كبير (على عكس ما تصوره الاستعارة الشائعة)، وإن كان يوجد عدد كبير من الصقور التى تتحدث

كالحمائم. ويقول الدكتور قدرى حفنى: إن اليهود الشرقيين مثلاً هم حمائم تود أن تكون صقوراً لتثبت إخلاصها للنخبة الحاكمة الاشكنازية. وقد أسقط المعلقون السياسيون كل التدرجات والتداخلات من إدراكنا لأن نموذجهم المعرفى كان قاصراً ساذجاً يحوى مقولتين اثنتين تم استيرادهما من علم السياسة الغربى أو من الصحافة الغربية التى تتمتع باحترام شديد بينهم، ولذا لم نر الدجاج أو النعام ولا عشرات الطيور الإسرائيلية الأخرى القابعة التى تنتظر من يكتشفها ويرصدها، وقد أصبحنا وكأننا نتمى إلى واحد من تلك القبائل البدائية التى لا ترى سو ى لونين اثنين لأن لغتها لا تضم سوى كلمتين اثنتين للتعبير عن كل الألوان.

حمائم بالقوة

وقد وجهت صحيفة **حداشوت** سؤالاً إلى عدد من الإسرائيلين البارزين الذين يمثلون مختلف التيارات السياسية والثقافية. يقول السؤال: ماذا كنت تفعل لو كنت فلسطينياً؟ فجاء رد معظمهم بأنهم كانوا سيفعلون ما يفعله الفلسطينيون الآن، أى الانضمام للانتفاضة. بل وأضاف أحدهم أنه «كان سيفعل أكثر من ذلك بعشرة أضعاف، وقبل هذا الوقت بكثير. وكنت سأفعل ذلك فى ديزنجوف (أحد شوارع تل أبيب الرئيسية) بدلاً من نابلس. فهناك سيكون تأثيره أقوى». وهذا التصريح لا يؤدى بالضرورة إلى سلوك حمائمى، فموشيه ديان كان مدركاً تماماً «لعدالة» المطالب العربية، وأن العرب سيثورون حتماً ويقاتلون ضد الصهاينة .ولكن مثل هذا الإدراك لا يؤدى بالضرورة إلى الانحياز للمظلومين المتفضين، إذ ما يحدد السلوك النهائى ليس الإدراك وحسب -كما أسلفنا- وإنما موازين القوى أيضا ومجموعة هائلة من العناصر الأخرى المادية والمعنوية. فإن كان العربى ضعيفاً خاملاً، فإن إدراك «عدالة» مطالبه قد يؤدى إلى مزيد من التشدد لأن صاحب المطالب العادلة قد يتحرك فى أية لحظة للحصول عليها، ولذا لابد من ضربه بيد من حديد قبل أن يصبح قوياً وقبل فوات الأوان. وهذا هو موقف بن جوريون وجابوتنسكى وشلوموأرونسون وغيرهم. ولذا يمكن القول إن المثقفين الإسرائيلين الذى عبروا

عن تفهمهم لموقف العرب ليسوا «حمائم بالفعل» وإنما «هم حمائم بالقوة» بالمعنى الحرفى والفلسفى. وهذه الاستجابة الحمائمية محصورة فى أوساط المثقفين وبعض الشخصيات السياسية التى ليس لها وزن كبير، ولا أعتقد أنها تؤثر فى الرأى العام الإسرائيلى أو فى صنع القرار الإسرائيلى.

الدجاج

أما الدجاج فهو موجود بكثرة والحمد لله، مثل يائيل اسكيد الذى قرر فى صحيفة **الجير وساليم بوست** (٢٥ يناير ١٩٨٨): أنه «لا يذهب الآن أحد إلى غزة سوى الحمقى المستوطنين. ولا يذهب أحد إلى الضفة إلا بسبب وجيه، سبب وجيه للغاية. فنحن خائفون». وعملية «تدجين» المواطنين على يد جنرالات الحجارة لا تزال قائمة على قدم وساق. وكما قالت **الجيرو ساليم بوست** (٨ فبراير ١٩٨٨) إن المستوطنين يسافرون أقل الآن، ولا يتركون الأطفال بمفردهم ولا يخرجون إلا لأمور ضرورية. وقد صرح أحد الصحفيين فى صحيفة **حداشوت**: «إن العائلات اليهودية تشاهد جدلاً حاداً إذا ما أرادت السفر . وإذا ما سافر مستوطن وحده، فهو «مغامر» أما إذا اصطحب زوجته وأطفاله، فهو مجنون».

وتؤكد مستوطنة صهيونية أن بريق المستوطنات قد خفت وحينما تمر حافلة المستوطنين بجوار مخيم عاناتا (الفلسطينى) فإنها تسرع بطريقة مجنونة لتتحاشى الأحجار. وبدأ المستوطنون يسدلون الستائر ويغلقون المداخل بعد أن كانت المستوطنة تتمتع بجو انفتاحى بهيج. «إن الوضع -كما تقول السيدة -مخيف» خاصة وأنها تعرف أن الجنود الإسرائيليين أوقفوا مظاهرة من ٦٠٠ عربى كانت متجهة نحو المستوطنة. «ماذا كان يمكن أن يحدث لنا لو أن الجنود فشلوا فى إيقافهم؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لأطفالنا؟»

بلد كلها حدود

والخاصية «الدجاجية» للمستوطنين تظهر أحياناً فى محاولتهم الظهور بمظهر الصقور. فسائق الحافلة رقم ٢٥ (من القدس للضفة) يشيد بركابه من المستوطنين الذين لا يهلعون من الحجارة ويجيدون فن الاستجابة فهم كما يقول: «يتوقعون الهجوم فى أية لحظة، معتادين عليه». وعندما يبدأ الهجوم فهم يتصرفون «كالجنود المدربين، على ما يجب عمله» إذ ينبطحون فى أرض الحافلة. والصورة الكامنة هنا هى صورة إنسان قلق يتوقع الهجوم ويجيد فن الاختباء (**الجيرو ساليم بوست** ٨ فبراير ١٩٨٨).

ولنأخذ المستوطن ليمودى جنيان، كمثال آخر، فهو رجل عجوز، يهودى أرثوذكسى يعمل خياطاً، وهو صقر لاشك فيه يطالب بضرب العرب وتحطيمهم ثم يقول: «نحن نفعل ذلك عند الحدود. والأمر لا يختلف هنا (فى المناطق المحتلة) فتلك حدود، وهذه أيضاً حدود. كل البلد حدود» (**الهيرالد تريبيون** ٦ يناير ١٩٨٨). وإدراك هذا المستوطن العجوز لفلسطين المحتلة كبلد كلها حدود هو إدراك طريف للغاية يبين مدى الهلع والإحساس بعدم الأمن.

ومن أيسر الطرق لتحديد استجابة المستوطنين دراسات علماء النفس الإسرائيلين. وقد لاحظ بعض علماء النفس الأمريكين انتشار ما سموه بأعراض فيتنام بين جنود الإسرائيلين -وهو الإحساس بالإحباط لدخولهم فى حرب غير كريمة لا معنى لها، لا يمكنهم كسبها أو الانسحاب منها- فيهاجمهم اليمين الإسرائيلى لتقاعسهم ولعدم استخدامهم لمزيد من العنف، ويهاجمهم يهود العالم وبعض الحمائم الإسرائيليين لأنهم يحطمون عظام المنتفضين دون أن يطرحوا عليهم البديل. وقد ذكرت صحيفة **هآرتس** أن نسبة المستوطنين الصهاينة الذين يرتادون العيادات النفسية قد ارتفع ثلاث أضعاف بسبب القلق الذى أصابهم من جراء استمرار الانتفاضة (**الوطن** ٤أبريل ١٩٨٨). وقد عُقد اجتماع فى بلدية القدس لمناقشة هذه الظاهرة فأشار مدير إحدى المدارس الثانوية إلى خوف المعلمين من

الوصول إلى مدارسهم «بسبب خوفهم الشديد من تساقط الحجارة على الحافلات وعلى رؤوس الركاب». «كما عبر مدير مدرسة آخر عن خوفه من تسرب هذا الخوف والمرض النفسى من المعلمين والطلبة ليشمل كافة الصهاينة فى الأراضى المحتلة» (الوطن ٤أبريل ١٩٨٨). وعلى كل ليس من السهل رصد استجابات المستوطنين ومخاوفهم بالطريقة التقليدية فقد جاء فى الجيروساليم بوست أن أحد علماء النفس الإسرائيلين صرح أنه بعد ٤٠ عاماً من الاحتلال لم تظهر أية حالات بين المرضى النفسيين تعبر عن قلقها من العرب، وكأن عملية الكبت كاملة نظراً لأن التهديد العربى كامل، ولا يمكن للجهاز العصبى للمستوطن الصهيونى أن يواجه العربى بشكل مباشر ولو على مستوى اللاوعى. وعلى كل من يحب أن يعترف أنه دجاجة؟ ولذا فمن الواضح أن نتائج بحوث الدراسات الإسرائيلية هى نتائج استخلصها الباحثون وجردوها من أقوال المرضى الذين أبى معظمهم أن يعين العرب كمصدر لمخاوفه.

النعام

أن يرفض المرء أن يكون «دجاجة» فهذه مسألة إرادية واعية، ولكن أن يتحول المستوطن إلى نعامة فهذا أمر يتم رغم إرادته، ولا يلاحظها هو وإنما يلاحظها الباحث الذى ينظر إليه من الخارج.

والنعام فى المستوطن الصهيونى، كما أشرنا، كثير، مثل جاباى صاحب مطعم صغير فى مستوطنة بيسجاب زئيف الذى أسكت خوفه بقوله: «أهم الأشياء الآن أن نوقف العنف من الطرفين وأن نجلس سوياً ونشرب القهوة ونحل مشاكلنا كبشر»، وهو لم يتحدث قط عن طريق التوصل لهذا السلام وكيف سيمكن الوصول لتسوية ما (الجيرو ساليم بوست ٢٠ فبراير ١٩٨٨ العدد الدولى).

وقد حدد أحد الضباط الإسرائيليين هذا الموقف النعامى بدقة بالغة حين صرح لصحيفة حداشوت أن اختفاء ظاهرة الانتفاضة الشعبية الفلسطينية بعصى سحرية (أى على طريقة النعام) هو مجرد تعبير عن آمال وأوهام يجب أن يستيقظ منها الإسرائيليون (بدلاً من دفن رؤوسهم فى الرمل أو فى أرض فلسطين).

ولعل هذه العصا السحرية توجد فى أحد مبانى حزب الليكود، إذ أن شارون يقول: «إن الانتفاضة سوف تنتهى فور وصول الليكود إلى السلطة فى نهاية لعام» (الشرق الأوسط «لعبة الحبل بين عسكر إسرائيل وسياسييها» ١٢ يوليو ١٩٨٨). ولكن شارون يعنى بطبيعة الحال حمّامات الدم غير السحرية. ولكن حتى لا نصنفه نعامة كان عليه أن يقدم لنا الإجراءات، لأن حمامات الدم تؤدى أحياناً إلى تصعيد الانتفاضات والثورات، كما يعرف الأمريكيون عن فيتنام والفرنسيون عن الجزائر..

وقد وصف دانيال جفرون إدراك النعام هذا فى مقال فى الجيرو ساليم بوست (٦فبراير ١٩٨٨) بعنوان «لماذا الانسحاب من جانب واحد هو المخرج الوحيد» فقال: «إن المسئولين [النعام فى مصطلحنا] يظنون أنهم سيحصلون على كل شئ دون مقابل: حدود آمنة، وعمق استراتيجى، وعمالة رخيصة، وسوق مقصورة عليه، وأرض لتدريب الجيش الإسرائيلى، وتجاهل العداوة العربية المستمرة. [لكن] ازدياد التمرد بين العرب وتدهور المجتمع الإسرائيلى الأخلاقى وتآكل وضعه الدولى» يدل على استحالة هذا. وبعد الانتفاضة ترجم إدراك النعام نفسه إلى تركيز على الجانب الفنى لقمع الانتفاضة كما لو كانت المسألة مجرد إجراءات يتم تنفيذها أو خطوات يتم اتخاذها بحيث تتحول القضية برمتها إلى مسألة إجرائية. (هل الرصاص المطاطى ومدافع المياه كفيل بالقضاء على الانتفاضة أم لا؟) دون التوجه للأسئلة النهائية. وقد اشتكى شمعون بيريز من أن الوزارة الإسرائيلية تتحلى بنفس الموقف الذى نسميه بالنعامى فهى تناقش النقط الدقيقة الفنية الخاصة بإجراءات الأمن وطريقة التصدى للانتفاضة وتتجاهل تماماً الحلول السياسية اللازمة. وأضاف: «فى المستقبل حينما يقرأ أحد محاضر جلسات الوزارة فإنه لن يصدق عينيه» (النيويورك تايمز ٣١ يناير ١٩٨٨).

وقد كتب ب. مايكيل فى هارتس (ملحق الجمعة ١٨ ديسمبر ١٩٨٧) مقالاً بعنوان«عيد ميلاد سعيد» وصف فيه بشكل كوميدى إدراك النعام هذا. فقال: «الحمد لله أصدرت الحكومة بياناً أكدت فيه أنه لا يوجد عصيان مدنى فى

إسرائيل». وقد اقترح الكاتب إصدار قانون باسم «قانون غياب العصيان» يقضى بمعاقبة كل من تسول له نفسه أن يدعى أو يكتب أو حتى أن يلمح بأن هناك عصياناً مدنياً». ولكن مع هذا تبقى مشكلة صغيرة وهى-ماذا يحدث هناك إذن فى المناطق المحررة من أرض إسرائيل؟». ثم يحاول الكاتب أن يصف الانتفاضة بطريقة كوميدية تقرر ما يحدث وتنكره فى ذات الوقت، أى يقول الشئ وعكسه: «ثمة مجموعات من الأطفال المدربين بعناية الذين يفتقدون إلى المبادرة، يتصرفون بتلقائية ويتم توجيههم من الخارج من قبل المنظمات الإرهابية التى لم تنجح فى اختراق المناطق؛ بسبب المعركة المستمرة التى خاضتها قوات الأمن ضدهم. ولذا يمكن أن نقرر أن هذه المنظمات وحدها وراء هذه الانتفاضة التلقائية، التى تظهر وراءها بوضوح اليد الموجهة والتى يدل وجودها على فشل منظمة التحرير الفلسطينية أن تكسب دعم الجماهير المحلية القانعة بالاحتلال الإسرائيلى لو تركت وشأنها، فالاضطرابات ليست سوى حدث عابر مستمر -ولكنها ليست عصياناً مدنياً».

إن إدراك النعام هو العنصرية الصهيونية مقلوبة حرفياً على رأسها، فالعنصرية الصهيونية تعبير عن الرغبة الصهيونية فى إحلال العنصر اليهودى محل العرب. ولذا فهى تهدف إلى تغييب العرب، ولكن إن عاد العربى بهذا العنف، وإن ظهر على شاشة الوعى ورفض الغياب، فما العمل إذن، وما الحل؟ الحل النعامى -بطبيعة الحال- أن يدفن المستوطن رأسه فى الرمل فيغيب العربى مرة أخرى. ولكن الأمور ليست بهذه البساطة هذه المرة: إذ أن العربى يمسك فى يده بحجر -والحجر يؤلم ويجرح وقد يقتل.

الصقور

وإذا انتقلنا إلى الصقور فحدث ولا حرج، فهم كثيرون، فرئيس الوزراء الإسرائيلى صرح (تايم ٣ يناير ١٩٨٨) بأنه لا توجد قوة فى العالم «لا المتظاهرون ولا الإرهابيون ولا الضغط يمكنها أن تمنع إسرائيل من الاستيطان فى كل أجزاء

أرض فلسطين، وغنى عن القول أن عملية الاستيطان لا يمكن أن تتم عن طريق الحب والإخاء والإقناع الهادئ" فالعرب ولا شك غير موافقين أن تؤخذ أراضيهم. وقد أضاف شامير (فى النيويورك تايمز٣ أبريل ١٩٨١): أما أولئك الذين يقولون: إننا نحن الإسرائيلين غزاة، وإن قال مثيرو القلاقل والقتلة والإرهابيون: أنهم أصحاب الحقوق الحقيقية، فإننا نقول لهم من أعالى هذا الجبل ومنظور آلاف السنين من التاريخ: أنهم مجرد جراد بالقياس لنا، وكلنا يعرف ماذا يفعل بالجراد». فالاستعارة هنا تحوى داخلها مؤشرات نحو الإبادة. وقد صرح رابين (تايم ٤ يناير ١٩٨٨) بأن إسرائيل لم تستخدم كل أسلحتها بعد وأنها «ستعيد فرض الأمن حتى ولو كان موجعاً». وحسب تجربة الفلسطينين العرب، نجد أن الأمن الإسرائيلى دائماً موجع. وقد أشار رابين إلى بعض الطرق التى يجب استخدامها لفرض هذا الأمن الموجع. فقد حذر المتفضين أن كل من يتحدى إسرائيل «سيحطم رأسه على صخور هذه القلعة وحيطانها» (النيويورك تايمز ٣ أبريل ١٩٨٨).

وصرح إسحق مردخاى «إن قوات الأمن ستتخذ جميع الإجراءات اللازمة من أجل إعادة الأمن إلى نصابه. ولن تتوانى فى استعمال جميع الوسائل من أجل تحقيق هذ الهدف». وتلجأ القوات الإسرائيلية لكسر العظام وإطلاق النار وترحيل القواد خارج الوطن. بل إن الإبداع الصهيونى فى القمع بدأ يأخذ أشكالاً جديدة. فهناك ما يسمى «بحظر التجول النشط» («ليل العصى الطويلة» ليوئيل ماركوس هآرتس ٢٦ يناير ١٩٨٨) ويتلخص فى اقتحام المنازل فى الظلام أثناء حظر التجول حيث يجرى الجنود الصهاينة تفتيشاً عنيفاً داخل البيوت وينهالون بالضرب على رب العائلة والإبن الأكبر.

وقد علل قائد الجيش هذا الأسلوب الجديد فى القمع بأنه محاولة لإعادة بث الرعب من الجيش فى قلوب الفلسطينين، فالهدف ليس النظام الخارجى وحسب، وإنما إعادة الثقة الذاتية للجنود، بعد أن أصبحوا أضحوكة طوال أسابيع. ويبدو أن اجتياح لبنان الأخير («عملية القانون والنظام» كما يسميها الإسرائيليون) تهدف إلى

نفس الشئ. فقد وصفت الصنداي تايمز هذه الحملة بأنها تشكل محاولة من جانب إسرائيل لاستعادة زمام المبادرة بعرض عضلاتها وإظهار أنها عادت إلى مقعد السائق. وقال مردخاي غور: «سيذكّر الاجتياح سكان الأراضى المحتلة بأن الجيش ليس مفككاً» (القبس ١٠ مايو ١٩٨٨)، لقد أدرك العدوّ أنها معركة هوية.

وقد اقترح شلومو جاريت (رئيس المخابرات الأسبق) أنه يجب عدم الاكتفاء بهدم منزل الإرهابي كعقوبة، بل يجب هدم كل شئ في محيط قطره ٢٠٠-٤٠٠ متر من منزله (حداشوت ١٠ يناير ١٩٨٨). أما وزير الأديان وزعيم الحزب الدينى «المفدال» فقد أكد أنه يتعين على قوات الشرطة الاسرائيلية إزالة قرية بيتا في قضاء نابلس من على وجه الأرض تماما وإقامة مستوطنة تحمل اسم الفتاة اليهودية التي قتلت فوق أنقاضها، ويجب أيضاً طرد وإبعاد مئات المواطنين العرب من سكان القرية» (الوطن ٢٤ أبريل ١٩٨٨).

وقد أدرك رفائيل أيتان، عضو الكنيست الحالى، ورئيس أركان القوات المسلحة الإسرائيلية الأسبق بأن الانتفاضة هي الطلقة الأولى فى الحرب القادمة، وعلق على دجاجية الجنود الإسرائيلين وكيف يولون الأدبار أمام الأحجار، وكيف ينظر العالم كله ليرى ذلك المنظر: «وينظر إلى جيش ضعيف وحكومة ممزقة ولا تعمل». وقد قرر إيتان أن يقدم اقتراحاته للقضاء على الانتفاضة، وهى تتسم بكل تبسيطات النماذج المادية العملية: «فإذا أشعل العرب إطاراً فى شارع رئيسى فيتم جر هذا الإطار إلى أقرب بيت في المنطقة من مكان اشتعاله. وخلال ثوانٍ يخرج سكان البيت ويطفئوا الإطار؛ لأنه سيؤدي إلى حرق بيتهم إذا لم يفعلوا ذلك». واقترح أن تُمنع السيارات العربية من السير فى الشارع المغلق بوساطة حاجز من الحجارة لمدة شهرين. وهذا لا يحتاج جيشاً كاملاً بل شرطيين يقفان على حافة الطريق. وأشار إيتان إلى حقيقة هامة وهو أنه بين عام ١٩٦٧و١٩٧٧ تم إبعاد (أى تغييب) ٨٠٠ عربي محرض، (أثناء حكم المعراخ المعتدل) ويجب إبعاد ٤٠٠ - ٥٠٠ محرض، بل وإبعاد أمهاتهم وأبناء عائلاتهم. ولايوجد أى إبداع قمعى فى

اقتراحات إيتان. وعلى كل من يود أن يحصل على اقتراحات مماثلة أن يدرس تاريخ الإرهاب النازى وسيجد أفكاراً أكثر إبداعاً وأكثر منهجية وأعلى كفاءة، فمفهوم العقاب الجماعى ليس من اختراع الصهاينة وإنما هى ممارسه استعمارية غربية قديمة وتقليد راسخ.

التشدد اللفظى

ويغوص المستوطنون أيضاً فى التشدد، فمنهم من يرى ضرورة ضم القطاع والضفة تماماً. وكما قالت جريدة **فرانكفورتر الجماينة**: «إن معظم الإسرائيلين مع خط شامير المتشدد»، وإن «هدفهم إنهاء الوجود العربى فى فلسطين»، وعندما وقع حادث بيتا (حينما وقعت مستوطنة صهيونية صغيرة صريعة رصاص المستوطنين وأشيع أنها رجمت بالحجارة) «طالب المستوطنون اليهود بتدمير قرية بيتا على رؤوس سكانها وتسوية القرية بالأرض. وشطبها نهائياً من الخريطة حتى تكون عبرة للغير» (القبس ٢٢ أبريل ١٩٨٨). ومن المستوطنين من يرى ضرورة تسوية الحساب مع العرب كما سواه الأمريكيون مع الهنود الحمر، على شرط أن يتم ذلك بعيداً عن عدسات التليفزيون (تايم ٤أبريل ١٩٨٨).

وتبين إحدى إستطلاعات الرأى التى تُنشر فى الصحف والمجلات ويلتهمها المحللون والمعقبون العرب وغير العرب أن ٤٨٪ من الإسرائيلين يرون ضرورة منح العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية و٣٢٪ غير متأكدين، ولم يوافق سوى ٢٠٪ على إعطائهم الحقوق الكاملة. وكان موقفهم المتشدد هذا نتيجة إدراكهم أنه لو احتفظت إسرائيل بالأراضى المحتلة فإن العرب سيصبحون أغلبية (وهذ إدراك ٧٧٪ بينما لم ير ١٦٪ ذلك). (نيويورك تايمز ٢٥ يناير ١٩٨٨).

لقد اقتبسنا حتى الآن كلمات الصهاينة المتشددة وحسب، ولكن يجب أن نفرق بين الأقوال والأفعال. فالأقوال لا تعبر عن الموقف المتكامل وإنما تعبر عن تشدد الإنسان اللفظى وعن نيته وقصده وعن حالته العقلية -أى عن جزء من كل.

ولدراسة مدى تشدد الإسرائيليين الفعلي وفي كليته، علينا تجاوز النية والقصد والديباجات لنرصد عناصر أخرى مركبة تتجاوز إرادة القائل ذاته، فالتشدد اللفظي، أي الموقف الصقرى الكلامي، قد يكون أحياناً بمثابة غطاء لتغطية الموقف الدجاجي أو النعامي الفعلي.

خذ مثلاً رغبة إيتان أن يمنع مرور السيارات ويكتفي بجنديين يقفان على ناحية الشارع. هل درس إمكانية إلقاء الحجارة عليهما، وأن الجنديين سيحتاجان إلى فرقة عسكرية كاملة لحمايتهما؟ أما بخصوص ترحيل مئات القيادات، ألا يحتاج الأمر لآليات معينة وآلة قمعية معينة لأن قاعدة هؤلاء القادة في حالة استنفار؟ ولكن هذه الأسئلة تفترض أن صاحب الإقتراح عنده الصورة الكلية، والأمر ليس كذلك فالنموذج الإدراكي المادي يجتزئ مجموعة من الحقائق ويستبعد الحقائق الإنسانية والتاريخ، ولذا يتحول الصقر الهائج من منظور الممارسة إلى نعام مضحك. خذ مثلا رغبة هذا المستوطن الذي يود ذبح العرب وإبادتهم بعيداً عن كاميرات التليفزيون، تماماً كما فعل الأمريكان في تجربة استيطانية مماثلة، وهذه هي شهوة الصقور. ومع هذا بعد التدقيق، نجد أن موقفه هذا نعامي تماماً، فهو يعرف أن التجربة الأمريكية الاستيطانية الإحلالية تمت إبتداء من القرن السابع عشر في منطقة لم تكن فيها الكثافة السكانية كبيرة، تسكنها عدة «أمم» من الهنود، تتسم حضارتهم بعدم التركيب، رغم جمالها ورقتها، ومن هنا كان من السهل إبادتهم بعيداً عن عين التلفزيون الشيطانية. أما هذا المستوطن الصهيوني فقد تمت تجربته الاستيطانية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر في منطقة تعج بالسكان الذين تحيط بهم ملايين من إخوانهم وهم ينتمون لتراث حضاري قديم مركب. وعلاوة على كل هذا أصبح في وسعهم الآن الحوار مع الكاميرا وبكفاءة غير عادية، فالتشدد هنا هو من قبيل ما يمكن تسميته بالعادة السرية السياسية، والحلم بالمستحيل اللذيذ.

أما الذي يود إعطاء العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية رغم إدراكه أنهم أغلبية فهو لم يبين كيف يمكن تحقيق ذلك، ولعله لو طُرح عليه عدة أسئلة أخرى لظهرت التناقضات النعامية الكامنة.

ويجب أيضاً أن نرى التشدد باعتباره تعبيراً عن أزمة حقيقية وعميقة، فالصهاينة- كما أسلفنا- على استعداد لإظهار قدر كبير من التسامح حيال العربى إذا قبل هذا بالتطبيع وبأن يكون قطعة غيار للصهيونى يمكنه استخدامها وتوظيفها لصالحه. حينئذ يمكن أن يمنح العربى كثيراً من الحقوق المدنية وبعض الحقوق السياسية ويمكنه أن يلعب ما شاء من تنس الطاولة، أى أن يمارس هوايته إذا كان بلا هوية.

إن غاب العربى، وإن قنع وخنع أى لم يتحد الشرعية الصهيونية، فبوسع الصهيونى أن يتخذ موقفاً معتدلاً تجاه دجاج عربى مستأنس تم تطبيعه، أما إن تحول العربى إلى صقر ذى هوية يهاجم دفاعاً عنها فإن الاعتدال يختفى ويتخلى العدو عن ديمقراطيته الغربية المزعومة، ويضرب بيد من حديد، فالتشدد من هذا المنظور له مدلولات تختلف عما تود وسائل الإعلام الغربية نقله لنا.

الشخصية القومية الإسرائيلية

مع هذا نرى أنه من الضرورى أن نحكم على التشدد الإسرائيلى فى إطار أوسع بحيث نستخدم مؤشرات أخرى مثل نسبة النزوح كمؤشر على التراخى. فالمستوطن الذى يصيح ويطالب بإهلاك العرب ثم يجرى للسفارة الأمريكية فى اليوم التالى ليحصل على تأشيرة هجرة، هو فى واقع الأمر دجاجة فى ريش الصقور. وقد أشارت زوجتى إلى أن عزوف الإسرائيلين عن الإنجاب يصلح أيضاً كمؤشر آخر على مدى التشدد والتراخى، فإذا كانت المعركة «معركة بقاء» كما يقول الصهاينة، وأنا أوافقهم الرأى، فإن من ينجب أكثر هو صاحب العزم والعزيمة. ولينظر من يشاء للنساء الإسرائيليات وللمرأة الفلسطينية «النفوض» التى تنجب الأطفال فتدخل الفرحة على قلبى وتدخل الكآبة على قلب الحسود.

ويمكننا أيضاً أن نستخدم مؤشرات أكثر مباشرة إلى المستوطنين «الذين توقفوا عن إصلاح منازلهم أو توسيعها أو زراعة حدائقها لأن المستقبل لم يعد مؤكداً كما كان من قبل». (الأهرام ٢ فبراير ١٩٨٨ عبدالعظيم حماد ومحمد الحناوى «إنتفاضة الحجارة»).

إن التشدد إذن ينصرف إلى الصياغة اللفظية وحسب ولا يصلح كمؤشر على كل السلوك، فهو دال دون مدلول، أو دال جزئى وحسب. وهنا هل يمكننا القول -على طريقة علماء «الشخصية القومية»- إن تشدد الإسرائيلين اللفظى هذا ينم عن حبهم للألفاظ وأنهم يطربون للغة، وأن لغتهم -لأنها لغة قديمة متحجرة- تفرض عليهم صيغاً لفظية لا تعبر بالضرورة عن حقيقة موقفهم؟ وأنا لست من المتحمسين لقضية دراسة الشخصية القومية هذه (خاصة وأنها استخدمت كعصا لضرب الإنسان العربى فى العقود السابقة)، إذ أننى أرى أن سمات الإنسان القومية، إن وجدت وتم تعريفها، وهذه مسألة ليست مستحيلة ولكنها فى غاية الصعوبة، فإنها عبارة عن سمات محايدة يمكن توظيفها للنهوض أو للنكوص، للخير أو للشر، وهى سمات لا تؤدى إلى هذا الموقف أو ذاك بشكل حتمى. فالسمات فى حد ذاتها لا تصلح كنموذج تفسيرى لسلوك الإنسان، وإنما كمؤشر على استعداد كامن قد يتحقق وقد لا يتحقق. وأعتقد أن نفس الشئ ينطبق على الإسرائيلين، فلا يمكن القول أن الإسرائيلى شجاع بطبيعته أو أن اليهودى طماع بطبيعته وهكذا.

الإحساس بالدولة

ومع هذا نجد أن من أهم الاستجابات للانتفاضة تلك التى حاولت أن توجه النقد للشخصية القومية الإسرائيلية، وكأنهم يقولون لقد فشلنا فى تسويتها. وقد تناولت فى مكان آخر فكرة افتقاد السلطة، وهى أن اليهود عبر التاريخ لم يمارسوا قط السلطة السياسية. وقد بعث المعلقون الإسرائيليون مرة أخرى هذه الفكره وبدأوا فى انتقاد شخصيتهم القومية من هذا المنظور، باعتبارها شخصية تفتقد إلى «الإحساس بالدولة» وعدم المقدرة على استخدام السلطة. ومن أهم الشخصيات التى ذكرت هذا الموضوع عدة مرات هو إسرائيل هاريل، رئيس مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية والقطاع ورئيس مجلة نيكودا، لسان حال المستوطنين- فقد قال (فى مجلة نيوزويك ١٥فبراير ١٩٨٨) إن الإسرائيلين يتصرفون كاليهود الألمان فى

الكريستال نـايت أى ليله الكريستال (التى قـام النازيون فيها بمهاجمة ممتلكات يهود ألمانيـا وتحطيمهـا) «فالإنذارات فى كـل مكان بأن الكـارثة محدقة، ولـكننا أصبنا بالـشلل». وقـد أشار إلى مـا سماه الخـلل الأساسـى فى الشـخصيـة القومـية، فالإسرائيليون -حـسب تصوره- يفتقرون إلى الإحساس بأنهـم يشكلون دولة. ثم عقد مقارنة بينهم وبين الشـعوب الأخرى فقال: «فى أوربا أو فى أى مكان آخر لا يمكن التنازل عن المطالبة بـأرض لأن شعباً آخر يعيش فيها». (الجيروساليم بوست، إبراهام رابينوفتش: «سحب فوق السامرة» ٣٠ يناير ١٩٨٨).

وقد كرر يحزقـئيل درور نفس الفكرة تـقريباً فى الجيرو ساليم بوست (٢فبراير ١٩٨٨) إذ أكد أن «الشعب اليهودى» يفتقر إلى تقاليد الدولة، أى ممارسة الحكم، ويرى بعض المؤرخين أن هـذه عقبة كأداء فى بناء دولة إسرائيل، ممـا يدل على أنها إشكالية حقيقية بدأت تطل برأسها.

ومن أهم الشخصيات الـتى تخصصت فى الشخصية القومـية العربية وبين مدى قصورهـا وعمل مسـتشاراً للحـكومة الإسرائـيلية فـى الشئون العـربية يهـوشافط هركابـى، وبتغير موازيـن القوى نجد أنه حول مـبضع الجراح للـشخصية القـومية الإسرائيلية. فكرر ما قاله هاريل ودرور عن إخفاق الإسرائيلين فى فهم كيف يمكن للدولة أن تتصـرف تجاه الدول الأخرى، وفسر هذا الإخفاق علـى أساس أنه نقطة قصور كامنة فى التقاليد اليهودية (الجيرو ساليم بوست ١٩ فبراير ١٩٨٨).

الإسرائيليون الذاتيون والعرب الموضوعيون

ويذهب دور إلى أنه يمكن تعويض ذلك الافتقار إلى تقاليد الدولة، الذى تعيش فى ظلاله الشخصـية الإسرائيلية، عن طريق بذل جهد واع مـن جانب الإسرائيلين أن يفكروا من خـلال التاريخ (الجيرو ساليم بوست، ٢ فبـراير ١٩٨٨)، أى أن الافتقار إلى تقاليـد الدولة هو ما كنا سميناه فى أوائل السبـعينات رفض التاريخ أو الحلم بنـهاية التاريخ -أى أن يـعيش المرء داخل الأسطـورة الذاتية التى لا تـعكس

الواقع التاريخى بكل جدله ونتوئه ويجابه الواقع من خلال أحلامه وأوهامه وحسب. ويبدو أن هركابى هو الآخر يربط بين رفض التاريخ وهذه السمة فى الشخصية القومية الإسرائيلية وإن كان يستخدم مصطلحاً مختلفاً يسميه «إضفاء طابع ذاتى على عناصر النجاح». وهو يرى أن الحركة التصحيحية الصهيونية مصابة بهذا الداء أكثر من غيرها، إذ أن أتباعها كانوا يودون أن يقفزوا على الواقع للوصول إلى الدولة. ولكنه فى مكان آخر من المقال ذاته يعمم هذه المقولة على كل الصهاينة ويشير إلى أن العقل الإسرائيلى ككل مصاب بهذا المرض العضال فيقول: «إن مشكلة إسرائيل ليست سياسية دائماً -وإنما وراء سياسيه (ميتاسياسية)، وتكمن فى تشوه تفكيرها الأساسى: تمجيد الوهم، والقصور فى إدراك أن الواقع يتحدد بحدود الممكن، وأن ما هو غير واقعى لايوجد ولن يوجد، وتمجيد الإرادة الطوعية أو الإرادية (Voluntarism) كما لو كانت الإرادة وحدها كافية لتحقيق الأهداف. نحن نرفض معطيات الواقع دون أن ندرك أن للعدو إرادة لابد أن تؤخذ فى الحسبان، ونضع سياستنا بشكل مجرد حسب احتياجات الصهيونية كأننا نعيش فى فراغ [الأسطورة المعادية للتاريخ] ونتجاهل النظام العالمى والزمن ومتطلباتها من الآخرين. وكل هذا نابع من ضيق أفق يتعارض مع التاريخ «anachronistic»». هذا الوصف أى «فقدان الارتباط بالواقع» يبدو أنه «كتالوج» جاهز عند هركابى. فقد ذكر فى طى نقده للشخصية العربية أشياء من هذا القبيل. ولكن الطريف هذه المره أنه لا يكتفى بانتقاد الشخصية الإسرائيلية وإنما يرى أن الشخصية العربية لا يمكنها أن تسقط فى هذه الذاتية المعادية للتاريخ، ويقول: «إن العوامل الموضوعية التى يعبر عنها أعداد العرب الهائلة واتساع أرضهم قد أنقذتهم من الاضطرار للجوء للعناصر الذاتية لضمان النجاح؛ بكل ما يتضمن هذا من تشويه للواقع... إن الاتجاه العربى هو دائماً نحو التمثيل الزمنى للعناصر الموضوعية التى تضمن نجاحهم». وهذه الأقوال تفصلها مسافة شاسعة عما قاله عنا فى أواخر الستينات. لقد تغير إدراك خبير الشخصية القومية العربية مع تغير موازين القوى.

اعراض باركوخبا

هذا الانغماس فى الذاتية يعبر عن نفسه -من منظور هركابى- فى اتجاه انتحارى بين الإسرائيلين. فالقضية التى تواجههم ليست أن دولتهم ستتحول إلى دولة «أبارتهيد»،(تفرقه لونية) وإنما القضية هى «أننا لن نكون وحسب»؛ إذا ما استمروا متخندقين فى الأسطورة الخاصة. ويضرب هركابى مثلاً مشابهاً وهو ما حدث لليهود إثر التمرد اليهودى الثانى ضد الرومان (١٢٥ -١٣٢ ميلاديه). فأعضاء هذا التمرد دخلوا الحرب تدفعهم حمى ماشيحانية ترى أن نهاية الأيام (أو التاريخ) وشيكة. وقد أعلن بعض الحاخامات أن باركوخبا زعيم التمرد هو الماشياح (المسيح المخلص اليهودى الموعود). وبدون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان أعلن باركوخبا وأتباعه التمرد على روما فتم القضاء عليهم وعلى ثورتهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودى الهزيل فى فلسطين. ويسمى هركابى مرض الذاتية هذا الذى يؤدى إلى الانتحار، «أعراض باركوخبا» («الجيرو سالم بوست ٤ أبريل ١٩٨٨)، وهو ينصح الإسرائيلين بتغيير هذا الجانب من شخصيتهم القومية.

ولنلاحظ أن سمة قومية مثل الاتجاه الانتحارى كانت تستخدم فى الماضى لتهديدنا، والآن يبين واحد من كبار المفكرين الإسرائيلين أنها فى الواقع نقطة قصور، مما يبين أنها سمة محايدة وأعتقد أن ما يسميه هو «الاتجاه الانتحارى» هو ما أسميه أنا «الاتجاه النعامى»، وأعتقد أن الصورة التى استخدمتها أكثر دقة لأنها ليست متطرفة، ولأنها مرتبطة بصور إدراكية أخرى مثل صور الدجاج والنعام والصقور.

وقبل أن نختتم هذا الفصل قد يكون من المفيد أن نشير إلى صورة شمشونية إنتحارية أخرى، وهى صورة ماسادا. إذ كان يقال لنا أن ثمة نزعة إنتحارية عند الإسرائيلين: فإن تم محاصرتهم، فهم سيدمرون أنفسهم ويدمروننا معهم تماماً كما فعل شمشون وكما فعل أسلافهم فى قلعه ماسادا، حين رفضت جماعة يهودية

حاصرها الرومـان أن تستسلم لهم وفضلت الانتحار، وقد استخدمت هذه الصورة الإدراكية للذات الإسرائيليه لتخويفنا وإقناعنا بضرورة التعامل مع العدو بحذر.

وقد أثبتت الأبحاث التاريخية زيف واقعة ماسادا وأثبتت الوقائع التاريخية أن هذه الأسطورة لا تشكل إدراكاً حقيقياً للذات الإسرائيلية فإنهم يبدون كثيراً من المرونة والتكيف كما حدث أثناء حصار إحدى المواقع فى خط بارليف. فقد تحدث الجنود مع قيادتهم فى إسرائيل وقالوا ساخرين: «هل ننتحر على طريقة ماسادا؟» فكان الرد عملياً وواضحاً لا إبهام فيه: «لا داعى لهذا، المهم أن تظهروا بمظهر لائق أمام عدسات التليفزيون المصرى».

وقد حدث نفس الشئ أثناء الانتفاضة، لم يفكر الإسرائيليون فى هدم المعبد على رؤوسهم وعلى رؤوس العرب، وإنما ظهرت الدجاجة الكامنة داخلهم، لكنها أخذت هذه المرة شكل الطائرة المروحية الأمريكية. إذ يبدو أن من المناظر العالقة فى أذهان الإسرائيلين صورة آخر طائرة مروحية أمريكية تغادر «سايجون» بعد الهزيمة التى لحقت بالقوات الأمريكية، وقد تعلق بها الأمريكيون. وقد ورد ذكر هذه الطائرة الدجاجية على لسان عدة متحدثين صهاينة من بينهم شارون الذى أشار إلى أنه إن لم يصمد الإسرائيليون فستأتي الطائرات المروحية وسيستقلها الإسرائيليون من سطح السفارة الأمريكية، أى أن شمشون الجبار، هذا الصقر الرهيب، هو فى واقع الأمر دجاجة أو ربما ديك رومى يهرول بسرعة غير عادية نحو الدجاجة المروحية، وفى هذا فليفكر المهرولون.

وبعد، هذه محاولة لرصد إستجابات المستوطنين الصهاينة للإنتفاضة المباركة، وهى محاولة ترمى إلى تجاوز الثنائيات المتعارضة التى تسم النموذج الإدراكى الغربى (المادى البسيط) وتحاول أن تطرح بدلاً من ذلك نموذجاً أكثر تركيباً لأنه يستعيد الانسان الإنسان مرة أخرى ككائن حى: ظاهره غير باطنه، قوله غير فعله، وعيه غير لا وعيه، قصده غير سلوكه. هذا لايعنى الانفصال الكامل للواحد عن

الآخر فالظاهر يعبر عن جزء من الباطن، والقول يؤثر فى الفعل ويتأثر به، والوعى يتداخل مع اللاوعى، والقصد والسلوك يتفقان ويختلفان حسب الظروف والعوامل.

وهذا النموذج الإدراكى المركب المقترح هو وحده الذى يصلح كنقطة بدء لرصد سلوك العدو. ولعل مراكز البحوث العربية تنفض عنها التبسيطات المادية الإدراكية التى زرعت فى قلوبنا الهزيمة وشوهت رؤيتنا لأنفسنا وللآخر.

الفصل الثالث

فى الإدراك الغربى لليهود

١ - اليهودى كعنصر نافع داخل الحضارة الغربية

٢ - اليهودى كمسلم فى أفران الغاز

٣- الإدراك النازى لمفهوم الحكم الذاتى

٤- الإدراك الغربى والصهيوني لحروب الفرنجة (الصليبيين)

١ - اليهود كعنصر نافع داخل الحضارة الغربية

هل يصح أن نؤسس علاقتنا مع الآخرين من منظور مدى نفعهم لنا أو حتى للمجتمع ككل؟ لاشك أن مفهوم المنفعة، حتى بمعناها المادى الواحدى، مفهوم مهم للغاية، نستخدمه دائماً فى حياتنا اليوم فى علاقتنا مع كثير من البشر، ولكننا عادة لا نطبقه على من ندخل معهم فى علاقة إنسانية مباشرة (أولية) مثل علاقات القرابة والجيرة والأسرة. فنحن نستخدم هذا المفهوم مع من ندخل معهم فى علاقة موضوعية تعاقدية، مثل السكرتير أو مضيفة الطائرة. فمضيفة الطائرة إن لم تحضر لى طعامى فى الوقت المحدد له، وإن لم تحضر لى القهوة حينما أطلبها، وإن لم تخبرنى بمواعيد الأفلام، بل وإن لم تتصنع الرقة حينما تتحدث معى، فهى لا فائدة لها، ومن حقى أن أقدم شكوى لشركة الطيران، خاصة إذا ما كنت من ركاب الدرجة الأولى (وهى مرتبة تقترب إلى حد ما من الفردوس الأرضى). ولكن حينما نحكم بعدم النفع على شخص ما، فإننا ندرك أننا نتحدث عن جانب واحد من وجوده، وهو وظيفته، وهى الرقعة العامة التى التقى معه فيها. ومن ثم فنحن ندرك، أحياناً عن وعى ، وأحياناً أخرى بدون وعى، أن حكمنا لا ينصرف إلى إنسانيته الكلية المتعينة (كأب وابن يحب ويتعذب مثلنا). فمهما بلغ المرء من القسوة، فإنه لا يمكن أن يبلغ به التسطح درجة أن يظن أن الوظيفة هى الشخص، وأن أداءه لوظيفته هو وجوده وكينونته.

الشعب الشاهد

ومع هذا هناك ظاهرة الجماعة الوظيفة، وهى جماعة بشرية يستجلبها المجتمع لتضطلع بوظائف يأنف أعضاء المجتمع القيام بها لأنها مشينه (البغاء) أو لأنهم عاجزون عن القيام بها لأنها تتطلب أدوات وخبرات معينة (الطب وقطع الماس)، ولأسباب أخرى عديدة (الاعتبارات الأمنية) ، وعادة ما يُعرَّف عضو الجماعة الوظيفية فى ضوء الوظيفة التى يضطلع لها، وفى ضوء مدى نجاحه أو إخفاقه فى

أدائها، أى فى ضوء نفعه؛ هذا هو تعريفه وهذا هو إدراك مجتمع الأغلبية له. وقد كانت الجماعات اليهودية تضطلع بدور الجماعة الوظيفية (القتالية والاستيطانية والأمنية) في العصور القديمة، ثم تحولت إلى جماعات وظيفية تجارية في العصور الوسطى في الغرب - مادة بشرية نافعة يتم قبولها أو رفضها في إطار مدى النفع الذي سيعود على المجتمع من جراء وجودها فيه. ومما دعم من هذا الإدراك الغربي لليهود الرؤية المسيحية (الكاثوليكية) لهم باعتبارهم شعباً شاهداً، يدل وجودهم المتدنى على عظمة الكنيسة، ومن ثم ينبغى الحفاظ عليهم بسبب دورهم الذى يلعبونه فى الدراما الكونية الدينية. وقد سادت هذه الفكرة فى أوربا الكاثوليكية الإقطاعية، فاستقر اليهود فى انجلترا وفرنسا، فى العصور الوسطى الغربية، كأقنان بلاط(Servi Camerae regis) ومصدر نفع ودخل للإمبراطور وللطبقات الحاكمة التى كانت تستجلبهم وتوطنهم وتمنحهم المزايا والحماية والمواثيق. وكان يشار إلى اليهود أحياناً على أنهم سلع ومنقولات Chattel. وكانت المواثيق التى تمنح لهم من قبل الحكام الإقطاعيين تتحدث عن ملكية الحكام لهم (judaeos habere) وعن حق الحكام فى الاحتفاظ بهم (judaeos tenere). ويمكن القول أنه قد يكون من الأدق النظر إلى اليهود داخل الحضارة الغربية (خاصة فى العصور الوسطى) باعتبارهم أدوات إنتاج وإدارة ورأسمال لا باعتبارهم بشراً أو حتى قوى إنتاج (إن أردنا استخدام المصطلح الماركسى) وقد استقر اليهود فى ألمانيا ثم فى بولندا على نفس الأساس.

ومن أكثر الأمثلة أهمية (وطرافة) التى قد تساعدنا على فهم الطبيعة النفعية لعلاقة المجتمعات الغربية باليهود ما حدث لليهود فى شبه جزيرة أيبريا. فقد كانت توجد عناصر يهودية كثيرة فى بلاط فرديناند وإيزابيلا، وقد لعب أحد أثرياء اليهود دوراً مهماً فى عقد القران بينهما وتوحيد عرش قشطالة وأراجون . كما قام بعض أثرياء اليهود بتمويل حرب الملكين ضد المسلمين، مما أدى إلى هزيمتهم وإنهاء الحكم الإسلامى. ومع هذا تم طرد أعضاء الجماعات اليهودية بعد سبعة شهور فقط من

إنجاز هذه العملية العسكرية التي مولها بعضهم، ذلك أن نجاحها قد أدى إلى أن دورهم كجماعة وظيفية نافعة لم يعد لازماً.

العصر الحديث

هذا المفهوم الكامن فى الفكر الغربى الوسيط، ازداد انتشاراً وتواتراً ووضوحاً مع علمنة الحضارة الغربية، ويمكننا القول إن الرؤية الغربية لليهود فى العصر الحديث هى إعادة إنتاج لهذه الرؤية النفعية. ولكن يلاحظ إن الديباجات الدينية ازدادت خفوتاً (إلى أن تلاشت تماماً، إلا من بعض التصريحات المضحكة عن التراث المسيحى -اليهودى). ولقد كان وضع اليهود مستقراً تماماً داخل المجتمعات الغربية فى العصور الوسيطة كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح. ثم بدأ هذا الوضع فى التقلقل مع التحولات البنيوية العميقة التى خاضها المجتمع الغربى ابتداء من القرن السادس عشر وظهور الثورة التجارية، ولم يعد من الممكن الاستمرار فى الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية). فظهرت فكرة العقيدة الألفية أو الاسترجاعية (البروتستانتية) التى تجعل الخلاص المسيحى مشروطاً بعودة اليهود إلى فلسطين. ولكن هذه الأسطورة ذاتها رغم نفعيتها وماديتها الواضحة لا تزال مرتبطة بالخطاب الدينى، وكان لابد من أن يتم الدفاع عن اليهود على أسس لا دينية علمانية، كما كان لابد من طرح أسطورة شرعية جديدة ذات طابع أكثر علمانية ومادية.

ويلاحظ تراجع الديباجات الدينية وبروز مفهوم المنفعة المادية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. فتم الدفاع عن عودة اليهود إلى انجلترا من منظور النفع الذى سيجلبونه على الاقتصاد الإنجليزى، حيث نظر إليهم كما لو أنهم سلعة أو أداة إنتاج. وكان المدافعون عن توطين اليهود يتحدثون عن نقلهم على السفن الإنجليزية بما يتفق مع قانون الملاحة الذى صدر آنذاك، والذى جعل نقل السلع من انجلترا وإليها حكراً على السفن الإنجليزية. كما أن كرومويل فكر فى إمكانية توظيفهم لصالحه كجواسيس. وقد عمل اليهود فى تلك المرحلة فى وسط أوروبا

كيهود بلاط (أي جماعة من الوسطاء والخبراء التابعين بشكل مباشر للبلاط الملكي الذين يشرفون على مالية الدولة وجيوشها ومواردها وعلاقاتها الدولية) وكيهود أرندا في بولندا (مستأجرين لضياع النبلاء الإقطاعيين الغائبين في وارسو). وهذه كلها جماعات وظيفية وسيطة يستند وجودها أيضاً إلى مدى نفعها -ولذا تم طرد اليهود من هذه المجتمعات حينما لم يعد لهم من فائدة.

أوتاد ومسامير

ويبدو أن مفهوم نفع اليهود مفهوم متجذر في الوجدان الغربي تبناه الجميع، ولذا حينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور عدم نفعهم وضررهم، تبنى أعضاء الجماعات اليهودية نفس المنطق، فلم يدافعوا عن أنفسهم من منظور حقوقهم الأساسية والمطلقة كبشر، وإنما بينوا أن حقوقهم تستند إلى نفعهم. فكتب سيمون لوتساتو (١٥٨٣-١٦٦٣) وهو حاخام إيطالي مقالاً تحت عنوان «مقال عن يهود البندقية» عَدَّد فيه الفوائد الكثيرة التي يمكن أن تعود على البندقية وعلى غيرها من الدول من وراء وجود اليهود فيها، فهم يضطلعون بوظائف لايمكن لغيرهم الإضطلاع بها مثل التجارة. وهم يطورون فروعاً مختلفة من الاقتصاد. ولكنهم على عكس التجار الأجانب خاضعون لسلطة الدولة تماماً. ولا يبحثون عن المشاركة فيها. وهم يقومون بشراء العقارات، ومن ثم لا ينقلون أرباحهم خارج البلاد. إن اليهود من هذا المنظور يشبهون الرأسمال الأجنبي لابد من الحفاظ عليه والدفاع عنه. وقد تبنى الممول اليهودي الهولندي منسى بن إسرائيل نفس المنطق في خطابه لكرومويل، الذي طلب فيه السماح لليهود بالاستيطان في انجلترا. كذلك تبنى أصدقاء اليهود المنطق ذاته، فطالب جوسيا تشايلد رئيس شركة الهند الشرقية، عام ١٦٩٣ بإعطاء الجنسية لليهود الموجودين في انجلترا بالفعل، وأشار إلى أن هولندا قد فعلت ذلك، وازدهر اقتصادها بالتالي. كما كتب جون تولاند عام ١٧١٤ كتيبا مهماً للغاية عنوانه «الأسباب الداعية لمنح الجنسية لليهود الموجودين في بريطانيا العظمى وأيرلندا» دافع فيه عن نفع اليهود مستخدماً منطلقات لوتساتو.

ومن أهم المدافعين عن نفع اليهود الفيلسوف الفرنسى مونتسكيو، حيث بين أهمية دورهم فى العصور الوسطى فى الغرب، وكيف أن طرد اليهود ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم اضطرهم إلى اختراع خطاب التبادل لنقل أموالهم من بلد إلى آخر ومن ثم أصبحت ثروات التجار غير قابلة للمصادرة وتمكنت التجارة من تحاشى العنف ومن أن تصبح نشاطاً مستقلاً، أى أنه تم ترشيدها.

ولعل أدق وأطرف تعبير عن أطروحة نفع اليهود ما قاله إديسون فى مجلة إسبكتاتور فى ٢٧ سبتمبر ١٧١٢ حين وصف بدقة تحول اليهود إلى أداة كاملة، فاليهود منتشرون فى كافة الأماكن التجارية فى العالم، حتى أصبحوا الأداة التى تتحدث من خلالها الأمم التى تفصل بينها مسافات شاسعة والتى تترابط من خلالها الإنسانية فهم مثل الأوتاد والمسامير فى بناء شامخ، وعلى الرغم من أنهم ليس لهم قيمة فى ذاتهم، فإن أهميتهم مطلقة لاحتفاظ الهيكل بتماسكه.

مصلحة الدولة

وقد أصبح مفهوم نفع اليهود مفهوماً مركزياً فى الحضارة الغربية مع ازدهار فكر حركة الاستنارة، ومع هيمنته شبه الكاملة على الفكر الفلسفى والأخلاقى الغربى. فمن أهم ركائز هذا الفكر فى المجال الأخلاقى الفلسفة النفعية التى تنظر للعالم كله وكافة مجالات الحياة من منظور المنفعة (المادية). وقد ظهر فى هذه المرحلة فكر كل من آدم سميث فى إنجلترا، والفيزيوقراط فى فرنسا، حيث كان كلاهما يطالب الدولة بتنظيم ثروتها وزيادتها، كما كانا يتقبلان فكرة أن الهدف النهائى (والمطلق) لكل الأشياء هو مصلحة الدولة. وكان أعضاء الفريق الأول يرى أن الصناعة هى المصدر الأساسى للثروة فى حين كان أعضاء الفريق الثانى، بحكم وجودهم فى بلد زراعى أساساً، يرون أن الزراعة هى المصدر الأساسى للثروة. ولكن مع هذا، تظل فكرة المنفعة هى الفكرة الأساسية فى فكر الفريقين.

ولابد وأن ندرك أن هذه المرحلة شهدت اهتزاز وضع أعضاء الجماعات

اليهودية، فمع ظهور جماعات تجارية محلية ومع تزايد سلطة الدولة المركزية لم يعد وضع أعضاء الجماعات اليهودية قلقاً وحسب، بل بدأ يدخل مرحلة الأزمة. وتم طرح الحل فى إطار مدى نفع اليهود للدولة. فأعلنت الأكاديمية الملكية فى متز (فرنسا) عن مسابقة فى عام ١٧٨٥ لكتابة بحث عن إمكانية جعل يهود فرنسا أكثر نفعاً وسعادة. ولو طرحنا حكاية السعادة جانباً باعتبارهم ديباجات مريحة تسـ ى عملية ترويج فكرة النفع، فإننا يمكننا القول أن الغرب قد أدرك تماماً فى عصر الاستنارة أن حل المسألة اليهودية يكمن فى تحويل اليهود إلى مادة بشرية نافعة، وهو مصطلح أصبح شائعاً فى الأدبيات الغربية عن اليهود منذ ذلك التاريخ. ومع هذا يجب التنبيه إلى أن هذا الإطار لم ينطبق على اليهود وحسب وإنما على كل البشر وعلى الطبيعة، فالفكر الاستنارى حَوَّل الكون (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها بكفاءة عالية.

وقد نشر الموظف البروسى كريستيان دوم كتابه الشهير عن نفع اليهود فى عام ١٨٧١، حيث طالب بإعطاء اليهود حقوقهم المدنية حتى يصبحوا نافعين بالنسبة إلى دولة تريد أن تزيد من عدد سكانها وقوتها الإنتاجية. ويبين دوم أن اليهود مفضلون عن أي مستوطنين جدد لأنهم ذوُ جذور فى البلاد التى يقطنونها (رأسمال محلى) أكثر من الأجنبى الذى يعيش فى البلد بعض الوقت (رأسمال أجنبى). ومع هذا طالب دوم بأن يُعتق اليهود لا باعتبارهم أفراداً وإنما باعتبارهم مجموعة عضوية متماسكة تعيش داخل الجيتو. ومعنى هذا أن دوم كان يود تحويل اليهود إلى مادة نافعة متماسكة تعيش فى وسط المجتمع الألمانى فيمكن لهذا المجتمع الاستفادة منها على ألا تصبح جزءاً منه، ويظل اليهود فى المجتمع دون أن يكونوا فيه (وهذه هى الرؤية الغربية لإسرائيل: جيتو تابع للغرب يكون فى الشرق دون أن يكون منه). وهذه ترجمة حديثة لرؤية الغرب لليهود كشعب شاهد أو أداة للخلاص وجماعة وظيفية.

وقد نُشرت كتابات عديدة بأقلام الكتاب الفرنسيين الذين ساهموا فى الثورة

الفرنسية مثل ميرابوا وغيره، دافعوا فيها عن نفع اليهود أو إمكانية إصلاحهم أو تحويلهم إلى شخصيات نافعة منتجة. وموضوع نفع اليهود يشكل إحدى اللبنات الأساسية فى كتابات السياسى الإنجليزى والمفكر الصهيونى المسيحى اللورد شافتسبرى الذى اقترح توطين اليهود فى فلسطين لأنهم جنس معروف بمهارته ومثابرته، ولأنهم سيوفرون رءوس الأموال المطلوبة، كما أنهم سيكونون بمثابة إسفين فى سوريا يعود بالفائدة لا على انجلترا بمفردها، وإنما على العالم الغربى بأسره. وتحويل اليهود إلى عنصر نافع عن طريق نقلهم إلى الشرق ليصبحوا مادة بشرية استيطانية هو الحل الغربى الاستعمارى للمسألة اليهودية. ولذا نجد أن بلفور يكرر نفس هذه الآراء فى مقدمته لكتاب ناحوم سوكولوف **تاريخ الصهيونية**.

وقد سيطر الفكر الفيزيوقراطى وفكر آدم سميث على كثير من الحكام المطلقين فى أوربا، حيث كانت حكومات البلاد الثلاثة التى اقتسمت بولندا واليهود فيما بينها، فى أواخر القرن الثامن عشر، يحكمها حكام مطلقون مستنيرون: فريدريك الثانى فى بروسيا، وجوزيف الثانى فى النمسا، وكاترين الثانية فى روسيا. فتبنت هذه الحكومات مقياس المنفعة تجاه أعضاء الجماعات اليهودية، فتم تقسيمهم إلى نافعين وغير نافعين. وكان الهدف هو إصلاح اليهود وزيادة عدد النافعين، وطرد الضارين منهم أو عدم زيادتهم. وبما أن معظم أعضاء الجماعة اليهودية مركزون فى التجارة أخذت عملية تحويل اليهود إلى عناصر نافعة شكل تشجيعهم على العمل فى الصناعة أو الزراعة، وهوما يسمى «تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادى منتج». كما كان لا يُعتق من اليهود سوى النافع منهم، وكان يُنظر لليهود كمادة بشرية، فكانت تُحد حريتهم فى الزواج حتى لا يتكاثروا. وكان الشباب يجندون لمدد طويلة حتى يتم تحديثهم وتحويلهم إلى عناصر نافعة. ومن الحقائق المرعبة أن البغايا كن يعتبرن من العناصر النافعة ولذ منحن حرية التنقل، وقد أدى هذا إلى زيادة عدد البغايا اليهوديات، زيادة واضحة.

قابل للترحيل

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ العداء لليهود (بما في ذلك النازية) إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية هذا. فقد تبنى المعادون لليهود هذا المفهوم وصدروا عنه في رؤيتهم وأدبياتهم، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعة اليهودية شخصيات هامشية غير نافعة، بل وضارة يجب التخلص منها. ... معظم الأدبيات العنصرية الغربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع، وحتى أطروحة لها أصداؤها أيضاً في الأدبيات الماركسية، بما في ذلك أعمال ماركس نفسه، حيث يظهر اليهودي باعتباره ممثلاً للرأسمالي الطفيلي الذي يتركز في البورصة ولا يغامر أبداً بالدخول في الصناعة. وتظهر نفس الأطروحة في كتابات ماكس فيبر الذي يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية منبوذة، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعي القديم ولا علاقة لها بالنظام الرأسمالي الجديد. (ومن المفارقات أن اليهودي الذي كان رمزاً للرأسمال المحلي المتجذر، أصبح هنا رمز الرأسمال الأجنبي الطفيلي المستعد دائماً للرحيل والهرب).

وقد وصل هذا التيار إلى قمته في الفكر النازي الذي هاجم اليهود لطفيليتهم وللأضرار التي يلحقونها بالمجتمع الألماني وبالحضارة الغربية. وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بصرامة منهجية واضحة إلى قسمين:

أ - يهود غير قابلين للترحيل، وهم أكثر اليهود نفعاً.

ب - يهود قابلين للترحيل Tranferable disposable ويستحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أفواه تأكل ولا تنتج useless eaters حسب التعبير النازي المادي الرشيد الطريف) وبوصفهم عناصر غير نافعة لا أمل في إصلاحها أو في تحويلها إلى عناصر نافعة منتجة. (ومما يجدر ذكره والتأكيد عليه، إن هذا التقسيم تقسيم عام شامل، غير مقصور على اليهود، فهو يسري على الجميع، فقد صنف الألمان المعوقين والمتخلفين عقلياً وبعض العجزة والمثقفين البولنديين على أنهم «غير نافعين» أي قابلين للترحيل ويستحسن التخلص منهم، وقد سويت حالة هؤلاء (بما في ذلك اليهود) عن طريق الترحيل إلى

معسكرات السخرة أو الإبادة، حسب مقتضيات الظروف والحسابات النفعية المادية الرشيدة.

الشعب النافع

من المعروف أن من أهم وظائف أعضاء الجماعة الوظيفية القيام بوظيفة ما هى فى جوهرها إستغلال للجماهير لصالح النخبة الحاكمة. فتقوم الجماعة بتحصيل الضرائب من الجماهير أو امتصاص فائض القيمة منها من خلال الإقراض بالربا أو التخصص فى بيع سلعة معينة (مثل الملح) والخمور يحتكرها الحاكم لحسابه. وكان أعضاء الجماعة الوظيفية يحققون بذلك أرباحاً عالية، ولكنهم بعد ذلك كان عليهم دفع الضرائب الباهظة للحاكم، ولذا، فقد كانت معظم الأرباح تصب مرة أخرى فى خزائنه - أى أن أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية كانوا فى واقع الأمر من أهم مصادر الربح للنخب الحاكمة فى الغرب فى العصور الوسطى. ومفهوم الشعب النافع هو استمرار لنفس هذه الرؤية، وإعادة إنتاج لها داخل أطر حديثة.

وقد تقبل الصهاينة هذه الأطروحة النفعية المادية تماماً، فنجد أن هرتزل يؤكد أن اليهود فى أوربا فائض بشرى غير نافع داخل أوربا، ولكن يمكن تحويله إلى عنصر نافع للحضارة الغربية عن طريق نقله إلى الشرق (فلسطين على سبيل المثال) ليصبح عنصراً استيطانيا، أى أنه سيتم التخلص من اليهود وسيتم تحويلهم إلى عنصر نافع بضربة واحدة من خلال نقلهم وتحويلهم إلى مستوطنين فى إطار الدولة الصهيونية الوظيفية المملوكية. ويتحدث ناحوم سوكولوف بنفس الطريقة عن اليهود ويقدم الاقتراحات الكفيلة بتحويلهم إلى مادة نافعة. وكان مفكرو الصهيونية العمالية (جوردون - بوروخوف- سيركين) يؤكدون ضرورة تحويل الشعب الطفيلى اليهودى إلى عنصر نافع ومنتج من خلال غزو الحراسة والأرض والعمل والإنتاج. ويجب أن نشير هنا إلى الفريد نوسيج الفنان الصهيونى الذى عاون هرتزل فى تأسيس المنظمة الصهيونية وكان أحد زعماء الصهيونية فى ألمانيا. وقد امتد به العمر إلى أن استولى النازيون على السلطة واحتلوا بولندا. فتعاون نوسيج مع الجستابو

ووضع مخططاً لإبادة يهود أوربا باعتبارهم عناصر غير نافعة. وقد حاكمه يهود جيتو وارسو وأعدموه. قد فعل رودولف كاستنر، المسئول الصهيوني في المجر نفس الشئ حينما تفاوض مع إيخمان (المسئول النازى) بخصوص تسهيل نقل يهود المجر (باعتبارهم عناصر غير نافعة قابلة للترحيل والإبادة) في مقابل السماح لبعض الشباب اليهودى بالسفر إلى فلسطين والاستيطان فيها («شباب من أفضل المواد البيولوجية» على حد قول إيخمان أثناء محاكمته).

الدولة الصهيونية الوظيفية النافعة تدور في نفس الإطار، فهي ستقوم بنفس الأعمال التي تقوم بها الجماعة الوظيفية في العصور الوسطى، فتتحول الجماعة الوظيفية إلى دولة وظيفية تغرس في الشرق العربي في العصر الحديث. وستقوم هذه الدولة الوظيفية بنفس الأعمال المشينة التي كانت تقوم بها الجماعات الوظيفية، وهي أعمال لا يمكن للدول الغربية المحترمة أن تقوم بها نظراً لأنها دول ليبرالية وديموقراطية تود الحفاظ على صورتها المشرقة فتوكل إلى الدولة الصهيونية بمثل هذه الأعمال. ومن هذه الوظائف تزويد دول أمريكا اللاتينية العسكرية بالسلاح، والتعاون مع جنوب أفريقيا في كثير من المجالات بما في ذلك السلاح النووى، والقيام ببعض أعمال المخابرات والتجسس، والسماح للولايات المتحدة بإنشاء إذاعة موجهة فيها للاتحاد السوفيتي (سابقاً). كما تقوم الدولة الصهيونية بتوفير الجو الملائم والتسهيلات اللازمة للترفيه عن الجنود الأمريكين. ويبدو أن الدولة الصهيونية الآن أصبحت مصدراً لكثير من المرتزقة في العالم، كما يبدو أنها بدأت في تصدير البغايا لبلدان غربية مثل هولندا (امستردام) وألمانيا (فرانكفورت).

ولكن أهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق هو الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية) فعائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد إستراتيجي والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال: القتال في نظير المال-أي أنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى. وفيما عدا ذلك، فإنها ديباجات اعتذارية وتفاصيل فرعية.

وقد تنبه أصدقاء الصهيونية وأعداؤها على السواء إلى طبيعة هذه العلاقة وطبيعة

هذه الوظيفة منذ البداية، فتم الدفاع عن المشروع الصهيونى والترويج له من هذا المنظور، كما تم الهجوم عليه وشجبه من هذا المنطلق. فعلى سبيل المثال، صرح ماكس نوردو، فى خطاب له فى لندن (فى ١٦ يونيه ١٩٢٠) بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بلداً تحت وصاية بريطانيا العظمى وأن اليهود سيقفون حراساً على طول الطريق الذى تحف به المخاطر ويمتد عبر الشرقين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند، وكان حاييم وايزمان كثير الإلحاح فى تأكيد الأهمية الإستراتيجية (لا الاقتصادية) للجيب الاستيطانى الصهيونى الذى سيشكل، حسب رأيه «بلجيكا آسيوية»، أى خط دفاع أول لانجلترا ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس.

وأما حنه أرنت فقد أكدت أن الصهيونية بطرحها لنفسها «حركة قومية» باعت نفسها منذ البداية للقيام بالوظيفة القتالية الاستيطانية، فشعار الدولة اليهودية كان يعنى فى واقع الأمر أن اليهود ينوون التستر وراء القومية وأنهم سيقدمون أنفسهم باعتبار أنهم «مجال نفوذ» إستراتيجى لأى قوة كبرى تدفع الثمن.

وقد عرض ناحوم جولدمان القضية بشكل دقيق للغاية عام ١٩٤٧ فى خطاب له ألقاه فى مونتريال بكندا وقال فيه: «إن الدولة الصهيونية سوف تؤسس فى فلسطين، لا لاعتبارات دينية أو اقتصادية بل لأن فلسطين هى ملتقى الطرق بين أوربا وآسيا وأفريقيا، ولأنها المركز الحقيقى للقوة السياسية العالمية والمركز العسكرى الإستراتيجىّ للسيطرة على العالم». معنى هذا أن الدولة الصهيونية لن تنتج سلعاً بعينها ولن تقدم فرصاً للاستثمار أو سوقاً لتصريف السلع أو مصدراً للمواد الخام والمحاصيل الزراعية، وإنما سيتم تأسيسها لأنها ستقدم شيئاً مختلفاً ومغايراً وثميناً: دوراً إستراتيجياً يُؤمِّن سيطرة الغرب على العالم، وهو دور سيكون له مردود اقتصادى دون شك، ولكن غير مباشر.

ولا تختلف المنظمة الإشتراكية الإسرائيلية «ماتزبن» أى البوصلة، فى وصفها وضع إسرائيل عن وصف جولدمان أو حنه أرنت، حيث ترى المنظمة، فى تحليل لها صدر فى الستينيات، أن الدور الذى تضطلع به الدولة الصهيونية لم يطرأ عليه

أى تغيير، فهى لا تزال تشكل قاعدة لقوة عسكرية يمكن الاعتماد عليها، قوة موجهة ضد العرب لخدمة المصالح الإمبريالية الإستراتيجية. وقد بين ب. سبير (فى علهمشمار بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٨٦) أن إسرائيل قد جعلت من جيشها الذراع المستقبلية المحتملة للولايات المتحدة، فهى خدمة حربية كامنة جاهزة على أهبة الاستعداد لتأدية الخدمات فى أى وقت.

الجدوى الاقتصادية للدولة الوظيفية

والدولة الوظيفية الصهيونية لا تقوم، مثل الجماعة الوظيفية اليهودية، بتحصيل الضرائب مباشرة، ولكنها مع هذا تحقق ربحاً عالياً للدولة الراعية لأنها تقوم بضرب تلك النظم القومية العربية التى تحاول رفع سعر المواد الخام أو حتى تتحكم فى بيعها وفى أسعارها أو التى تختط طريقاً تنموياً مستقلاً أو تتبنى سياسة داخلية وخارجية تهدد المصالح الغربية بالخطر. أما الضريبة التى يدفعها أعضاء الدولة الوظيفية الصهيونية، فهى حالة الحرب الدائمة التى يعيشونها بسبب الدور الذى يضطلعون به.

ومهما يكن الأمر أدرك الصهاينة هذه الوظيفة، كما أدركوا أنهم كلما زاد ما يحققونه من ربح لراعيهم من خلال أداءئهم لمهام وظيفتهم زادت فرص استمرار الدعم وفرص البقاء، ومن هنا كان تأكيدهم المستمر وإلحاحهم الدائم على الجدوى الاقتصادية التى يؤديها التجمع الصهيونى وعلى مقدار النفع الذي سيعود على الراعي والممول (الإمبريالى)، تماماً مثلما يفعل أى شخص رشيد مع أى سلعة تباع وتشترى. وبالفعل، نجد أنه فى وقت كان فيه المشروع الصهيونى لا يزال فى إطار النظرية والأمنية، كان الزعماء الصهاينة يؤكدون، الواحد تلو الآخر، أن تمويل مثل هذا المشروع الاستيطانى الصهيونى مسألة مربحة للدولة التى ستستثمر فيه. وقد أدرك هرتزل -بمكره ودهائه- أن ثورة الفلاحين المصريين ستجعل مصر مكلفة للغاية كقاعدة عسكرية بالنسبة لانجلترا، ولذا فقد أشار إلى أن المشروع الصهيوني، بتكاليفه الزهيدة، شيء مغرٍ. واستخدم وايزمان الاستعارة التجارية التعاقدية ذاتها

حين كتب لتشرشل قائلاً: "إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تبديداً للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي نعطيه لك بسعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر". وأفاض وايزمان في شرح وجهة نظره، مبيناً أن الاستعمار البريطاني، بتأييده للمنظمة الصهيونية، قد وضع ثقته في مجموعة مستعدة أن تتحمل قدراً كبيراً من المسئولية المادية عن الاستعمار. وإذا تبين أن تكاليف الحامية البريطانية ستكون مرتفعة، عندئذ يمكن تنظيم وتسليح المستعمرين اليهود. ثم يتساءل وايزمان بشيء من الخطابية وبكثير من التوتر: "هل تمت أي عملية استعمارية أخرى تحت ظروف مؤاتية أكثر من هذه ـ أن تجد الحكومة البريطانية أمامها منظمة لها دخل كبير وعلى استعداد لأن تضطلع بجزأ من مسئولياتها التي تكلفها الكثير؟". إن الصوت هنا هو صوت بائع متجول يجيد الإعلان عن السلعة، حتى ولو كانت هذه السلعة هي كيانه ووجوده.

وإذا كان سمحا دينتس قد حاول الترويج للمشروع الصهيوني في الولايات المتحدة من منظور الدور الإستراتيجي، فإن يعقوب ميريدور ركّز على مدي رخصه وانخفاض ثمنه. ففي حديث إذاعي ذكر أن إسرائيل تحلّ محل عشر من حاملات الطائرات، ثم قدّم الوزير الإسرائيلي كشف حساب بسيط جاء فيه أن تكلفة بناء الحاملات العشرة هذه تبلغ ٥٠ بليون دولار. ثم أضاف الوزير، وهو الخبير بالأمور الاقتصادية، أنه لو دفعت الولايات المتحدة فائدة قدرها ١٠٪ علي تكاليف تشييد هذه الحلاملات(وقد كان الوزير متسامحاً مع الولايات المتحدة إذ أنه لم يذكر تكلفة الجنود الذين ستحملهم حاملات الطائرات أو الحرج السياسي الذي سيسببه وجود مثل هذه القوات)، لو دفعت الولايات المتحدة مثل هذه الفائدة لبلغت خمسة بلايين دولار. وحيث أن المعونة الأمريكية لا تصل بأية حال إلى هذا القدر، فقد اختتم ميريدور حديثه بملحوظة فكاهية ولكنها في الوقت ذاته بالغة الدلالة، إذ قال: "أين إذن بقية المبلغ؟". ويبدو أن هذا هو الخط الإعلامي الإسرائيلي في مواجهة الأمريكيين، ففي العام نفسه بيّن أريل شارون أن المعونات

التي قدمتها الولايات المتحدة للكيان الصهيوني لا تزيد عن ثلاثين ملياراً من الدولارات، أما الخدمات التي قدمتها إسرائيل إلى أمريكا فتفوق مائة مليار من الدولارات، ثم قال بشكل جدي ما قاله ميريدور بشكل فكاهي: "إن الولايات المتحدة لا تزال مدينة لنا بسبعين ملياراً".

وترد الفكرة نفسها، كما يرد كشف حساب مماثل، في مقال لشلوموماعوز المحرر الاقتصادي للجيروساليم بوست بعنوان «صفقة إستراتيجية» حين أشار إلى أن الإسرائيليين يعرفون جيداً أن مساعدة الولايات المتحدة للدولة الصهيونية هي في جوهرها مساعدة لخدمة مصالح الولايات المتحدة الإستراتيجية. فالولايات المتحدة تدفع سنوياً ١٣٠ بليون دولار لقواتها في حلف شمال الأطلنطي و٤٠ بليوناً للوفاء بالتزاماتها في المحيط الهادي. وبالتالي، فإن مساعداتها العسكرية والمدنية لإسرائيل صغيرة بشكل مضحك، إذا ما قورنت بالمبالغ الآنفة الذكر، خصوصاً إذا ما تم النظر إلى مثل هذه المساعدات باعتبارها استثماراً لحماية مصالح أمريكا في المنطقة.

هذا هو المفهوم الغربي لإسرائيل. فالمدافعون عنها في الولايات المتحدة لا يلجأون أبداً إلى الحديث عن المغانم الاقتصادية الثانوية أو المغارم الاقتصادية التافهة وإنما يشيرون دائماً إلى الحليف الذي يمكن التعويل عليه، وإلى المغانم الإستراتيجية الأساسية الشاملة الهائلة. وقد عبّرت مجلة الإيكونومست (في ٢٠ يوليه ١٩٨٥) عن موقف هؤلاء بقولها: إذا كان من الممكن لأمريكا أن تدفع ٣٠ بليون دولار كل عام ضمن تكاليف حلف الأطلنطي (لتحقيق أهداف إستراتيجية)، فإن من المؤكد أن إسرائيل، وهي المخفر الأمامي والقاعدة المحتملة، تستحق مبلغاً تافهاً (نحو ٤ بلايين دولار).

وقد لخص سبير كل الموضوعات والاستعارات السابقة فقال أن الزعماء الإسرائيليين مضطرون دائماً أن يذكّروا القيادة الأمريكية في واشنطن بمقدار تكلفة وجود الجيش الأمريكي في غرب أوربا بالمقارنة بتلك الهبات الممنوحة لإسرائيل. وقد بيّن سبير أن الجيش الإسرائيلي ليس خدمة حربية كامنة وحسب، وإنما هو

أيضاً خدمة رخيصة، بل إنها أرخص من أي خيار عسكري آخر محتمل لأمريكا في المنطق. وحسبما جاء في مقاله، يوافق البنتاجون على هذا الرأي، ولذا لا يبدي خبراؤه أي تأفف إزاء الحساب الذي يقدمه الإسرائيليون، حتى أن هناك من يري فيه أنه رخيص نسبياً، الأمر الذي يدل على أن نبوءات الزعماء الصهاينة وحساباتهم، بخصوص الجيب الصهيوني الوظيفي، كانت تتسم بالدقة، وأن السلعة الصيونية مربحة ولا شك، وأن العقد النفعي الذي وُقع بين الحضارة الغربية ويهود العالم لا يزال نافذاً حتى الآن وأن عائده لا يزال مرتفعاً.

استعارات الحوسلة

الدولة الوظيفية هي دولة يتم حوسلتها (أي تحويلها إلي وسيلة) لصالح الدول الراعية الإمبريالية، ولكن يبدو أن الحوسلة الصهيونية في حالة الحركة الصهيونية لن تتوقف عند الدولة الوظيفية، بل ستمتد لتشمل كل المادة البشرية اليهودية أينما كانت. وفي اجتماع بين هرتزل وفيكتور عمانوئيل الثالث، ملك إيطاليا، أشار الزعيم الصهيوني إلي أن نابليون دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين ليؤسسوا وطناً قومياً، ولكن ملك إيطاليا بيَّن له أن ما كان يريده في الواقع هو أن يجعل اليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم عملاء له. وقد اضطر هرتزل إلى الموافقة علي ما يقول، بل وأن يعترف بأن تشامبرلين، وزير الخارجية البريطاني، كان لديه أيضاً أفكار مماثلة. وكان هرتزل يفكر بأنه إذا وافقت إنجلترا علي مشروعه الصهيوني، فإنها ستحصل «وفي ضربة واحدة»، علي عشرة ملايين تابع(عميل) سري في جميع أنحاء العالم يتسمون بالإخلاص والنشاط، وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون. "إن إنجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خدمة جلالتها ونفوذها". ثم أضاف هرتزل، مستخدماً الاستعارة التجارية التعاقدية الشائعة في الأدبيات الصهيونية "ثمة أشياء ذات قيمة عالية تكون من نصيب الشخص الذي يحصل عليها في وقت لم تكن بعد قد عرفت قيمتها الحقيقية العالية". وأعرب الزعيم الصهيوني عن أمله في أن

تدرك إنجلترا مدى القيمة والفائدة التي ستعود عليها من وراء كسبها الشعب اليهودي، أي أن هرتزل مدرك تماماً لوظيفية الدولة اليهودية والشعب اليهودي ونفعهم وفائدة توظيف اليهود وحوسلتهم.

والخطة الصهيونية الخاصة بتسخير الشعب اليهودي هي جزء أساسي من العقيدة الصهيونية. ففي عام ١٩٢٠، عبّر ماكس نوردو عن تفهمه العميق للدوافع التي حركت رجال السياسة البريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية. "وبعد القيام بحساباتهم توصل هؤلاء الساسة إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة مصدر قوة" وربما "مصدر نفع" أيضاً لبريطانيا وحلفائها، ومن ثم عرضت عليهم فلسطين.

ويلاحظ أن كل الكُتّاب السابقين ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها «رقعة» أو «مساحة» أو «مكاناً تابعاً» أو «بلداً» تحت الوصاية (فهي مكان تم نزع القداسة عنه وحوسلته تماماً حتى أصبح موضوعاً محضاً). وهم يعتبرون المستوطنين الصهاينة حراساً و"خدمة عسكرية جاهزة": جماعة من المماليك أو المرتزقة على أهبة الاستعداد دائماً. والمملوك أداة ووسيلة، وليس إرادة وقيمة.

وسواء أكانت الإشارات للمكان أو كانت للإنسان، فإن جوهر الاستعارات كلها هو التبعية الكاملة للغرب، والتحوسل الكامل لحسابه، وتحويل المكان والإنسان إلى أداة منعزلة عن المحيط الحضاري الشرقي («ذراع مستقبلية»). وقد مزج هرتزل، مؤسس الصهيونية، كل العناصر في استعارته الشهيرة حين قال: "سنقيم هناك [في آسيا] جزءاً من حائط لحماية أوربا يكون عبارة عن حصن منيع للحضارة [الغربية] في وجه الهمجية"، فقد مزج الإنسان والمكان بحيث أصبحا حائطاً غربياً في مواجهة الشرق (يلاحظ أن كلمة «إسرائيل» في العبرية كلمة متعددة المعاني متنوعة الدلالات وتشير للأرض والشعب تماماً كما فعل هرتزل).

ولا يزال إدراك الإسرائيليين لدورهم(وإدراك العالم الغربي له) يدور في هذا الإطار. وكثير من الاستعارات التي يستخدمها المستوطنون الصهاينة في وصف الدور الموكل إليهم يبين إدراكهم لعملية الحوسلة الوظيفية هذه. فقد استخدمت جريدة هآرتس استعارة درامية لوصف الدور الذي تم إسناده إلي الدولة اليهودية(في مقال في سبتمبر ١٩٥١) بعنوان "نحن وعاهرة المواني" جاء فيه أن "إسرائيل قد تم تعيينها لتقوم بدور الحارس الذي يمكن الاعتماد عليه في معاقبة دولة واحدة أو أكثر من جيرانها العرب الذين قد يتجاوز سلوكهم تجاه الغرب الحدود المسموح بها".

والاستعارة السابقة(إسرائيل كحارس أجير يشبه العاهرة) تلمس ـ على ما يبدو ـ وتراً حساساً في الذات الصهيونية الإسرائيلية، إذ تكشف أخيراً من خلال وثائق وزارة الخارجية البريطانية لعام ١٩٥٦ الخاصة بحرب السويس أنه أثناء المباحثات السرية التي جرت بين إنجلترا والدولة الصهيونية ومهدت للعدوان الثلاثي على مصر، تم الاتفاق على أن تقوم إسرائيل بمهاجمة مصر. وبعد وصولها إلى قناة السويس، تقوم إنجلترا وفرنسا بالتدخل ثم تصدران أمراً إلى الطرفين المصري والإسرائيلي بالانسحاب عدة كيلو مترات من حدود القناة، وبذا يتم تبرير الغزو الفرنسي والإنجليزي أمام الرأي العام العالمي باعتباره عملية محايدة تهدف إلى حماية الملاحة في القناة. وقد ضمنت الدولتان أمن إسرائيل وزودتاها بالغطاء الجوي المطلوب(وهذه أمور معروفة لا تحتاج إلي توثيق). ولكن يبدو أن المندوب الإنجليزي في هذه المفاوضات السرية بالغ قليلاً في الأمر وطلب أن تقوم القوات الإنجليزية بإلحاق بعض الإصابات الطفيفة، ولكن الفعلية، بالقوات الإسرائيلية لرفضها الانسحاب أو لتباطئها فيه حتى يتم حبك المسرحية. وهنا ثارت ثائرة بن جوريون واستخدم استعارة شبيهة باستعارة هآرتس لوصف العلاقة بين إسرائيل والدول الغربية إذ قال " إنجلترا تشبه النبيل الإقطاعي الذي يرغب في معاشرة إحدى الخادمات جنسياً على أن يتم ذلك في الخفاء وحسب، أي في المطبخ مثلاً

لا في حجرة النوم" .ومن الواضح أن بن جوريون لم يرفض الدور الإستراتيجي الموكل إليه(الخادمة الحسناء)، ولكنه كان يطمع في أن يتم اللقاء بين الخادمة والسيد بأسلوب راقٍ يليق بالدولة اليهودية الوظيفية.

ومن الاستعارات المتواترة الأخرى، الاستعارة التي تعتبر إسرائيل كلب حراسة. فقد وصف البروفسور يشعياهو ليبوفيتس في حديث له في صحيفة لوموند بتاريخ ٨ مارس ١٩٧٤ إسرائيل بأنها "عميل للولايات المتحدة" ووصف الإسرائيليين بأنهم "كلاب حراسة لمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا علي القيام بهذه المهمة" . وقد طوَّر الصحفي الإسرائيلي عاموس كينان هذه الاستعارة المثيرة من عالم الحيوان وجعلها أكثر حدة وإثارة إذ وصف إسرائيل بأنها "كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس" ، وهي كلب حراسة قوي لكنه يحتاج إلي حماية. ويفضل العرب استخدام استعارة«مخلب القط» لوصف الدولة الوظيفية. وهي استعارة مألوفة وشائعة فقدت كثيرا من قوتها بسبب تكرارها الممل، وإن كانت معبِّرة تماماً. والاستعارات السابقة(الحارس، والعاهرة، والخادمة الحسناء الطيعة، وكلب الحراسة، ومخلب القط) سواء قبلنا بها لجدتها أم رفضناها لحدتها، تؤكد أن أهمية إسرائيل من وجهتي النظر الغربية والصهيونية لا تكمن في عائدها الاقتصادي وإنما في دورها الإستراتيجي إذ أن كل الاستعارات تفترض وجود دور يُؤدي وثمناً يُدفع، لا عائداً اقتصادياً يُحصَّل.

ولكن كل الاستعارات السابقة، اللائق منها وغير اللائق، هي في الواقع استعارات مستمدة من القرن التاسع عشر قبل تفجر الثورة التكنولوجية وتزايد معدلات نمو الصناعات الحربية وتنوعها. ولذا، كان لابد من تطوير الاستعارة بشكل يتفق مع روح العصر في أواخر القرن العشرين(والواقع أن إحدى السمات الأساسية الشاملة للدولة الوظيفية الصهيونية مقدرتها علي تغيير وظيفتها بما يتفق مع متطلبات الدولة الراعية)، وهذا ما أنجزه يعقوب ميريدور وزير التخصيط

والتنسيق الاقتصادي(١٩٨٢ ـ ١٩٨٤)، حيث قال في حديث له للإذاعة التابعة للجيش الأمريكي، أنه لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلي بناء عشر من حاملات الطائرات. وهو بذلك يكون قد أحلّ استعارة إسرائيل كحاملة طائرات أمريكية محل الاستعارات الغامضة أو الفاضحة السابقة. وترد نفس الاستعارة وبشكل أكثر تبلوراً، في مقال الصحفي الإسرائيلي سبير والمعنون«مجتمع يتغذى على الهبات الخارجية» إذ قال الكاتب: "إن الأمريكيين يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والجنود". وقد وصف سبير هذه الدولة بأنها حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة في موقع إستراتيجي فريد من نوعه قريب من الاتحاد السوفيتي وقريب من أوربا الشرقية وقريب من حقول النفط.

إسرائيل إذن«حاملة طائرات»، أي أنها وظيفة تُؤدي أو دور يُلعب وأداة تُستخدم أو ثروة إستراتيجية تضم أربعة ملايين مقاتل. ولا شك أن استعارة«الحاملة» أكثر دقة ودلالة من سابقاتها لأنها لا تتحدث عن دور الدولة الصهيونية أو وظيفتها بشكلٍ عام، وإنما تعرِّف ـ وبدقة بالغة ـ طبيعتها الإستراتيجية كدولة عميلة توجد في منطقة حدودية قريبة من الاتحاد السوفيتي(سابقاً) وأوربا الشرقية وحقول النفط، وليس لها عائد اقتصادي مباشر. وتؤكد الإستعارة حركية هذه الدولة النافعة الثمينة وإمكانية نقل جنودها من مكان حدودي إلى مكان حدودي آخر، ولكن الاستعارة تظهر في الوقت ذاته أيضاً أنه يمكن الاستغناء عنها، فالأجزاء الآلية الحركية ليست عضوية ولا ثابتة. وتنفي الاستعارة عن إسرائيل أي دور اقتصادي مباشر. ولعل الاتفاق الإستراتيجي الذي تم توقيعه بين الولايات المتحدة وإسرائيل عام ١٩٨٤ هو تحقق آخر لهذا الإدراك لطبيعة دور دولة إسرائيل وعلاقتها بالعالم الغربي.

الدولة المملوكية

والتعبيرات المجازية التى تُستخدم للإشارة إلى الدولة الصهيونية تؤكد كلها كونها أداة نافعة، ليس لها قيمة ذاتية، وإنما تنبع قيمتها مما تؤديه من خدمات وتجلبه من منفعة، فالدولة هنا وظيفة ودور ، لا كياناً مستقلاً له حركياته، وهى تستمد استمرارها، بل ووجودها، من مدى مقدرتها على أداء هذ الدور. ولذا فنحن نشير إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة مملوكية، علاقتها بالغرب تشبه علاقة المملوك بالسلطان فهى علاقة نفعية محضة، مستمرة طالما استمرت مقدرة المملوك على الأداء. ونحن نشير لها كذلك باعتبارها الدولة الوظيفية، أى الدولة التى تضمن استمرارها وبقاءها من خلال أدائها لوظيفتها. وربما يبين هذا مدى أهمية الانتفاضه المباركة التى أثبتت أن الدولة الصهيونية غير قادرة على أداء دورها ووظيفتها كقاعدة استراتيجية فى الشرق الأوسط، وأن نفعها من الناحية العسكرية ليس كبيراً، وأن أداءها لوظيفتها أصبح أمراً مكلفاً للغاية. ومن هنا تحرك الدولة الصهيونية السريع لتجد لنفسها وظيفة جديدة، فبدلاً من أن تكون حاملة طائرات أو معسكر لمماليك، فإنها ستصبح مثل سنغافورة مركزاً للسماسرة والصيارفة، وربما ركيزة أساسية لقطاع اللذة (ملاهى - كباريهات - مصحات- سياحة) وسوبر ماركت ضخم، فردوس أرضي يضم كل السلع التي يحلم بها الإنسان، فيذوب فيها ويفقد حدوده وينسى كل المنغصات مثل التاريخ والذاكرة القومية والهوية والكرامة والقيم الأخلاقية. ومن هنا أهمية توقيع اتفاقية السلام والإصرار على ضرورة رفع المقاطعة العربية، حتى يتسنى للدولة الصهيونية أن تلعب دورها الجديد الذى لا يختلف كثيراً عن بعض الأدوار التى كان يلعبها أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية فى الغرب.

ومما يجدر ذكره أن سياسة البلاشفة تجاه اليهود كانت تصدر عن نفس المنظور النفعي، فعندما كان من مصلحة الاتحاد السوفيتى دمج اليهود تماماً قررت الدولة السوفيتية أن هذا هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية باعتبار أنه لا يوجد شعب

يهودى. ولكن الاتحاد السوفيتى وجد فى الأربعينيات أن من مصلحته الاعتراف بالدولة اليهودية فى فلسطين، على أمل أن تشكل هذه الدولة خلية اشتراكية فى الوسط العربى الإقطاعى المتخلف، فتقوم بتثوير المنطقة، ومن ثم سمح بالهجرة السوفيتية، بل ودافع المتحدثون السوفييت عن «حقوق الشعب اليهودى» بشراسة غير معهودة فيهم. وكان الاتحاد السوفيتى، أول دولة اعترفت بشكل قانونى بالدولة الصهيونية.

وقد ظلت سياسية السوفيت تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين مرتبطة تماماً مع مصالح الدولة السوفيتية ومنفصلة تمامً عن الأطروحات الأيديولوجيه (والأخلاقية) التى كانت تشكل أساس شرعيته.

٢ - اليهودي كمسلم في أفران الغاز

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى حقيقة مثيرة وهي رؤية الصهاينة لأنفسهم كعرب وهي ما سميته اليهودي كعربي، ثم انقلاب هذا الإدراك بعد ذلك ليصبح العربي كيهودي. وتداخل المقولات الإدراكية مسألة تستحق الدراسة والتوقف. وفي هذا الفصل سندرس ظاهرة مماثلة. فقد وقعت على اكتشاف لا عن طريق الصدفة تماما ولا عن طريق التخطيط أيضا، وإنما عن طريق نموذج معرفي وتفسيري مختلف عما هو سائد في الغرب. فالدراسات التي كُتبت عن الإبادة النازية (هولوكوست باليونانية وشواح بالعبرية وتترجم أحيانا إلى المحرقة) تتناول هذه الظاهرة كما لو كانت ظاهرة ألمانية مقصورة على الألمان، وكما لو كانت هي جريمة النازيين الأشرار ضد اليهود الأبرياء. والأدبيات العربية تفترض هذا الإطار وتقع في قبضة إمبريالية المقولات. وإن حاولت توسيع هذا الاطار فهي تقول إن اليهود لم يُقتل منهم ستة ملايين وإنما مليونين، كما أن اليهود ليسوا هم الضحايا وإنما يستحقون ما حدث لهم إلخ. ، إلى آخر هذه الأحاديث الصبيانيه العنصرية. وقد طرحت تصوراً مختلفاً في كتاب الأيديولوجية الصهيونية إذ أذهب إلى أن الإبادة النازية لليهود (وغيرهم) ليست جريمة ألمانية/ نازية وإنما غربية. فحل الإبادة هو حل طرحته الحضارة الغربية الحديثة (العقلانية المادية) لكثير من مشاكلها، فتمت إبادة سكان الأمريكتين في القرن السادس عشر ولا تزال عملية إبادتهم المباشرة مستمرة في بلاد مثل البرازيل. وقد تمت حروب إبادية أو شبه إبادية أخرى في بلاد الكونغو والجزائر (بلد المليون شهيد). وهذا أمر متوقع، فالتفكير العنصري الغربي يتضمن إنكار حق الوجود للآخر وإن وُجد فهو في مرتبة أدنى لابد وأن يوظف في خدمة العالم الغربي. ويجب أن نذكر أن وعد بالفور كان يهدف الى تخليص أوروبا من اليهود عن طريق نقلهم الى فلسطين وتوظيفهم لصالح الحضارة الغربية وهذا ما كان يهدف له هتلر أيضا الذي كان يهدف الى التخلص من اليهود وغيرهم. وقد حاول هو الآخر أن ينقلهم إلى بولندا وفشل،

ثم تبنى مشروعاً لنقل اليهود لمدغشقر ففشل. فكأن هتلر هو بالفور دون مستعمرات، وهذا يعود إلى أن معاهدة فرساي بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أجهضت مشروع ألمانيا الاستعماري. ولولا هذا لتخلص هتلر من اليهود بالطرق البالفورية المتحضرة بدلا من الطرق النازية الهمجية! فإذا أضفنا إلى كل هذا الفكر الدارويني والنيتشوي والإيمان بالمنفعة كمقياس مطلق وإسقاط قداسة كل شيء (إذ كيف يمكن الإيمان بقداسة أي شيء إن كان مصدر القداسة قد انسحب من الكون وهجره، وإن كان كل شيء مادة في مادة، مجرد أرقام وذرات متجاورة؟) إن فعلنا ذلك اكتشفنا أن الحضارة الغربية الحديثة هي خلطة حضارية تجعل من معسكرات الإبادة أمراً منطقياً ومفهوماً. ولعل الفضيحة قاحت لأن عنصرية الحضارة الغربيه في حاله ألمانيا لم يتم ممارساتها فى أحراش أفريقيا أو غابات آسيا أو سهول الولايات المتحدة قبل أن يعمرها الإنسان الأبيض كما هو الحال مع عنصرية انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، وإنما تمت ممارستها داخل المجتمعات الأوروبية ذاتها ووقع ضحيتها عناصر بشرية غربية مثل الغجر والسلاف والشيوعين واليهود وغيرهم، وهي عناصر تم تصنيفها بشكل منهجي على أنها غير نافعة تماماً مثل الأطفال المعوقين والعجزة والجنود الألمان المصابين في الحروب الذين كانوا يطلقون عليهم Useless eaters أي مستهلكون للطعام لا جدوى اقتصادية منهم والذين أُنشِئت أفران الغاز ابتداء للتخلص منهم. وفي أثناء محاكمات نورمبرج كان خطَ الدفاع لمجرمي الحرب النازيين أن تفكيرهم إنما هو نتاج طبيعي للأبحاث التي أجراها العلماء الغربيون لمدة أربعمائة عام (أي منذ عصر النهضة!).

المسلمون وأفران الغاز

الجريمة النازية إذن جريمة غربية بمعنى الكلمة تعبر عن شيء أصيل ورهيب وكامن في الحضارة الغربية الحديثة، وهي مثل الصهيونية، ليست انحرافاً عن جوهر هذه الحضارة وإنما هي تعبير متبلور عنه. هذا هو التصور الذي أطرحه منذ أمد طويل وبينما كنت أكمل بعض المداخل الأخيرة الخاصة بالإبادة في موسوعة

اليهود واليهودية والصهيونية. لاحظت إشارات خفية للضحايا الذين سيقادون لأفران الغاز، فقالت أحد المراجع أنهم كانوا يسمونهم تسمية «غريبة» ولاحظت في مقال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفتس تكرار كلمة «مسلم»، وقد أصبح عندي حساسية غير عادية لمثل هذه الإشارات، فعادة تخبيء المراجع الصهيونية شيئا محرجاً ما حينما تفعل ذلك، فقمت بقراءة عدة مراجع وموسوعات إلى أن وصلت إلى حقيقة مذهلة، وهي أن هؤلاء الضحايا كانوا يسمونهم «ميزلمانMuselmann» أي «مسلم» بالألمانية، وقد ورد ما يلي في مدخل في الموسوعة اليهوديةEnyclopedia Judaica (جزء١٢ ص ٥٣٧-٥٣٨) عنوانه «مسلم»:

«ميزلمان» أي مسلم بالألمانية، وهي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتى كانت تستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت- أي بدأت تظهر عليهم أعراض آخر مراحل الجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والإرهاق البدني. وكان هذا المصطلح يستخدم أساساً في أوشفتس ولكنه كان يستخدم فى المعسكرات الأخرى» هذه هى المعلومة، فكأن العقل الغربى حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة(الصليبيه) هو المسلم. ومن المعروف فى تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربى كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول ﷺ وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط.

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي، كل مافي الأمر أنه تم توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة«مسلم» لتشير «للآخر» على وجه العموم، سواء كان من الغجر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع لكلمة «عربى» فى الخطاب الصهيونى لتصبح «الأغيار»). ويحاول كاتب المدخل أن يفسر أصل استخدام الكلمة، ولكن تفسيره هو مجرد تفسير وحسب، فهو يدّعي أن الضحايا سُموا «مسلمين» استنادا إلى طريقة مشيهم وحركتهم: «إنهم كانوا

يجلسـون القرفصاء وقد ثُنيت أرجلهم بطريقة «شرقية» ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة». والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل مافي الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» محل كلمة «مسلمين»، لكن المهم أن الضحايا هم الآخر، والآخر ليس غربيا وإنما شرقي أو مسلم.

اوشفتس ودير ياسين

وعثوري علـى هذه الإشارة لضحايا الإبادة على أنهم «المسلمين» يثير قضيتين واحدة عمليـة، والأخرى معرفية. فمن الناحية العملية لابد وأن تتناقل وكالات الأنباء هذه المعلومة حتى يتضح الإدراك الغربي لـنا، وحتى نوضح لِـمَ لَمْ يتوان الغرب عن حل جريمة اوشفتس عن طريق جريمة دير ياسين وكفر قاسم، فالمهم هو ضرب من سماهـم «بالمسلمين»، أي «الآخرين». وتـاكيد هذا المصطلح يـقلل من احتكار اليهود لفكرة أنهم الضحية الوحيدة ويثير قضية أن مانيشر من معلومات هو الذي يخدم صالح فريق بعينه، وإلا لم اختفى هذا المصطلح ولم يشر إليه أحد؟

أما من الناحية المعرفيـة، فمن الواضح أننا تحـت رحمة الغرب فنحن لا نقرأ تاريخه من منظورنـا وإنما نقرأ تاريخه كما ورد لنا من منظـوره، وهذا ليس عيباً في الغرب وإنمـا فينا نـحن، فكتـب التاريخ موجودة وكل من يـود أن يحصل عـلى المعلومـات سيجدها هنـاك، وعليه أن يعيـد تفسيرها وأن يـستنطقهـا (وهو فعل لا يوجد في اللغات الأوروبية وترجمته مستحيلة) عن طريق اكتشاف تضميناتها الخفية وعن طريـق اكتشاف حـقائق جديـدة لم تظهـر للوجود أو لـم تحرز المركزيـة التي تستحقها.

ونحن إن فعلـنا ذلك فإننا قد نصل إلى الـدلالات الحقيقية والخفية لـكثير من أحداث التاريخ الغربي، وهي دلالات لم يدركها الإنسان الغربي نفسه نظراً لحدوده الإدراكية المفهومة والمتوقعة. إن درسنا هذه الأحداث بطريقتنا قد نتوصل أيضاً إلى رصد أثرها الحقـيقي على الإنسان، وبهذا قـد نساهم في فهم الأزمة الكـونية التي وقع فيها إنسان القرن العشرين، وقد نصل إلى بعض الحلول.

٣ - الإدراك النازى لمفهوم الحكم الذاتى

قام الصهاينة وأصدقاؤهم بكتابة تاريخ النازية بطريقة تُعبِّر عن رؤيتهم وتخدم مصالحهم . ولذا أرى من الهام بمكان أن نعيد كتابة تاريخ النازية (بل وتاريخ الحضارة الغربية ككل) من منظور عربي، بدلاً من تلقى التواريخ التى كتبوها، وبدلاً من قبول طريقة تنظيمهم للأحداث، فيبقون بعضها ويركزون عليه، ويستبعدون البعض الآخر أو يهمشونه . ومن التجارب النازية الهامة التى تُذكر وكأنها واقعة عرضية لا أهمية لها، تجارب الحكم الذاتي اليهودية التي أقامتها السلطة النازية فى كثير من بقاع أوربا . وتحرص التواريخ الصهيونية على إخفاء هذه الوقائع التاريخية لأنها تبيِّن تشابه الرؤية النازية بالرؤية الصهيونية، وتبيِّن أن ثمة تعاون تم بين الطرفين . وقد اكتسبت هذه التجارب في الحكم الذاتي أهمية خاصة هذه الأيام بعد توقيع الاتفاقيات الأخيرة، لأنها قد تُلقى بعض الضوء على التصور الإسرائيلى للحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة الغربية . فقد أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق «قومية» تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس ينشتات "النموذجية" فى بوهيميا فى المجر .

جيتو وارسو

ويُعدُّ جيتو وارسو أهم هذه المناطق جميعاً، فقد بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالى نصف مليون يهودى يعيشون فى رقعة صغيرة حولها حائط طوله ثمانية أقدام، وكان له اثنان وعشرون مدخلاً يقف على كلٍّ منها ثلاثة جنود، أحدهم ألمانى والثانى بولندى مسيحى والثالث بولندى يهودى . وقد كان التعريف الذى تبناه الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قوانين نورمبرج وهو أن اليهودى يهودى بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذى تبنته دولة إسرائيل فيما بعد) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه فى ضوء المخطط النازى ذى الطابع الصهيونى الواضح الذى ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوى منبوذ ومتدنى له شخصيته القومية المستقلة . ويمكن توظيفه وتحويله لمصدر للعمالة الرخيصة ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة - خدمة بريدية - مؤسسات الرفاه الاجتماعي) . كما سُمِحَ لجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها، وبأن يصدر جريدته اليومية بل وكان لهم ميليشيا ومحاكم خاصة به، أى أن الجيتو كان بمثابة دويلة صغيرة منعزلة ثقافيًا واقتصاديًا عما حولها .

وقد كان يدير الدويلة - الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» كانت السلطات النازية تُعيِّن أعضاءه . ولكن استقلالية الدويلة - الجيتو لم تكن كاملة، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التى يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التى كان ينتجها الجيتو . كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يوميًا يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو . وقد كان العامل البولندي، يهوديًا كان أم غير يهودي، يتقاضى ربع ما يتقاضاه العامل الألمانى.

ويبدو أن النازيين قد وضعوا مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو من خلال فرض وضع غير متكافئ عليهم، بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين . إذ أن قيمة السلع التى كان ينتجها الجيتو والخدمات التى يقدمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفى باحتياجات العاملين اليهود الأساسيين، مما كان يعنى سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدَّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والجيتو - الدويلة اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية، فكانوا يموتون جوعاً - وبذلك يتم إبادة اليهود بالتدريج وببطء دون أفران غاز .

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة

مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة . فأشار إلى أنه في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢، أي في خلال ستة وثلاثين شهراً، زاد عدد الوفيات بشكل ملحوظ . فقد كان معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب ٣٥٠ كل شهر وحسب، أي أنه كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ لو أن المعدل استمر في معدله الطبيعي، ولكن الجوع والمرض (وكذا غارات الحلفاء وأحكام الإعدام) أدَّت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨ ألفاً، وهو عدد يشكل ١٩٪ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف، مما يعني أنه كان من الممكن إبادة كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت ستتسارع نحو النهاية بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو، ولذا فإن ما بين خمس إلى ست سنوات كانت كافية في تصورنا لإتمام هذه العملية .

وعلاقة الدولة النازية بدويلة - جيتو وارسو كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالضفة الغربية . وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً، ومن ثم كان يمكن التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة، على عكس الضفة الغربية حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره، الأمر الذي يجعل مصادر الحياة فيه متنوعة . وكل هذا يجعل التحكم فيه صعباً إن لم يكن مستحيلاً .

مستوطنة تيريس ينشتات النموذجية

أما التجربة الثانية من تجارب الحكم الذاتي التي تهمنا فهي تجربة مستوطنة تيريس ينشتات النموذجية Thereseinstadt .التي أُسست عام ١٩٤١ واستمرت حتى عام ١٩٤٥ . وقد رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من وسط أوربا وغربها من المتميِّزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة . وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة، باعتبار أن هذا كان يعني أن يهود تشيكوسلوفاكيا سيبقون في وطنهم . ويقال أن الهدف النازي من تأسيس هذه

المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمى باعتبارها مثالاً على "حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث" (وهو اسم أحد الأفلام التى صُورت فى المستوطنة).

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية . وقد تمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، فقد كان لها نظامها التعليمى ونظامها البريدى المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية . ومن ثم، كانت من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام فى المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافى . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائى مستقل (أى أن تيريس ينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي) . وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء .

وقد رُحِّل حوالى ١٤٠.٩٣٧ يهودياً إلى مستوطنة تيريس ينشتات من بينهم ٣٣.٥٢٩ ماتوا فيها، أى حوالى ٢٥٪، ورُحِّل حوالى ٨٨.١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال والإبادة، وكان يوجد فيها ١٧.٢٤٧ حين تم تحرير المستوطنة .

ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أى دولة فى العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التى تحكمها، والحريات التى كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التى تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي.

ولعل مزيداً من دراسة مثل هذه «الدول المستقلة» ذات الأعلام وطوابع البريد تلقى مزيداً من الضوء على التفكير الصهيونى بخصوص مستقبل فلسطين والفلسطينيين . وهذا أمر يجب أن يضعه الفلسطينيون نصب أعينهم . وعلى كلٍ هناك تجارب جنوب أفريقيا فى هذا المجال حين أقامت كانتونات السكان الأصليين التى كانت تُسمَّى «البانتوستان» .

٤ - الإدراك الغربي والصهيوني لحروب الفرنجة (الصليبيين)

على الرغم من أن حروب الفرنجة ظاهرة مرتبطة بالتشكيل الحضاري الغربي في العصر الوسيط، فقد ساهمت هذه الحروب وبعمق في صياغة الإدراك الغربي لفلسطين والعرب . ولا يملك الدارس إلا أن يُلاحِظ عمق التشابه بين المشروع الفرنجي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي، وهذا أمر متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلين الحضاريين السائدين في الغرب والشرق العربي، كما أن حملات الفرنجة هي نقطة انطلاق أوربا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج .

إمبريالية جنينية

وقد احتوت حملات الفرنجة على أجنة كافة أشكال الإمبريالية الأوربية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم (على حد قول أحد المؤرخين الغربيين لحملات الفرنجة) . ولهذا، أصبحت حملات الفرنجة استخداماً مجازيًا أساسيًا في الخطاب الاستعماري الغربي، وأصبحت ديباجاتها هي ديباجة المشروع الاستعماري الغربي . وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني، من اليهود وغير اليهود، أنه استمرار وإحياء للمشروع الصليبي أي الفرنجي ومحاولة وضعه موضع التنفيذ من جديد في العصر الحديث . فقد ألَّف سي .آر . كوندر في عام ١٨٩٧، وهو صهيوني غير يهودي ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين، كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس أشار فيه إلى أن الإمبريالية الغربية قد نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصليبية أي حملات الفرنجة . والواقع أن تصوره هذا يشبه في كثير من الوجوه تصور الصحافة البريطانية وكذلك تصور بعض أعضاء النخبة الحاكمة في بريطانيا بأن هجوم أللنبي على القدس يساوي حملة صليبية أخرى . وقد صرح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، والذي أصدرت وزارته وعد

بلفور، أن اللنبي شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصاراً . ويمكننا أن نقول أن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية .

وقد لاحظ روبرت برنارد سولومون، وهو ضابط إنجليزي ورئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني، أوجه التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني في دراسة له نشرها في **جويش ريفيو** عام ١٩١٢ تحت عنوان «مستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين» حيث أكد أن المشكلات التي واجهها المستوطنون الفرنجة ونجحوا في التغلب عليها تشبه من نواحٍ كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين الصهاينة في فلسطين ثم أخذ في تعداد هذه النواحي . كما أشار إلى العوامل التي أدّت إلى انهيار ممالك الفرنجة بعبارة "المؤثرات الشرقية التي أدّت إلى الانحلال" ليحذر المستوطنين الجدد منها .

بعض جوانب الشبه

فلنحاول حصر جوانب الشبه بين التجربتين الفرنجية والصهيونية، وتصنيفها تحت رؤوس موضوعات قد تكون متداخلة ولكنها مع هذا تيسر لنا عملية تقسيم هذه الأوجه والتعامل معها . ولعل نقطة التشابه الأساسية ذات طابع جغراسي ففلسطين هي النقطة المستهدفة في كل من المشروعين الفرنجي والصهيوني . ويبدو أن فلسطين مستهدفة دائماً من صناع الإمبراطوريات إذ أنها تُعَدُّ مفتاحاً أساسيّاً لآسيا وأفريقيا، وتُعدُّ معبراً على البحرين الأحمر والأبيض، وتقف على مشارف الطرق البرية التي تؤدي إلى العراق وإيران، وهي أيضاً معبر أساسي لشطري العالم الإسلامي . وفلسطين في واقع الأمر ليست سوى جزء من ساحل طويل يضم سوريا ومصر، يشكل فاصلاً بين البحر المتوسط في الغرب والمحيط الهندي في الشرق . ويُعَدُّ هذا الموقع، بالتالي، فاصلاً بين مراكز النشاط في أوربا الغربية والشرق الأقصى . كل هذا يبين تشابك المصير بين سوريا ومصر من جهة

وفلسطين من جهة أخرى، خصوصاً وأن الكثافة السكانية لمصر جعلتها دائماً المرشحة لقيادة المنطقة بأسرها في صراعها ضد الغزوات الغربية . ويُلاحَظ أن كلاً من المشروعين الفرنجي والصهيوني اكتشف أنه لابد، لحسم الصراع لصالحه، من ضرب مصر أو على الأقل تحييدها .

والواقع أن الغزاة الاستيطانيين عادةً ما يسلكون طريق البحر، ثم تستقر الجيوب الاستيطانية على الساحل أو تحتفظ بركيزتها الأساسية فيه كما حدث في جنوب أفريقيا والجزائر . وكذلك، فإن الغزوتين الفرنجية والصهيونية سلكتا نفس الطريق البحري واحتلتا أجزاء من نفس الشريط البحري، وإن كان الشريط الذي احتله الفرنجة أكثر طولاً من الشريط الذي احتله الصهاينة .

أما من الناحية التاريخية، فيمكن القول أن ثمة تشابهاً بين وضع العالمين العربي والإسلامي في القرن الحادي عشر ووضعهما في أواخر القرن التاسع عشر، فقد كانا في حالة انقسام وتراجع وتجزئة . فالخلافة الفاطمية في مصر كانت في حالة مواجهة مع الخلافة العباسية في العراق، وقد اقتسمتا فيما بينهما العالم الإسلامي. وكان النظامان العباسي والفاطمي يعانيان من الصراعات الداخلية والمؤامرات . وهما، في هذا، يشبهان النظام السياسي العربي المعاصر، المتجزئ، المنقسم على نفسه، المتصارع مع ذاته .

والغزوتان الفرنجية والصهيونية تهدفان إلى حل بعض مشاكل المجتمع الغربي والتخفيف من حدة تناقضاته . فالمجتمع الوسيط الغربي كان يخوض عملية بعث اقتصادي فتحت شهيته للاستيلاء على طرق التجارة المتجهة إلى الشرق . وهذا يشبه من بعض الوجوه، وإن كان بدرجة أقل، انفتاح شهية رجل أوربا الشره في القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم يهدأ له بال إلا بعد أن وقع العالم كله في قبضته . وقد استخدمت أوربا كلا المشروعين، الفرنجي والصهيوني، في التخلص مما أطلق عليه في القرن التاسع عشر الميلادي «الفائض البشري»، أي العناصر التي لم تستطع أن تحقق الحراك الاجتماعي داخل مجتمعاتها ولذا كانت تهدِّد السلام

الاجتماعي وكان لابد من تصديرها للشرق حتى يحقق الغرب سلاماً اجتماعياً داخلياً . فالمشروع الفرنجي كان يهدف أيضاً إلى تخليص أوربا من فائضها البشري الذي كان يهدد سلامها الاجتماعي حسب تصور البعض على الأقل .

استعمار استيطاني إحلالي

ومن نقط التشابه الأخرى أن المشروعين الفرنجي والصهيوني مشروعان استعماريان من النوع الاستيطاني الإحلالي . فالمشروع الفرنجي كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربية وممالك فرنجية تدين بالولاء الكامل للعالم الغربي . ولذا، لم تأت الجيوش وحسب، وإنما أتى معها العنصر البشري الغربي المسيحي ليحل محل العنصر البشري العربي الإسلامي . وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل . فغزو فلسطين تم أولاً على يد القوات البريطانية، ثم حضر المستوطنون الصهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصراً يقوم بالزراعة والقتال . وقد كانت المؤسسات الاقتصادية للفرنجة، مثلها مثل قرينتها الإسرائيلية، تتسم بطابع عسكري. كما أن التنظيم الاقتصادي التعاوني لم يكن مجهولاً لدى الفرنجة . ويمكن القول أن دويلات الفرنجة، مثلها مثل الدولة الصهيونية، كانت ترسانات عسكرية في حالة تأهب دائم للدفاع عن النفس وللتوسع كلما سنحت لها الفرصة . ويُلاحَظ أن كلاً من ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية، بسبب طبيعتها الإحلالية، خلقت مشكلة لاجئين . كما يُلاحَظ أن هؤلاء اللاجئين تحولوا إلى الوقود الذي جند سكان المنطقة ضد الدولة القلعة .

ومن المعروف أن الكيانات الاستيطانية لا تفقد صلتها قط بالوطن الأم بل تعتمد عليه اعتماداً يكاد يكون كاملاً لأنها، بسبب تناقضها الجوهري مع البيئة المحلية التي تلفظها، تستمد مقومات الحياة من دعم عسكري ومالي وهوية ثقافية ومادة بشرية من وطنها الأصلي . وهذه سمة أساسية في الكيانين الفرنجي والصهيوني، مع تنويعات فرعية تنصرف إلى التفاصيل لا الجوهر . فمثلاً اعتمدت ممالك الفرنجة على كل أوربا كمصدر للدعم، ولكن اعتمادها كان على فرنسا بالدرجة الأولى .

وكذلك، فإن الدولة الصهيونية التي اعتبرت أوربا قاعدتها الإستراتيجية واعتمدت على معظم دول العالم الغربي الرأسمالي مع التركيز على بلد واحد هو إنجلترا ثم فرنسا ' رة قصيرة وأخيراً الولايات المتحدة منذ منتصف الستينيات . ومع سقوط الا ىراكية في الاتحاد السوفيتي تطرح الدولة الصهيونية نفسها باعتبارها قاعدة للحضارة الغربية كلها في مواجهة العالم الإسلامي . ويشير أحد الدارسين الإسرائيليين إلى أنه كان هناك جباية فرنجية موحدة تماماً مثل الجباية اليهودية الموحَّدة .

وقد جاءت المادة البشرية لكلا المشروعين من العالم الغربي . ولكنهما، مع هذا، لم يحققا التجانس العرقي المطلوب لتحقيق شيء من التوازن داخل التجمع الاستيطاني، فتولدت درجة عالية من التوتر . فممالك الفرنجة كانت تضم في بادئ الأمر عنصراً فرنسيًّا غالباً بالإضافة إلى عنصر إيطالي انقسم بدوره إلى جنوي وبندقي نسبة إلى جنوة والبندقية . ولكن عناصر أخرى انضمت إلى هذين العنصرين، مثل : الأرمن وبعض العناصر المسيحية المحلية والمسلمين الذين تنصروا. كما أن ممالك الفرنجة ذاتها استوعبت، بمرور الزمن، العناصر الثقافية من البيئة المحلية . ولكن، ومع هذا، يمكن القول أن ممالك الفرنجة احتفظت بقدر من التجانس أعلى بكثير مما حققه الكيان الصهيوني . فهذه الممالك ظلت فرنجية (فرنسية)، كما أن أعضاء النخبة الحاكمة التي كانت عناصرها الأساسية من الفرنجة ظلت متماسكة، وكذلك كانت الهوية الثقافية مستمدة من فرنسا . ويُلاحَظ أن أوربا في ذلك الوقت لم تكن قد انقسمت بعد إلى كيانات قومية لكل منها لغتها، وكانت اللاتينية هي لغة العبادة والفكر . وكان التشكيل الحضاري يتمتع بشيء من الوحدة الثقافية، على الأقل، بالقياس إلى فترة التفتت القومي التي بدأت بعصر النهضة .

وقد حاول التجمع الصهيوني أن يحتفظ بهوية أشكنازية متجانسة تستند إلى تجربة شرق أوربا . ولكن أوربا، في القرن التاسع عشر الميلادي، كان تشكيلها

الحضاري مقسماً إلى كيانات قومية مختلفة تتحدث لغات مختلفة، فجاء يهود من المجر ورومانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا، كلٌ يتحدث لغته . وجاء من شرق أوربا ذاتها أنواع غير متجانسة، فثمة يهود جاءوا من بولندا يتحدثون البولندية، وآخرون جاءوا من رومانيا يتحدثون الرومانية، ومن روسيا جاء من يتحدث الروسية إلى جانب الأغلبية التي تتحدث اليديشية . كما كان النسق الديني اليهودي في حالة تفتت وتراجع ومن ثم نجد أن هناك يهوداً أرثوذكساً ويهوداً إصلاحيين أو محافظين أو قرائين . . . إلخ . ثم اجتاحت التجمع الصهيوني الكثافة السكانية الوافدة من العالمين العربي والإسلامي والتي غيَّرت من بنيته السكانية وتوجهه الثقافي بحيث أصبحت أغلبية العنصر اليهودي شرقية تحكمها أقلية أشكنازية . ولكن الدولة الصهيونية تحاول مع هذا أن تحتفظ بالتوجه الأشكنازي للمجتمع، إذ يتضح هذا في تشجيع الهجرة من الاتحاد السوفيتي وفي المناخ الثقافي الذي تفرضه المؤسسة الحاكمة، وهذا الوضع يولد الكثير من التوتر .

ويُلاحظ الصحفي الإسرائيلي يوري أفنيري أن كلاً من التجمعين الفرنجي والصهيوني تكوَّن من ثلاث طبقات ذات طابع عرقي : الطبقة الحاكمة من المسيحيين الغربيين في دويلات الفرنجة يقابلها اليهود الأشكناز في الدولة الصهيونية . ثم يأتي في المرتبة الثانية مواطنو الدرجة الثانية من المسيحيين الشرقيين في دويلات الفرنجة يقابلهم اليهود الشرقيون في الدولة الصهيونية . وأخيراً يأتي مواطنو الدرجة الثالثة وهم المسلمون واليهود وبعض المسيحيين العرب في دويلات الفرنجة، والمسلمون والمسيحيون العرب في الدولة الصهيونية .

مجتمع مشتول

والمجتمع الاستيطاني مجتمع مزروع أو مشتول في العادة، فهو يأخذ شكل الدولة الجيتو أو الدولة القلعة . ونشير له الآن بأنه الدولة الشتتل . والشتتل هي المدن الصغيرة التي أسسها النبلاء البولنديون (شلاختا) في أوكرانيا لأعضاء الجماعات اليهودية ليقوموا بدورهم الذي أوكل إليهم في جمع الضرائب

والإيجارات والإشراف على إدارة ضياع هؤلاء النبلاء حيث كانت تحميهم القوة العسكرية الـ ـلندية . وهذا المجتمع منعزل عن بيئته وينصرف جزء كبير من نشاطه إلى عمل . القتال ضد السكان المحليين . وهذه مسألة ليست عرضية وإنما هي مسألة جوهرية وتنبع من الوظيفة ذاتها . والعالم الغربي يزود الجيوب الاستيطانية بالعون ومقومات الحياة حتى تظل ركيزة لنشاطاته الإمبريالية والتوسعية . وينطبق هذا الوضع على الجيبين الفرنجي والصهيوني، وإن كان يبدو أن الدعم الغربي للجيب الصهيوني يفوق الدعم الغربي للجيب الفرنجي . ولعل هذا يعود إلى أن الغرب أدرك وظيفة الجيب الصهيوني كاستثمار إستراتيجي يأتي بعائد اقتصادي غير مباشر عن طريق تهدئة المنطقة وليس كاستثمار اقتصادي يأتي بعائد اقتصادي مباشر . وربما لم تكن لدى أوربا في العصور الوسطى الرؤية الإستراتيجية الشاملة التي يمتلكها الغرب في الوقت الحاضر .

ويبدو أن أزمة التجمع الفرنجي لا تختلف عن أزمة التجمع الصهيوني . فيُلاحَظ أن الكيان الفرنجي كان يعاني من أزمة سكانية لا تختلف كثيراً عن أزمة المستوطن الصهيوني، وذلك نظراً لانخفاض عدد سكان أوربا عام ١٣٠٠ بعد انتهاء فترة تزايد السكان، الأمر الذي أدَّى إلى عدم مجيء المزيد من المادة البشرية، كما كان الكيان الفرنجي يعاني من تناقص نسبة المواليد . وكان كثير من الأراضي التي ضمها الفرنجة يزرعها سكانها الأصليون العرب . بل إن بعض الأقنان الذين جاءوا مع حملات الفرنجة اشتغلوا بأعمال أخرى غير الزراعة، نظراً لعدم درايتهم بالتربة وربما لتفتح فرص اقتصادية أخرى بحيث أمكنهم العمل في التجارة . وهذا يشبه الزحف التدريجي للعرب على الزراعة داخل المستوطن الصهيوني بما في ذلك الكيبوتسات، وتحول المستوطنين الصهاينة إلى مهام أخرى غير الزراعة .

الديباجات والقصد

ولا تنحصر نقاط التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني في الظروف الاجتماعية والجغرافية المحيطة بكل منهما، ولا في بنية الكيانين فقط، وإنما تمتد نقاط التشابه هذه لتضم الديباجات والقصد . فقد قدمت تبريرات للمشروعين وتم الدفاع عنهما عن طريق ديباجات دينية تستخدم الرموز الدينية وتوظفها في عملية التعبئة العسكرية . والرموز الدينية المستخدمة هي في واقع الأمر رموز عرقية أو إثنية أو قومية على الرغم من طلائها الديني اللامع . ويتبدى هذا في واقع أنه لا حملات الفرنجة ولا الحملة الصهيونية تحتكم إلى القيم الأخلاقية المسيحية أو اليهودية، ولا يوجد لدى أي منهما استعداد لأن يُقيِّم سلوك المقاتلين التابعين لها من منظور مسيحي أو يهودي . فلم يكن الصليب في الحروب التي يقال لها «صليبية» رمزاً للنسق الديني المسيحي وإنما كان رمزاً للهوية الإثنية الغربية المغرقة في الدنيوية، كما أن نجمة داود كان يستخدمها الصهاينة الذين لا يعرفون إلا القليل عن الدين اليهودي ولا علاقة لهم بالنسق الديني اليهودي . فالحملات التي يقال لها «صليبية»، أو تلك التي يقال لها « صهيونية»، هي إذن تعبير عن قوى غير دينية استولت على الرموز الدينية ووظفتها مثلما استولت فيما بعد على الأراضي وقتلت أصحابها .

ومن هنا كانت عنصرية الديباجات الصليبية والصهيونية . ومن هنا أيضاً كان تمييزها الحاد بين البشر وتقسيمهم إلى أدنى وأعلى، أو حاضر وغائب، أو فئة لها كافة الحقوق وفئة لا حقوق لها على الإطلاق . . . إلخ . وهذا مختلف تماماً عن إيمان الديانات التوحيدية الثلاث بالمساواة بين البشر والتي تصدر عن الإيمان بأننا نولد جميعاً من آدم وآدم من تراب .

ويُلاحَظ أن ديباجات الفرنجة والصهاينة ترى غزو فلسطين في إطار فكرة أن الغزاة شعب مقدَّس أو مختار . وكان يسيطر على كل من الفرنجة والصهاينة تفكير نخبوي يجعل زعماءهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم طلائع شعوبهم التي

ستحمل السلاح لتخلص الأرض المقدَّسة، وأن هذه الحملة العسكرية إن هي إلا خروج ثانٍ يشبه خروج العبرانيين من مصر إلى كنعان . وقد ارتبطت الديباجات في كلا المشروعين بالأحلام الألفية في استرجاع فلسطين بعد عودة المسيح أو تمهيداً لعودته .

حملات الفرنجة في الوجدان

نظراً للتشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني، ونظراً لأن كليهما اتخذ فلسطين ساحة لتنفيذ أحلامه، نجد أن الوجدان الصهيوني منشغل إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي، خصوصاً وأن الفرنجة قد رحلوا ولم يتركوا شيئاً خلفهم سوى بعض القلاع التي يزورها السائحون ويدرسها علماء الآثار من الإسرائيليين والعرب.

ويحاول الدارسون الصهاينة أن ينظروا إلى مشروع الفرنجة من منظور ما يسمونه «التاريخ اليهودي» وكأن حملات الفرنجة جردت بالدرجة الأولى ضد اليهود، تماماً مثلما يمنحون مركزية للجماعات اليهودية في كل الأحداث التاريخية . وتتحدث الكتابات الصهيونية الإسرائيلية عن ضحايا حملات الفرنجة وكأنهم هم الضحايا الوحيدون، بل وتدعي بعضها دوراً يهوديّا مستقلاً في صد الفرنجة، وهو الأمر الذي يتنافى تماماً مع حقائق التاريخ، ومع ما ورد في كتابات بعض الرحالة اليهود المعاصرين مثل بنيامين التوديلي، فإن مدينة صور كانت (في عام ١١٧٠) تضم خمسمائة يهودي على حين كانت كلٌّ من عكا وقيصرية تضم مائتين، وكانت عسقلون تضم مائتي يهودي حاخامي . وتشير موسوعة التاريخ اليهودي إلى أن هذه هي الجماعات اليهودية الكبيرة ! ويذكر العالم اليهودي الإسباني موسى بن نحمان (نحمانيدس) أنه وجد في القدس عام ١٢٦٧ يهوديين اثنين فقط .

ولكن أهم جوانب الاهتمام الصهيوني الإسرائيلي بالكيان الفرنجي هو دراسته من منظور الصراع العربي الإسرائيلي، بمعنى عقد الدراسات المقارنة في مشاكل الاستيطان ومشاكل الموارد البشرية والعلاقات الدولية فضلاً عن محاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت بالكيان الفرنجي . وهناك من يهتم بدراسة

المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي، ومن يهتم برصد العلاقة بين هذا الكيان والكيان الأوربي المساند له . وقد وجه فريق من الباحثين اليهود اهتمامه لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة .

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل رابين وديان وأفنيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة . ففي سبتمبر ١٩٧٠، عقد إسحق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصَّل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها . ويعقد أفنيري في كتابه **إسرائيل بدون صهيونية** (١٩٦٨) مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية لا تختلف كثيراً عن المقارنة التي عقدناها في الجزء الخاص بهذا الموضوع والذي استفدنا فيه بتحليله الذكي . ولكن أفنيري يخلص إلى أن المقارنة درس لابد وأن يتعلم منه الصهاينة، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة محاصرة عسكريًا لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا مفر منه) كما يتصور بعض الصهاينة، وإنما هي محاصرة عسكريًا لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين .

وقد عاد أفنيري إلى الموضوع، عام ١٩٨٣، بعد الغزو الصهيوني للبنان، في مقال نشر في **هاعولام هزه** بعنوان "ماذا ستكون النهاية" فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة . وحينما كان يقوم جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تضيع سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين، مما يعني أن ممالك الفرنجة لم تفقد قط طابعها الاستيطاني . كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين . ثم بدأ الإرهاق يحل

بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أضعف المجتمع الاستيطاني للفرنجة، كما ضعف الدعم المالي والسكاني من الغرب . وفي الوقت ذاته، بدأ بعث إسلامي جديد، وبدأت الحركة للإجهاز على ممالك الفرنجة، فأوجد المسلمون طرقاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليها الفرنجة . وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النخبة في المما ـ، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهر فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس . وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة، كما لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم النهائية. وقد ترك هذا الحدث التاريخي بصماته وآثاره على وعي شعوب المنطقة حتى اليوم .

والواقع أن اهتمام المستوطنين الصهاينة بممالك الفرنجة هو تعبير عن إدراك أوَّلي لطبيعة دورهم في المنطقة كدولة وظيفية تكون مجرد أداة في يد قوى عظمى خارجية، وهو إحساس يشوبه قسط كبير من القدرية والعدمية الناجمة عن إحساس الأداة بأنها لا تمتلك ناصية أمورها ولا تسيطر على مصيرها أو قدرها .

الفصل الرابع

فى تفكيك الإدراك الصهيونى

١ - معاداة اليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات

٢ - الصهيونية والرومانسية: إعادة التفكير فى طرق التفكير

٣- الإدارك والمقدرة التنبئية للنموذج

١ - معاداة اليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات

في الفصول الثلاثة السابقة تناولنا كيف يؤثر الإدراك في سلوك البشر، كما تناولنا طبيعة الإدراك الصهيوني الإسرائيلي للعرب. ويمكننا أن نتقدم خطوة للأمام في هذا الفصل ونقوم بتفكيك هذا الإدراك الصهيوني لنرى كيف يتشكل وكيف يعيد صياغة الواقع. وقد نجح الصهاينة في إشاعة إدراكهم للواقع عن طريق تناول أحداث ووقائع وأساطير العداء لليهودية، بعد تجريدها من سياقها التاريخي والاجتماعي والإنساني بحيث يمكنهم فرض معنى صهيوني عليها. وهذا ما يمكن أن يحدث لأية واقعه تاريخية تتحول إلى مجرد واقعة ليس لها أبعاد تاريخية. وقد تسرب هذا الإدراك الصهيوني إلى وجداننا وأصبح - دون أن نعي - جزءا من ترساناتنا الإدراكية. وفي هذا الجزء سنتناول ثلاث وقائع عادة ما يشير لها الصهاينة في كتاباتهم، وسنحاول أن نبين كيف يفرضون الدلالة الصهيونية عليها، أي أننا سنقوم بعملية تفكيكية توضح لنا النماذج الإدراكية الصهيونية الكامنة وكيف تنجح هذه النماذج في أن تعيد صياغة الواقع واختزاله بما يخدم الرؤية والمصالح الصهيونية. ولكننا في هذه الدراسة لن نقف عند هذا الحد بل سنقوم بعملية تركيبية وسنحاول أن نطرح تصوراً أكثر عمقا وإنسانية وتفسيرية لنفس الوقائع والأحداث، وسننجز ذلك عن طريق ربط الوقائع التي وردت في الكتابات الصهيونية بوقائع أخرى استبعدها الصهاينة بحيث تظهر الأنماط التاريخية الإنسانية العامة. كما أننا سنضع هذه الوقائع في سياقها التاريخي والإنساني وبذلك تكتسب معناها التاريخ الإنساني الأعمق الذي يحرص الصهاينة على حجبه.

الوقائع الثلاث

أولى الوقائع هو مايسمّى بـ «تهمة الدم» أى اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبياً مسيحياً فى عيد الفصح، سخرية واستهزاء من صلب المسيح. ونظراً إلى أن عيد الفصح المسيحى واليهودى قريبان، فقد تطوّرت التهمة وأصبح الاعتقاد بأن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم فى طقوسهم الدينية وأعيادهم، وخصوصاً فى عيد الفصح اليهودى الذى أشيع أن خبز الفطير غير المخمّر (الماتزوت) الذى يؤكل فيه يعجن بدماء الضحية.

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر الأغريق والرومان، أى إلى ماقبل العصور المسيحية. فقد أتى فى كتابات آبيون الهيليني (السكندرى) وديمقريطس الرومانى إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية الى آلهتهم. ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من صورة اليهود الذهنية، ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا فى القرون الوسطى المسيحية فى العالم الغربى.

وقد وجهت أول تهمة دم فى القرن الثانى عشر فى انكلترا، فى وقت كان اليهود يمارسون نشاطهم التجارى والمالى، ممّا كان يعنى أن أفراداً كثيرين اقترضوا أموالا من المرابى اليهودى، ولم ينجحوا فى تسديدها. وآلت ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم الى المرابى. وقد اتهم اليهود حينذاك بأنهم ذبحوا طفلاً عمره أربعة أعوام ونصف العام، يدعى وليام فى الجمعة الحزينة فى عام ١١٤٤. وقد قال أحد اليهود المتنصّرين أن هذا هو عيد الفصح الذى تقوم فيه إحدى الجماعات اليهودية فى إحدى مدن أوروبا بذبح طفل مسيحى (وقد نُصّب وليام قديسا فيما بعد). ثم وُجّهت تهم دم أخرى فى مناطق مختلفة فى انجلترا، بين العامين ١١٦٨ و ١١٩٢. وقد انتشرت التهمة إلى فرنسا، فوجّهت التهمة فى بلوا، فى العام ١١٧١. كما وجهت التهمة إلى اليهود خمس عشرة مرة فى القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيومن لنكولن (١٢٥٥) التى يذكرها تشوسر فى حكايات

كانتربرى. وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين، ومن أشهرها حادثة دمشق (١٨٤٠) وقضية بيليس (١٩١٣). وتعد حادثة دمشق استثناء فى أنها حدثت فى العالم الاسلامى؛ اذ أنها تكاد تكون ظاهرة مقصورة على العالم المسيحى. وكانت تهمة الدم تأخذ عادة الشكل التالى: يختفى شخص مسيحى (فى العادة طفل) أو يوجد ميتاً، فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل شوهد آخر مرة بجوار الحى اليهودى أو أن هناك عيداً يهوديا ما (تتطلب شعائره دم نصرانى) فيوجّه إلى اليهود تهمة قتله ويتم القبض على بعض أعضاء الجماعة اليهودية، ويتم تعذيبهم ثم شنق بعضهم.

أمّا الواقعة الثانية، فهى حادثة دريفوس الشهيرة، وبطلها هو الفريد دريفوس الذى كان من كبار الضباط الفرنسيين وكان اليهودى الوحيد فى هيئة أركان الجيش الفرنسى، وقد ولد دريفوس فى الالزاس لامرأة يهوديه ثرية مندمجة فى محيطها الفرنسى. ونظرا إلى إن اسمه كان فلهاوزن، وهو اسم ألمانى النكهة، فقد غيره الى اسمه الفرنسى الذى اشتهر به. وقد اتهم دريفوس بأنه أعطى وثائق سرية عسكرية للملحق العسكرى الألمانى فى باريس، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب ألمانيا فى عام ١٨٨٤. وقد قامت السلطات العسكرية بمحاكمته. وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث. وكانت تعبئ الرأى العام ضد دريفوس، مما خلق جواً غير ملائم لضمان حياد المحاكمة. وفى نهاية الأمر، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة، وجرد من رتبته علناً أمام الجماهير، ونفى إلى «جزيرة الشيطان» (ديفلز ايلاند) التى تقع على الساحل الأفريقى. وكانت مستعمرة من قبل فرنسا. وقد رحّبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم.

أما الواقعة الثالثة، فهى حادثة ليوفرانك، وهو يهودى أمريكى ولد فى تكساس ونشأ فى بروكلين. وكان يعمل مديراً لمصنع أقلام فى اتلانتا جورجيا، حيث قبض عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ١٣ عاماً، تدعى مارى فيغان، بعد محاولة اغتصابها. وقد حوكم فرانك وأصدر حكم بإعدامه ويقال أن كونه يهودي كان

عنصراً هاماً أثر في محاكمته وفي الأحداث التي تلتها. وحينما خفّف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واختطفت فرانك وشنقته فى المدينة التى ندت ودفنت فيها ضحيّته المفترضة، وهو مايسمى فى اللهجة الانكليزية ـ الأمريكية Lynching

«تهمة الدم» فى سياقها التاريخى

وترد الوقائع الثلاث السابقة فى الكتابات الصهيونية بهذا التجريد. والنتائج التى يستخلصها القارىء، أو التى تُستخلص له، هى أن اليهود لاينتمون إلى مجتمعاتهم؛ إذ أن مجتمعات الأغيار تنبذهم وتضطهدهم، لا لذنب اقترفوه سوى لأنهم «يهود». والفارق الوحيد هنا بين الصهاينة وأعداء اليهود أن الفريق الثانى يقول أن كل المجتمعات تنبذ اليهود وتضطهدهم لأنهم يستحقون ذلك. ولكن الفريقين يتفقان على حتمية النبذ والاضطهاد، بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وبالتالى حتمية خروجهم.

وطبيعة اليهود الخاصة هذه هى التى تصبح «القومية اليهودية» فى الخطاب الصهيونى، أما الاضطهاد «والنبذ» فيصبحان الحركة الطاردة من المجتمعات الأصيلة، و«الخروج» يصبح الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين. وبالتالى، فنحن من منظور أخلاقى ومعرفى وعملى، يجب أن نقف ضد معاداة اليهود. ومن النادر أن نجد مثل هذا التوافق شبه الكامل بين المستويات الثلاثة المتناقضة فى أية قضية من القضايا؛ إذ عادة مايوجد تناقض بين المنظورين الأخلاقى والعملى، كما أن المنظورين المعرفى والأخلاقى قد لايتفقان بالضرورة.

ولنبدأ بتهمة الدم، ولنحاول أن نضعها فى سياق تاريخى إنسانى عام. ظهرت تهمة الدم بعد أن تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الغربى إلى جماعات وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا. وكان يتم تشبيههم بالأسفنجة التى تمتص نقود كل الطبقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يعتصرها

الإمبراطور لحسابه بعد ذلك (وهو أمر لم تكن تدركه الطبقات الشعبية). ومن هنا الإشارة إلى اليهود كأعضاء جماعة وظيفية وسيطة (لا إلى اليهود كيهود) على أنهم مصاصو دماء. وليس من الصعب على الوجدان الشعبي تحويل المجاز إلى حقيقة.

وتوجيه تهمة الدم كان يعني في واقع الأمر شنق عدة يهود، من ضمنهم عدد كبير من المرابين، فقد كانت هذه هي إحدى أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري الغربي. وكان هذا يعني في كثير من الأحيان سقوط الديون؛ أي أن توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخطيط لسرقة مصرف من المصارف؛ وشنق اليهود كان بمثابة النجاح في هذه العملية، وهي عملية تشبه، أيضاً، عمليات روبن هود، الذي كان يسرق من الأثرياء ليعطي الفقراء. ولكن الخزانة الملكية كانت تستفيد أحياناً من تهمة الدم، حينما كانت ترث ديون المرابي الذي يُشنق أو يطرد. إن النخبة الحاكمة كانت تنتهز الفرصة لابتزاز أعضاء الجماعة اليهودية لحمايتهم.

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي؛ وهي عادة اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم. وقد اتُهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم؛ كما وجهت التهمة عينها الى المسيحيين الأول، وكذلك الى الغنوصيين، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية في عام ١٤٦٦. وقد اتهم المبشّرون المسيحيون في الصين، في عام ١٨٧٠، بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين، ليصنعوا منهم دواء سحرياً. واتهم الأجانب في مدغشقر، في عام ١٨٩١، بابتلاع قلوب البشر. أما الرهبان الدومينكان، فقد اتهمهم أعداؤهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل يهودي في بعض طقوسهم السرية! أي أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود. وإذا كان المرابون الآخرون في العصور الوسطى الغربية، مثل اللومبارد والكوهاسين (وهم مسيحيون) لم توجه إليهم تهمه الدم ـ حسب علمنا ـ فقد وجّهت إليهم تهم أخرى، لا تقل عنها سوءاً؛ كما أنهم كانوا عرضة للطرد، وللمصادرة، والشنق.

وقد ساعد تكرار مناظر الدم والقتل في العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين. كما أن طقوس اليهود الدينية، خاصة طقوس عيد الفصح، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء الأغلبية، الأمر الذى كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها (هذا مع العلم بأن العهد القديم يمنع شرب الدم، أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه).

ولم يكن اليهود يقفون في مقابل الأغيار كما يدّعى الصهاينة بذلك. فالنخبة الحاكمة (الكنيسة والامبراطورية والملوك) كانت تدافع عن أعضاء الجماعة ضد التهم التي كانت توجّهها إليهم عامة الشعب. فبين البابا انوسنت الرابع، في مرسوم أصدره عام ١٢٤٥، أن التهمة باطلة، وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود. ودافع البابا غريغورى العاشر، في مرسوم أصدره عام ١٢٧٤، عن اليهود. كما فعل بابوات آخرون الشيء عينه. وفي عام ١٧٥٨ أصدر الكاردينال لورنزو جانجانلي (البابا كليمنت الرابع عشر، فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم. وقد أصدر التحريم عينه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (حكم من ١١٩٤ إلى ١٢٥٠) وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج في عام ١٢٧٥. وقد أصدرت الحكومة في بولندا، في العصور الوسطى، قراراً بأن من يوجّه التهمة إلى اليهود دون أن يثبتها ببراهين قاطعة يحكم عليه بالإعدام. وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها؛ ولكنهم، مع هذا، فشلوا في مسعاهم، واستمرت تهمة الدم مرتبطة، ارتباطا وثيقاً، بصورة اليهودى، حتى عهد قريب.

أما تهمة الدم في حادثة دمشق، فقد كانت مرتبطة بالصراع بين الاستعماريين البريطاني والفرنسي اللذين كانا يتنافسان على مدّ نفوذهما عن طريق «حماية أعضاء الأقليات الدينية». فكان الفرنسيون «يحمون» الكاثوليك والمارونيين (الذين وجّهوا تهمة الدم) وكان البريطانيون، نظراً الى عدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد

كبيرة فى العالم العربى، «يحمون» اليهود، خاصة وأن روسيا، وهى بلدهم الأصلى، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، ولأن روسيا لم يكن لها أطماع فى الشرق الأوسط، إذ أن مشروعها الاستعمارى كان موجهاً إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثمانى فرماناً يجرّم فيه تهمة الدم.

المسألة إذن أكثر تركيبا مما يصورها الصهاينة، فتهمة الدم ظاهرة شعبوية، ليست مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية. كما أن العالم لم يكن ينقسم إلى يهود وأغيار، فالسلطات الحاكمة كانت تقف في صف اليهود، إما لأسباب دينية(كما هو الحال مع الكنيسة) أو لأسباب اقتصادية(كما هو الحال مع الأباطره) أو لخليط منها(كما هو الحال مع الخليفة العثماني).

دريفوس والصراع بين الكنيسة والقوى العلمانية

أما الواقعة الثانية، فهى واقعة الفرد دريفوس، التى وُصفت بأنها تركت أثراً عميقاً فى هرتزل، إلى درجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج، فتبنى بدلاً من ذلك الحل الصهيونى. وهذه فى حد ذاتها عملية تبسيط فجّة للعوامل التى أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية. ولكن من الحقائق التى لاتوردها المراجع الصهيونية أن هرتزل نفسه كان مقتنعا فى بادىء الأمر بأن دريفوس كان مذنباً وخائنا، ولا أعرف ما الذى جعله يغير رأيه فيما بعد. ولكن ليس هذا هو موضوع الحديث، ولذلك فلنحاول أن نضع واقعة دريفوس فى إطارها التاريخى والاجتماعى والإنسانى.

ابتداء، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية، لأسباب وجيهة. فالقوات الفرنسية كانت تجنّد كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الالزاس واللورين للعمل جواسيس لحسابها. ولذا ساد الاعتقاد بأنه لابدّ وأن ألمانيا ذاتها كانت تفعل الشىء نفسه (وهو أمر متوقع). ويجب أن نتذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوروبى لليهود، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات التاريخية. ففى القرن السابع عشر، لعب

أفراد الجماعات اليهودية فى أوروبا دوراً أساسياً فى عملية التجسس بين الدول؛ وقد حاول اوليفر كرومويل أن يخطب ود اليهود ويوطنهم فى انكلترا، حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له.

ويلاحظ أن تلك الفترة شهدت كساداً اقتصادياً فى أوروبا، الأمر الذى أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية. فكان عدد الإيطاليين ١١٢ ألفا فى عام ١٨٧٢، ازداد الى ٣٠٠ ألف فى عام ١٨٩٠. وقدجاء معهم قرويون، من القرى الفرنسية، يتحدثون لهجاتهم المحلية، مثل البريتون والأفيرنيان Auvergnat، كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد أصبطغوا بعد بالصبغة الفرنسية. ووصلت أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا، الذين يتحدثون اليديشية (وهى رطانة ألمانية). وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب. كما أن تزايد يهود شرق أوروبا ويهود الالزاس واللورين على حساب العنصر اليهودى الفرنسى المحلى أدى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب. ومن المعروف أنه فى فترات الكساد الاقتصادى، تتعرض العناصر الأجنبية للهجوم من قبل السكان المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنها سبب الأزمة، إذ أن العامل الأجنبى يرضى بأجر أقل ومستوى معيشى أكثر انخفاضاً. علاوة علي هذا، كان الجو العام فى فرنسا آنذاك متوتراً، خاصة بالنسبة إلى أفراد الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسى على يد الألمان فى عام ١٨٧٠، إذ كانت العناصر الليبرالية (التى كانت تضم نسبة عالية من اليهود) تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا. كما أن المد العلمانى كان آخذا فى التزايد، وفى الاصرار على فصل الدين عن الدولة بشكل كامل. ويجب أن نتذكر أن الثورة الصناعية قد اقتلعت الكثيرين من جذورهم، وأدت إلى افقارهم، وقذفت بهم الى المدن الكبرى مثل باريس. وكان المقتلعون هؤلاء يشعرون بعدم الأمن تجاه المجتمع الجديد، بعلمانيته وثوريته وقيمه التجاريةوالذى كان اليهود يتواجدون في مركزه. إضافة إلى ذلك، كان هناك

عدد كبير من اليهود بين قادة كومونة باريس فى عام ١٨٧١ . وقد أدى هذا كله الى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية فى المجتمع. وعلى الرغم من هذا ارتبط اليهود (عبر تاريخ أوروبا، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث) بالمصالح المالية الكبيرة بالمصارف وبالشبكات المالية والتجارية، وهى صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد فى عالم التجارة والمال.

وهكذا أصبح اليهودى رمزا متبلوراً لكثير من العناصر المتناقضة ومحط شك الجماهير وكرهها، فهو الأجنبى البغيض، وهو الثورى العلمانى التقدمى الذى يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر، ولايكترث بأية قيمة سوى الربح، ولا يرتبط بأية أرض سوى السوق. وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره الزاسياً وأجنبياً وعضواً فى طبقة المموّلين الأثرياء.

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التى كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرقية، وتطرح صورة لمجتمع مبنىّ على التضامن المسيحى، والتكافل الاجتماعى، والتعاون الاقتصادى، يقف على الطرف النقيض من المجتمع الصناعى الجديد، المبنى على التنافس والتقاتل، والذى يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح وللأقوى وحسب. وقد انضمت غالبية أفراد الجماعة اليهودية المتمركزين فى العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التى أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة. فاليهودى كان بلا شك رمزاً هاماً للقوى الجديدة؛ ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة؛ إذ أنه كان جزءا من كل، والكل هو القوى الاجتماعية المتصارعة فى المجتمع الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر، والتى كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها. وقد حوّلت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة صراع فيما بينها.

ففى عام ١٨٩١، اكتشف جورج بيكار، رئيس مخابرات الجيش الفرنسى والبطل الحقيقى لواقعة دريفوس، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه، وتشير بأصابع الاتهام الى شخص آخر هو الميجور استرهازى، الذى كان قد لعب دوراً

هاماً فى سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس. وقد حاول بيكار إقناع المسئولين بإعادة المحاكمـة، ولكنه أمر بالتزام الصمت، ونُقل إلى تونس ب ذلك.

رقد شُنت حملة أعلامية مكثّفة، قـادها المفكّر الفرنسى اليهودي، برنارد لازار، للمـطالبة بإعـادة النظر فى الـقضية؛ وكـتب مقالات عدّة دافـع فيها بحـماس عن دريفوس، كمـا طالب رئيس مجلـس الشيوخ الفرنسـى بإعادة النظر في الـقضية، لاقتناعه بـبراءة دريفوس. وتحت إلحاح الموقف المـتفجر وإصرار بيكار قُـبض على الميجور إسترهازى، وحوكم ذراً للرماد فى العيون، ولكنه بُرّىء بسرعة، لعدم كفاية الأدلة. فكتب الروائي الفرنسى إميل زولا سـلـسلة مقالات تحت عنوان «إنى أتهم» هاجم فيها المحاكمـتين؛ وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالقذف العـلنى، وحكم عليه بالسجن، فهرب الـى انجلترا. وفجأة برزت أحداث جديدة غيّرت مـجرى القضية، فقد انتحر شاهـد الإثبات الأول فى القضية، الكولونيل هـيوبرت جوزيف هنرى، فى أثنـاء استجوابـه، وذلك بعد أن اعتـرف بتزويره للـوثائق التـى أدت إلى إدانة دريفـوس. وعندما عـلم إسترهـازى بحادث الانتـحار، اعترف بـجريمته، وفـرّ إلى انجلترا. وفى صيـف عام ١٨٩٩، أمرت محكمة النقض بإعادة مـحاكمة دريفوس فى ضوء الأحـداث التى استـجدت، ولكن تحـت ضغط بعـض الشخصـيات ذات النفوذ فى الجيـش أعلن، مرة أخرى، أنه مذنب. وفى هذه المرة حُـكم عليه ـ مع مراعاة الظروف المخففة ـ بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمساً منها فى المنفى. وبعد أيـام عدة، أمر الرئيـس الفرنسى أمـيل لوبيه بـالعفو عنـه وقد حثّه كثـير من أصدقائه والمدافـعين على استئناف المعركـة لإثبات براءته التامة، لأن القضـية قضية مبدئية تتجاوز الأشـخاص، غير أن دريفوس نفسه لم يكن مدركاً لـلأبعاد السياسية التى اتخذتها هذه القـضية، فكان كل مايتمناه، وتتمناه عائلتـه الثرية المندمجة، هو الإفراج عنه، سواء عـن طريق العفو أو التبـرئة؛ ولذا قبل قرار العفـو. أما بيكار فقد أصبح بطلاً قومـيا، ورقّاه رئيس الجمهورية الى مرتبة بريـغادير جنرال، وعيّن فيما بعد وزيراً للحرب.

وقد أعيدت محاكمة دريفوس، مرة أخرى، في عام ١٩٠٣، بضغط من القوى العلمانية والثورية، وصدر الحكم بتبرئته، وأعيدت إليه حقوقه السابقة؛ وعيِّن في هيئة الأركان، مرة أخرى، بوظيفة مأمور، وتلقى وسام شرف؛ ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة. وقد عُين في أثناء الحرب العالمية الأولى كولونيلاً وقائداً لأحد قطاعات باريس. وقد عمقت هذه القضية الخلافات الموجودة بين مؤيدي، وخصوم، النظام الجمهوري في فرنسا، وأدّت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية، وكانت وراء القانون الذي صدر في عام ١٩٠٥، بفصل الدين عن الدولة.

إن قضية دريفوس لم تكن قضية بسيطة، كما أنها لم تكن قضية يهودية فدريفوس ذاته كان يهودياً ولكنه لم يكن بطل القصة، وإنما موضوعها وساحتها. أما بطل القصة الحقيقي فلم يكن يهوديّ، كما أن القوى المتصارعة(العلمانيين ضد الدينين) لم يكن اليهود سوى عنصر واحد من عناصرها الكثيرة، فالقضية كانت قضية خاصة بالمجتمع الفرنسي في إحدى مراحل تحوله الهامة بعد تصاعد معدلات العلمانية فيه. ولا يمكن فهم القضية بالعودة إلى التاريخ اليهودي أو حتى تاريخ الجماعة اليهودية في فرنسا وإنما بالعودة إلى تاريخ فرنسا، وتاريخ أوربا ككل.

واقعة ليو فرانك

أما الواقعة الثالثة، فهي واقعة ليو فرانك. وسنكتشف مرة أخرى أن يهودية ليوفرانك لم تكن هي العنصر الأساسي الذي أدى إلى اضطهاده وقتله، فأهل الجنوب لم ينظروا إليه باعتباره يهودياً، وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لعناصر تاريخية واجتماعية وثقافية عدة، ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته، شأنه في هذا شأن دريفوس. وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع مسرح الواقعة كان يخوض هو الآخر ثورة صناعية حقيقية متأخرة، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئةوأمراض اجتماعية عاش في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين، أو المهاجرين المقتلعين من جذورهم الزراعية، سواء في أوروبا أم في الجنوب.

ومن مظاهر الثورة الصناعية تركّز السكان في المدن. وقد تضاعف عدد سكان مدينه أتلانتا، في ولايه جورجيا، بين عامي ١٩٠٠-١٩١٣، إذ زاد من ٨٩٨٧ نسمة الى ١٧٣,٧١٣ نسمة، وهو يعد أعلى معدّل ارتفاع لأية مدينة اميريكية في الفترة عينها (باستثناء برمنجهام في ولاية ألباما). وكان نمو المدينة عشوائياً فلم توجد المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة، مثل أماكن الترويج. أ[illegible] من السكن، أو ما يكفي من المستشفيات العامة. وكانت أتلانتا تعاني من أزمه مساكن، فقد كان يوجد ٣٠,٣٠٨ مسكن لـ ٣٥,٨١٣ أسرة، ونصف المساكن لا تصله المياه، وكان حوالى ٥٠ألف شخص يعيشون في منازل لا يوجد فيها نظام للصرف. وكانت نسبة تلوّث الجو عالية للغاية، ولهذا انتشرت الأمراض، مثل التيفوئيد وغيره ، وارتفعت معدّلات الوفاة. ويقال إن ٩٠ بالمئة من المساجين كانوا يعانون من مرض الزهري. وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب (كان الطفل يتقاضى ٢٢ سنتاً نظير عمله لمدة أسبوع، وكانت ماري فيغان قد ذهبت لتتقاضى أجرها عن اسبوع كامل وهو دولارا وعشرين سنتاً).

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية فحسب، وإنما من الناحية الأخلاقية أيضاً (وهذا أمر متوقّع في مثل هذا المجتمع). وقد انتشرت كل أنواع الجرائم، من السرقة والقتل والدعارة والسكر. وكانت نسبة الجريمة فى أتلانتا أعلى النسب في الولايات المتحدة الأمريكيه، وتعادل نسبتها فى شيكاغو عاصمة الجريمة في العالم. وقد قبضت الشرطة ، في عام ١٩٠٧، على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠٢,٧٠٠ . ومع هذا، كان جهاز الشرطة هزيلاً للغاية، إذ أن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة كان لا يزيد على ٢٠٠ شرطي. وكان يوجد فى هذه المدينة الواسعة مركز شرطة واحد، ولذا كان كثير من المجرمين يفرّون من قبضة القانون، وقيل أنه من كل ستة جرائم قتل كانت تضبط جريمة واحدة. وفي عامي ١٩١٢/١٩١٣ بالذات، كان هناك ١٢ جريمة قتل لم يتم الاهتداء الى مرتكبيها.

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا. ويجب التنبيه الي أن هذه الثورة كانت جزءا من عملية غزو واسعة. فالجنوب الأمريكي مسرح الواقعة كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) حين هزم الشمال الصناعي الجنوب الزراعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات المختلفة. وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠ ألف شخص حياتهم إبّان هذه الحرب. وبعد انتصار الشمال، تمّ فتح الولايات الجنوبية للرأسمال الشمال، وللنخبه الشمالية التي أسست الصناعات وغزت السوق. ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقه شبه كولونيالية ، وأن ما سمّاه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة الأمريكية هو، في واقع الامر، غزو شمالي للجنوب وهيمنة عليه. وهو غزو لمجتمع زراعي، كانت تسود فيه علاقات شبه إقطاعية، توجد على قمته أرستقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة، وبقيم الجنوب، وبالالتزام الإقطاعي. وكان مجتمع الجنوب مجتمعاً انجلوساكسونياً بروتستانتياً متجانساً، لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين، كما حدث في بقية الولايات المتحدة الاميركية، خاصة على الساحل الشرقي. وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية في مجتمع الجنوب، وتتّسم بقدر كبير من التماسك. وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الأسري، ولذا كانت محط تقديس المجتمع. وأعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الأرستقراطي عادة ما ينظرون بكثير من الاحتقار، بل والبغض، إلى الاقتصاد النقدي، المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب.

وقد كانت شكوك أهل الجنوب في محلها، إذ أنه بعد «توحيد» الشمال مع الجنوب فُتح الجنوب للصناعات الشمالية، التي هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والأسواق البكر. وهي صناعات لم تخدم كثيراً تقاليد المجتمع، وساهمت في تفكيك نسيجه المجتمعي، وفي تحطيم بنية الأسرة. فكان الأطفال والنساء يعملون في المصانع لساعات طويلة. وقد أدّى دخول الصناعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبعها من تفكك

اجتماعي، خاصة وأن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطوّر عضوي بطيء، وإنما فرضت عليه فرضاً من مجتمع اليانكي الشمالي.

كان ليوفرانك رمزاً لهذه القوة الغازية، ، فهو رجل صناعة ومدير مصنع جاء من الشمال ليستقر في الجنوب، وهو مجتمع زراعي ينظر بعين الشك إلى الصناعة. وكان يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة في مجتمع كان يقدّس الأسرة حتى عهد قريب. وكانت تتم الإشارة إلى ماري فيغان على أنها «عاملة المصنع الصغيرة»، أي أنها تحوّلت الى رمز الطفولة البريئة التي استغلّها المستثمرون من الشمال. وهو كان خريجاً جامعياً وعضواً في النخبة العلمانية المهيمنة، التى لا تكترث كثيراً بالقيم التقليدية فى وسط بيئة جنوبية عمالية مقتلعة من بيئتها الزراعية، لاتزال تؤمن بالقيّم التقليدية والمسيحية (البروتستانتيه)، تحلم بالمجتمع المتماسك الذي دُمّر إبّان الحرب الأهلية. ولم تكن يهودية فرانك سوى بلورة لكل هذه العناصر السابقة؛ إذ أن المعركة الحقيقة كانت بين الشمال الصناعي الغازي والجنوب الزراعي الذي تمّ غزوه؛ بين ضحايا التقدّم والصناعة، من جهة ، وممثلي هذا المجتمع الجديد الرهيب، من جهة أخرى.

ولعله يكون من المفيد أن نتوقف قليلا، عند نقطة انتماء فرانك اليهودي. فقد كان يشغل منصب رئيس فرع جماعة بني بريث اليهودية في المدينة. لابدّ من أن نعرف كذلك، على وجه الدقّة، موقف الجنوب الأميركي من اليهود. وقد حدّد الجنوب الاميركي التضامن على أساس عرقي: أبيض في مقابل أسود، على عكس الشمال الذي عرّفه على أساس عرقي، أو اثني ديني: بروتستاني ابيض انجلو-ساكسوني في مقابل كاثوليكي أبيض من أصل إيطالي أو أيرلندي، أو كاثوليكي اسباني، او كاثوليكي أو بروتستانتي أسود؛ وكل هذا في مقابل يهودي بطبيعة الحال (وبالتالى يكون اليهودي الأسود في أسفل الدرك). ومن الواضح ، أن التعريف الجنوبي لم يستبعد اليهود ، وإنما صنفّهم على أنهم بيض، تماماً كما يحدث في جنوب أفريقيا. وقد سمح لهم هذا التصنيف بدرجة عالية من الاندماج

والحراك الاجتماعي؛ وأصبحوا جزءاً عضوياً من المجتمع؛ وكانوا أعضاء في النخبة الحاكمة، وامتلكوا العبيد وتاجروا بهم. فلم تكن هناك مقولة مستقلة لليهودي في الوجدان الجنوبي التقليدي.

وقد أشرنا آنفاً إلى أن فرانك كان رمزاً للقوة الغازية الشمالية. ويمكن أن نضيف، هنا، أنه مع التحولات التي أدخلت إلى الجنوب اكتسبت كلمة «يهودي» مدلولاً جديداً. فأعضاء الجماعة اليهودية في جورجيا لم يكونوا يهود الجنوب التقليديين، وإنما كانوا وافدين، عنصراً غريباً جديداً، له طابع اثني وظيفي مميز، ويهود أتلانتا، في عام ١٩١٠، كانوا يشكّلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب؛ إذ بلغ عددهم ١٣٤٢ أي ٢٥ بالمئة من مجموع كل الأجانب. وعلى الرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز واحداً بالمئة من عدد السكان، إلا أنهم كانوا يشكّلون جماعة وظيفية حقّقت بروزاً مشيناً. فاليهود المهاجرون كانوا يمتلكون معظم الحانات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة (وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الاوروبي). وكان زبائنهم، أساساً، من الزنوج. وقيل أن بيوت الدعارة التي امتلكها اليهود، كانت تزيّنها صور نساء بيض تثير شهوة الزنوج، الذين كانوا يحتسون الخمر في الحانات اليهودية «وينطلقون بعدها كالوحوش»، وهذه صورة إدراكية عنصرية؛ ولكنها، مع هذا، ربطت الجرائم الجنسية في ذهن سكان أتلانتا باليهود. وكان فرانك، نفسه، مشهوراً بمغازلة العاملات وملاحقتهن. وقيل أن ماري فيغان، نفسها، شكت إلى صديقاتها من محاولات فرانك الإباحية. وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً؛ قد يكون سلوك فرانك «الإباحي» ليس سوى سلوك أي شخص من مجتمع حضري مفتوح يتصرّف بحرية زائدة في مجتمع مغلق أو قيمه مغلقة، فتفسّر كل حركاته بشكل مبالغ فيه، قد يكون هذا هو الوضع، ولكن المهمّ إدراك الناس له، ولسلوكه، خاصة وأن اشتغال اليهود بالمهن المشينة عزّز هذا الإدراك.

إلى جانب كل هذه الخلفية الاجتماعية، والتاريخية، والثقافية، ثمّة جانب إحصائي هامّ، فالدراسات الصهيونية لاتكفّ عن الإشارة إلى قضية فرانك، وإلى الظلم الذي حاق به، نتيجة اختطافه من السجن وشنقه، بعد أن خفّف الحاكم الحكم عليه. ولكن هذه الدراسات لاتذكر هذه الحقائق:

١ - ان احترام القانون لم يكن سمة سائدة في المجتمع. فعلى سبيل المثال، لجأت الشرطة، ذات مرة، إلى القبض على كل الذكور القادرين، لأن أتلانتا كانت تعاني من نقص في العمالة. كما أنه من المعروف أنه في عام ١٩٠٩، اتُهمت الشرطة بضرب أحد الزنوج ضرباً أفضى به إلى الموت، وأنهم قاموا بتقييد امرأة بيضاء إلى الحائط حتى زهقت روحها.

٢ - اندلعت في عام ١٩٠٦، اضطرابات بين السكان البيض، الذين هاجموا حي السود لعدّة أيام واشتبكوا معهم، فقتلوا عشرة زنوج وجرحوا ستين(بينما قُتل من بينهم رجلان وجرح عشرة). واضطرت المدينة إلي استدعاء الحرس الوطني، وقيل أن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مثيرة نشرت في الصحف عن هجوم السود على النساء البيضاوات.

٣ - كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين، ولكن كلّما زاد عدد المهاجرين كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلعين. ففي عام ١٨٩١، تمّ اختطاف، وشنق، أحد عشر مهاجراً إيطالياً، وفي عام ١٨٩٩، اختطف خمسة آخرون. وفي عام ١٩٠٠، اختفى ثلاثة آخرون تحت ظروف غامضة.

٤ - شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ما مجموعه ٢٥٠٠ حالة«لينشنج» أخرى(اختطاف مساجين وشنقهم ضد سلطة القانون)، وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود، كما تمّ اختطاف قلّة من أعضاء الأقليات الأخرى. ولكن لم يكن هناك سوي حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودي، وشُنق،

وهي حالة ليوفرانك. وهكذا تحوّل الاستثناء إلى قاعدة، وتحوّل الخاص إلى عام، وتحولت الواقعة العابرة إلى رمز عالمي مركزي! وقد صدر عفو عن فرانك في عام ١٩٨٦ وبُرِيء اسمه.

بين حشد الحقائق ومعرفة الحقيقة

فيما سبق، لم نحاول أن نفرض معني محدداً على الحقائق بدلاً من المعنى الصهيونى العنصري اللاإنساني، وإنما وضعناها في سياقها التاريخي الاجتماعي الإنساني العريض، فظهر معناها الإنساني الكامن وحده، وتكشّف لنا أن الضحايا اليهود لم يسقطوا بسبب يهوديتهم المطلقة ولسبب غير مفهوم أو ميتافيزيقي، وإنما سقطوا نتيجة لمركّب من الأسباب الاجتماعية التاريخية المفهومة، وأن يهوديتهم لم تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة، بل لم تكن يهوديتهم ذاتها سوى بلورة لعناصر أكثر عمقاً: إذ لا يظهر اليهودي كيهودي، وإنما كمرابٍ (تهمة الدم) أو كالزاسى أو عميل ألماني أو أجنبي (دريفوس) أوشمالي علماني جامعي صاحب مصنع (ليوفرانك)؛ وأن الهجوم الذي كان يتمّ على اليهود ليس مقصوراً عليهم، وإنما هو هجوم موجّه ضد كل القوى المماثلة في المجتمع.

وقد ذكرنا كل هذا لا من قبيل تبرير الهجوم على اليهود، أو غيرهم من أعضاء الأقليات؛ فهذا ممّا لا يسمح به الإسلام (على عكس ما قد يتصوره البعض، وعلى عكس ما يشاع) ولا يمكن تبريره، وإنما ذكرناه من قبيل محاولة فهم الوقائع واستخلاص معناها الحقيقى. ويلاحظ أننا بهذه الطريقة نسقط عن اليهودي عجائبيته وإعجازه وفرادته (التي يصرّ عليها الصهاينة والمعادون لليهود)، ونستعيد له إنسانيته. وإذا ما أدركنا المغزي الإنساني الكامن في واقعة ما، يكون الحزن من أجل الضحية حزناً إنسانياً لا يُوظف في خدمة عقيدة عنصرية استيطانية؛ إذ أنه إذا سقط اليهودي(شأنه شأن أعضاء الأقليات والجماعات الأخرى) ضحيّة العنف في مجتمعه، يصبح الحل هو أن ينضمّ إلى الجماعات التي تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الأقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية)، وأن يناضل من أجل حقوقه

داخل مجتمعه. وتصبح القضية هي كيف ندافع عن حقوق اليهود السياسية والمدنية، والدينية (وحقوق غيرهم من الأقليات) داخل وطنهم، لا أن نطالب بتهجيرهم (أو خروجهم) كمايفعل العنصريون من الصهاينة وأعداء اليهود.

وثمّة قضية أخرى تتجاوز اليهود والصهاينة والمعادين لليهود؛ إذ أنها قضية معرفية ذات طابع نظرى، وهي علاقة الحقيقة بالحقائق. فنحن كثيراً ما نتصوّر أن الحقائق هي الحقيقة. ولذا، فنحن نحاول أن نكون «موضوعيين في رصد الحقائق» ولكن الحقائق التي أتى بها الصهاينة كانت، كلها، حقائق موضوعية، ووقائع ثابتة، حدثت تحت سمع الناس وبصرهم.

فالصهاينة، في أغلب الأحوال، لا يختلقون الحقائق، وإنما يجتزئونها وحسب، ومن خلال اجتزائها ونزعها من سياقها يفرضون عليها المعنى الذي يريدون. وحيث أنه من المستحيل أن يرصد الإنسان كل الوقائع الخاصة بحدث ما، يصبح الاختيار مسألة حتميّة، ويصبح أساس اختيار الحقائق، لا الحقائق ذاتها، هو ما يشكل مدى صدقها من زيفها ، فالصدق والكذب ليسا كامنين في الحقائق الموضوعية ذاتها (هل هي صادقة أم كاذبة؟)، وإنما في طريقة تناولها ، وفي القرار الخاص بما يُضمّ، ويستبعد، منها. ومن هنا قولي أن الحقائق شئ والحقيقة شئ آخر (والحق شئ ثالث). فالحقائق شئ ماديّ صرف يوجد في الواقع على هيئة تفاصيل متناثرة؛ أمّا الحقيقه فهي لا توجد في الواقع، وإنما يقوم العقل بتجريدها واستخلاصها بعمليات عقلية، حتى نصل إلى هذه الفكرة الكلية التي تفسّر أكبر قدر ممكن من الحقائق المتناثرة (أمّا الحق، فهو ينتمي إلى عالم المثل والإيمان، وهو يشكّل المنظور الأخلاقي المطلق الذي يحاكم الإنسان منه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية العقلية).

٢ ـ الصهيونية والرومانسية

إعادة التفكير فى طرق التفكير

من أهم الطرق لفهم الآخر هو التوصل إلى رؤيته للكون وإلى مفهومه للإنسان (نموذجه المعرفي). والإدراك الصهيوني للكون هو إدراك رومانسي(بالمعنى المحدد الذي سنوضحه فيما بعد). وفي هذا القسم لن نكتفي بوصف الرؤية الصهيونية للكون وإنما سنحاول كذلك ان نبين بعض الخطوات التي اتبعناها في عملية تفكيك الإدراك الصهيوني وما نسميه التحليل النماذجي أو تحليل الواقع من خلال استخدام نماذج معرفية ، أي أننا سنتحرك في هذا القسم على مستويين: مستوى المضمون(علاقة الصهيونية بالرومانسية)ومستوى المنهج(كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه من أفكار).

الصهيونية والرومانسية

تعريف الرومانسية أمر صعب للغاية ولكنه ليس مستحيلاً، فهو اصطلاح شامل لعدد كبير من الاتجاهات، تتباين فى أوقاتها وأماكنها ودعاتها. وحيث أن تعريف الرومانسية بشكل جامع مانع قد لايفيدنا كثيرا، فلنحاول أن نقدم هذا المفهوم الفلسفي عن طريق حصر بعض السمات الرئيسية (التي تهمنا في المقارنة التي سنعقدها بين الصهيونية والرومانسية) ، وهذه السمات هي في واقع الأمر شئ واحد ولكننا قسمناه إلى عناصر مختلفة كضرورة تحليلية.

كانت الرومانسية ثورة ضد النفعية والمادية وكل الاتجاهات الميكانيكية التي تحاول أن ترد ظاهرة الإنسان إلى شئ خارج عنه- ترده إلى الاقتصاد، أو إلى هذا العنصر المادي أو ذاك. ولذا حاول الرومانسيون أن يبحثوا عن حقيقة بسيطة كامنة وراء الأشياء- حقيقة ثابتة وراء التغير، حقيقة مطلقة تتجاوز السطح. ومن هنا لم يعد العالم المادي بالنسبة لهم شيئاً ميتاً، خاضعاً لقوانين الميكانيكا، وإنما شئ حى ينبض

بالحياة تسرى فيه الروح يصلح كعلامة وكشاهد على وجود المطلق الذي كان يقارنه بعض الرومانسيين بالله عز وجل . إن الرومانسية أعادت الحقيقة والحياة للأشياء.

ولكن كيف يتأتى لنا أن نصل إلى هـ ' ' المطلـق؟ عالم الحواس عالم مـفلس، ولابد من طريقة جديدة للإدراك، ومن هـ ـانت أهمية الخيال، فالخيال وحده هو الذي يمكّن الإنسان من تجاوز عالم المادة ليصل إلى المطلق. والخيال لا يبتدع صوراً خرافية لا علاقة لها بالواقع، وإنما يساعد الإنـسان على تخطي المعطيات الحسية بأن ينحت صوراً دالة، تعيد صياغة الواقع وعلاقاته، بحيث تجسد جوهر هذا الواقع.

ولكن كيف يمكن للخيال أن يلعب دوره هذا؟ يجيبب الرومانسيون على هذا بأن العاطـفة هي التي يمكـنها أن تفعل ذلـك،فالإنسان فى حالـته العادية، وفي حـياته اليومية، لا يستخدم سوى حواسه وعقله (بـالمعني الضيق للكلمة)، أما إذا جاشت عواطفـه فإنها تـرهف حواسه وتعـمق إدراكه بحـيث يتجاوز الـسطح ليـصل إلى الأعماق والمطلق وإلى جوهر الأشياء. إن الـعاطفة تهدم حدود الحواس والأشياء، ولذا فالصور الشـعرية الخيالية تتسم بـوحدة داخلية عضوية مختـلفة تمام الاختلاف عن الوحدة الخارجية (المنطقية) التي تتـسـم بها الأشياء العادية؛ فالأولى مستقاة من منطق الروح الحي والثانية مستقاة من منطق الأشياء الميتة.

الإنسان الرومانسي الذي يتجاوز الـسطح ويدرك الجوهر عن طريق الخيال الذي تشحـذه العاطفة، إنـسـان فردي متفـرد- فردي لأن العاطفـة على عكـس الـعقل لا تخضع لقانون، ولذا فـمن يعبر عن عاطفته إنما يعبر عـن ذاته، ومن يعبر عن ذاته فهو يعبر عن فرادته التي لا يشاركه فيها إنس ولا جان.

ويمكن تلخيص الموقف الرومانسى بأنه موقف يؤمن بمقدرة عقل الإنسان (بالمعنى الواسع للكلمة الذي لا يستبعد العاطـفة) على الإدراك المبدع للعالم وعلى صياغته وتشكـيله. ويمكن تـفسير كل المـوضوعات الرومـانسية الأخرى فـي هذا الإطار، فالعودة لـلطبيعة ولـلماضي هي عودة لعـالم يسهل العثـور فيه على المطـلق وعلى

الثبات، عالم يتسم بالوحدة العضوية الداخلية، يمكن للخيال أن يحلق فيه، ويمكن للعقل الخلاق أن يطلق لنفسه فيه العنان.

ومن الهام أن نقرر في هذا السياق أن الرومانسية كانت هي الرؤية الفلسفية السائدة في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين. بل ويؤمن كثير من مؤرخي الأفكار أن الفكر الأوروبي الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، فكر في صميمه رومانسي. وقد ظهرت الصهيونية كفكر سياسي في منتصف القرن التاسع عشر، وتبلورت في العقدين الأخيرين منه، وعُقد المؤتمر الصهيوني الأول في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، - أي أنها ظهرت فى وقت ساد فيه الفكر الرومانسي في العالم الغربي، والغرب (وليس العالم كله) هو الذي أفرز الصهيونية وهو الذي أرسل بيهوده لنا.

وإن نظرنا إلى الصهيونية لوجدنا أن النموذج المعرفي الكامن وراءها يحمل كثيراً من سمات وملامح الرومانسية، ولنأخذ السمة الأولى ،أي البحث عن مطلق يتجاوز السطح. الفكر الصهيوني يدور حول مطلقات ثابتة غير خاضعة للتغير مثل الشعب اليهودى المختار وحقوق الشعب اليهودى والأرض اليهودية المقدسة، فهذه كلها مطلقات تتجاوز التاريخ وسطحه وحدوده. ومصدر إطلاقها كلها هي أنها يهودية- أي أن المطلق الذي لا يتغير هو اليهود واليهودية. أحاول أن أبين في دراساتي عن الصهيونية ما سميته بتداخل النسبي والمطلق في كل الظواهر الصهيونية(الحلولية أو الكمونية الصهيونية)، بحيث تصبح كل الأشياء مطلقة بما في ذلك أتفه التفاصيل:- الدولة- اليهودية- علم إسرائيل- نجمة داود- حفيظة النفوس الإسرائيلية. ولتنظروا إلى المصطلح السياسي الصهيوني وإلي موقف الصهاينة من ضم الأراضي - لا يمكن التفريط في هذا الشبر لأن اليهود لهم علاقة خاصة به، ولا يمكن التنازل عن قطعة الأرض تلك لأنها مقدسة. والحدود الآمنة هي فى الواقع الحدود المقدسة أو الحدود المطلقة، أي الحدود اليهودية. ويجب أن نشير هنا إلى أن الصهاينة نظرا لأن معظمهم ملاحدة يتحول المطلق عندهم الى أمر

ذاتي- فالمطلق هو ما يشاءون. أما بالنسبة للأقلية الصهيونية التي تدعي الانتماء لليهودية فثمة مساواة حلوليةفي وجدانهم بين المطلق و الشعب اليهودي، ولذا فثمة مساواة بين الاله والشعب اليهودي، وهذا هو أساس فلسفة مارتن بوبر الحوارية، وبالتالي فالمطلق هو أيضا ما يشاء أ- ساء هذا الشعب.

والفكر الصهيوني فكر لاعقلاني يعود للعاطفة ويرفض الفكر العقلاني الاستناري- الذي كان يدعو لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها والذي كان ينظر الي اليهود باعتبارهم أقلية دينية أو إثنية ، مثل أية أقلية أخرى تعانى من الاضطهاد ولكنها يمكنها أن تحصل على حقوقها عن طريق الكفاح من أجل تحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية.

أما من حيث الفرادة والفردية فهذا موضوع أساسي في الفكر الصهيوني، وهو ولا شك مرتبط بفكرة المطلق. فالمطلق الصهيوني الذاتي، فريد مقصور على الصهانية. وهم يتحدثون دائماً عن التجربة التاريخية اليهودية باعتبارها تجربة فريدة لايمكن أن يشارك فيها غير اليهودي، بل ولا يمكن أن يدركها غيرهم. ومن مظاهر فرادة التاريخ اليهودى أنه لا يمكن أن يستمر في مساره الحقيقى خارج فلسطين - ولذا لابد من العودة إلى هذا المطلق. ويفسر بعض الصهاينة معاداة اليهود واليهودية على أنها رد فعل لفرادة اليهود (الميتافيزيقية أو الاجتماعية) لأن الكيان اليهودي الفريد يثير حفيظة الآخرين من الأغيار، ولذا يجب أن يكون لليهود دولتهم الفريدة التي يمارسون فيها فرادتهم بشكل فريد.

والعقل اليهودي الخلاق، القادر على إعادة صياغة الواقع أمر يصر عليه الفكر الصهيوني واعتذارياته. والحديث عن الصحراء التي اخضوضرت والمستنقعات التي جففت هو حديث عن هذا العقل.

وفكرة العمل العبري، وهي فكرة محورية في الفكر الصهيوني، هي فكرة رومانسية حتى النخاع- إذ تحت هذا الشعار يُطلب من اليهودي أن يعود إلى أحضان الطبيعة في بلاده الأصلية، فيعيش ببساطة ويعمل بيديه. وهو حين يعمل

بيديه (عملا عبريا) فإنه سيعيد صياغة أرضه، ومن هذه العملية سيولد الإنسان العبري الجديد (الذي لا يختلف عن الانسان الطبيعي الذي بشر به الرومانسيون منذ روسو حتي الآن). والفكر الصهيوني، شأنه في هذا شأن الفكر الاوروبي منذ نهاية القرن التاسع عشر، فكر عضوي، يصر على أن العلاقات بين الأشياء علاقة عضوية، والرابطة بين اليهودي وأرض الميعاد رابطة عضوية لا تنفصم عراها.

وفكرة الطبيعة التي تمور بالحياة والحياة التي تتسم بالدينامية والعقل المبدع الذي يطمس معالم الأشياء وحدودها ليبرز جوهرها فكرة أساسية فى الفكر الصهيوني الذي وسمته في دراسة أخرى بأنه فكر صيرورة مطلقة يشبه في هذا الفكر الغربي الحديث، خاصة في عصر ما بعد الحداثة.

والفكر الصهيوني، في نهاية الأمر، فكر نيتشوى، وفي تصوري أن نيتشه من أهم الفلاسفة الغربيين فى العصر الحديث إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، فهو فيلسوف الإمبريالية والداروينية الأكبر. ويمكن أن نرى خطاً واضحاً يمتد من مكيافيللى عبر الفلاسفة الماديين والنفعيين إلى أن نصل إلى نيتشه الذي عزف معزوفته العدمية- النتيجة الحتمية للفلسفة المادية، بل وعزفها على أنها أغنية الروح الوحيدة. والصهيونية تؤمن لا بالرجل المتفوق وإنما بالأمة المتفوقة، وبكل القيم الداروينية من احتقار للفضيلة إلى تمجيد للقوة. وأجد الصهيونية، مثل النيتشوية، أصدق مثل على ماسميته دين دون إله: من إيمان بحقيقة مطلقة دون أخلاقيات، وبمنطق القوة، وبالتسامي فوق كل الحدود، أي أن تصبح الذات هي المطلق الوحيد (توثن الذات، كما سماها العقاد رحمه الله).

هذه هي بعض مواطن التماثل في بنية الفكرين الصهيوني والرومانسي. ويمكننا أن نخلص إلى بعض النتائج، بعضها ذات طابع منهجي، ينصب على طريقة التفكير وكيفيه استخلاص النتائج من المقدمات، والبعض الآخر ذو طابع مضموني، أي يزودنا بمضامين فكرية جديدة.

النتائج المضمونية

ولنبدأ بالأمر الأيسر، أي النتائج المضمونية التي يمكن أن نتوصل لها بخصوص الصهيونية ،والتي نوجزها فيما يلي:

١- السياق الأساسي للحركة الصهيونية هو الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر والتشكيل الإمبريالي الغربي (والرومانسية كانت أحد روافد هذه الحضارة وكانت الفكر المهيمن آنذاك). أما الدين اليهودي فهو - في تصوري- لم يكن سوى مصدر لشكل الصهيونية اليهودي أو ديباجاتها واعتذارياتها، وأما مايسمى بالتاريخ اليهودي فهو أمر لا وجود له إلا في الكتب الصهيونية والمعادية لليهود واليهودية - أو في كتابات بعض العرب الذين يرددون المفاهيم الغربية دون فحص أو تدقيق. ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية ظاهرة غربية استعمارية، وليست ظاهرة يهودية عالمية أنها لم تنشأ في صفوف اليهود العرب أو يهود إثيوبيا (على سبيل المثال)، كما أنها لم تنشأ في صفوف يهود الغرب إلا في القرن التاسع عشر، عصر الرومانسية والإمبريالية والتوسع.

٢- لا يختلف النموذج الكامن وراء الصهيونية كثيراً عن النموذج الكامن وراء معاداة اليهودية: فكلاهما يرى اليهودي على أنه شخص فريد هامشي، ينتمي للشعب اليهودي وللتاريخ اليهودي، ولذا لا يمكنه أن يدين بالولاء للبلد الذي يعيش فيه أو للأمة التي ينتمي إليها، وهو لكل هذا شخصية مخربة مدمرة. ولابد من إنهاء هذا الوضع الشاذ عن طريق تصفية الوجود اليهودي في المنفى، أي في العالم بأسره. والمنطق الصهيوني والمعادي لليهود متطابقان تمام التطابق، قد يختلف الفريقان في طريقه تنفيذ البرنامج، ولكنهما مع هذا لم يحجما قط عن التعاون الواحد مع الآخر. ولذا فتاريخ الصهيونية هو أيضا تاريخ تحالف القيادات الصهيونية مع أعداء اليهود في كل مكان. ولذا فالعرب الذين يشغلون أنفسهم بترجمة البروتوكولات والحديث عن الأفعى اليهودية وأختها الحية الصهيونية يخدمون المخطط الصهيوني من حيث لا يدرون.

ولعل المقارنة التي عقدناها بين الصهيونية ومعاداة اليهود واليهودية هي مثال تطبيقي لما سميته بالتحليل النماذجي في مقابل التحليل المضموني، إذ أنه من زاوية المضمون المباشر تقف معاداة اليهود على طرف النقيض من الصهيونية، باعتبار أن الأولى تعادي اليهود أينما كانوا، بينما تدافع الثانية عن اليهود أينما كانوا. ولكن التحليل النماذجي المتعمق (للنصوص والظواهر) الذي يصل إلى العلاقات الكامنة يبين التماثل الذي لم يبينه التحليل المضموني المباشر.

وحتى لا يُساء فهم بعض الأفكار التي وردت في هذا الحديث أحب أن أضيف أن الأسطورة الصهيونية، بكل رومانسيتها، قُدر لها الاستمرار والانتشار بسبب التمويل الغربي للكيان الصهيوني، فقد يسر هذا للصهاينة الاستمرار في أحلامهم الوردية المطلقة، وفي تركيزهم علي الثابت دون المتغير. فالإنسان لا يصل إلى نوع من العقلانية وإلى شيء من التوازن بين الحلم والواقع إلا من خلال الممارسة التي يدفع أثناءها ثمن أخطائه وشطحاته. أما بالنسبة للصهاينة، فثمة قوى خارجية هي التي تسدد فواتير أخطائهم وأوهامهم، ولذا فهم يستمرون في ترديد شعاراتهم الفاشية ويتحدثون عن حدودهم المقدسة الآمنة ويطرحون برامجهم السياسية المطلقة التي تعود جذورها إلى ماضٍ سحيق لم يبق منه سوى بعض الآثار والأطلال.

وفي النهاية أرجو ألا يفهم من دراستي هذه مايلي.

١- أنني قرنت الرومانسية بالصهيونية وعادلت بينهما.

٢- أنني ذكرت أن الرومانسية قد تسببت، بشكل أو آخر، في ظهور الصهيونية.

٣- أنني قلت أن الرومانسية تشبه الصهيونية.

٤- أو أنني قلت إننا يجب أن نقبل الصهيونية لأنها رومانسية، أو نرفض الرومانسية لأنها مقترنة بالصهيونية.

كل ماقلته هو أنني من خلال تحليل نماذجي متعمق (تضمن النصوص الأدبية والوثائق التاريخية والفلسفية والاجتماعية وحركة التاريخ نفسها) توصلنا إلى أنه ثمة تماثل بين بنية الصهيونية وبنية الرومانسية أو إلى أن بنية الصهيونية رومانسية وهو تماثل متوقع باعتبار أن الرومانسية كانت تشكل أهم عناصر السياق العام للفكر الغربي في القرن التاسع عشر.

بعد هذا التصنيف والتوصيف لكل من الرومانسية والصهيونية يجب ألا نقنع بهذا المستوى، وإنما ينبغي كمسلمين وكعرب أن نصدر أحكاماً أخلاقية قيمية، وإن لم نفعل نكون كجماد ينظر إلى جماد. أما الرومانسية فأنا من المعجبين بكثير من جوانبها، وأعتقد أنها كنسق فلسفي وكطريقة للإدراك تخلق التوجه المطلوب نحو الرؤية الإيمانية، وذلك على عكس الفلسفة النفعية العقلانية التي تخلق التوجه نحو الفلسفات العلمانية والمادية. إن الرومانسية هي المرحلة التي يدخلها الإنسان الذي يؤمن بإفلاس الحواس وبفشل الأمر الواقع في إشباع جوعه الروحي .

ولتلاحظوا ما أقول -لا الرومانسية تؤدي إلى التدين ولا العقلانية تؤدي إلى العلمانية والمادية - فهناك ماديون رومانسيون (مثل النازيين والماركسيين) وهناك متدينون عقلانيون مثل المعتزلة وكثير من المفكرين المسيحيين في القرن الثامن عشر. كل ما أقوله أنه ثمة ترابط اختياري أو علاقة قربى بين الرومانسية والتدين.

بعض الملاحظات المنهجية

يمكننا الآن أن نذكر بعض الملاحظات المنهجية التي يمكننا استخلاصها من عملية التفكيك والتركيب التي قمنا بها:

١- يجب أن نفصل وبحده، على مستوى التحليل، بين الوصف والتقييم، فالوصف يتطلب نوعا من التجرد من القيم ورفضا لمحاكمة الأشياء والظواهر من أي منظور أخلاقي أو فلسفي، كما يتطلب الرؤية الدقيقة التي تحاول أن تصل إلى القوانين الخاصة التي تتحكم في الشئ والتي نطلق عليها منطق

الظاهرة. فإن وصفت الصهيونية بالرومانسية فهذا لا يعني رفضاً أو قبولاً للصيهونية، كما لا يتضمن حكماً قيميا على الرومانسية.

٢- الوصف المتعمق والتصنيف الدقيق والتحليل النماذجي يجب أن يتجاوز المضمون الواضح والمباشر ليصل إلى بنية الفكر ونموذجه المعرفي الكامن. والنموذج المعرفي يتجاوز المضمون بل والشكل بالمعنى السطحي ليصل إلى العلاقات الأساسية التي تربط بين العناصر المختلفة المكونه للظاهرة - وهذا مختلف تماما عن تصور دعاة البنيوية لفكرة النموذج، فهم يتبنون أساسا نماذج لغوية أو أنثربولوجية أو رياضية عامة ومجردة يرصدون وجودها في كل الظواهر في كل زمان ومكان بغض النظر عن خصوصيتها وتفردها، ولذلك فالبنيوية تنكر التاريخ والزمان لأن تجريديتها تجعلها تصل إلى بنايا ثابتة جامدة شبه مطلقه. أما رؤيتنا نحن للنموذج فأكثر تركيبية وإنسانية، فالنموذج ليس له وجود إمبريقي ومع هذا فإن الباحث يقوم بتجريده من خلال قراءته المتعمقة لنصوص وظواهر متماثلة مختلفة محاولا الوصول إلي ما هو عام وخاص فيها وكيف يتقاطعان. ولذلك فهو يتجاوز النصوص والظواهر إلى حد ما، ولكنه لا يصل إلى مستوى عال من التجريد بحيث يفقد الصلة بخصوصية النصوص والظواهر موضع الدراسه أو باللحظة التاريخية التي توجد فيها. بل إن التاريخ أو البعد الزمني يشكل أحد عناصر النموذج الأساسية الذي يمنحه كثيراً من خصوصيته وتفرده. والنموذج المعرفي التحليلي في نهاية الأمر يمكن اختبار مقدرته التفسيرية بالعودة للظواهر والنصوص التي تم تجريده منها. وكلمة «نموذج» كما أستخدمها هي قريبة في معناها من كلمة Theme الإنجليزية وهي تعني الفكرة المجردة والمحورية في عمل أدبي ما والتي تتجاوز العمل ولكنها مع هذا كامنة فيه وفي كل أجزائه، تمنحه وحدته الأساسية وتربط بين عناصره المختلفة. كما ان الكلمة قريبة في معناها من مصطلح «النمط المثالي» Ideal Type الذي استخدمه ماكس فيبر كأداة تحليلية. والنمط المثالي ليس

حقيقة إمبريقيه أو قانونا علميا، وإنما هو أداة تحليلية تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقع وإبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح، ومعرفة أثرها على الواقع. ومعظم الظواهر التي نفكر فيها ليست حقائق إمبريقية، «فالرأسمالية اليابانية» و«الحضارة الغربية» و«النفعية» و«المفهوم العذري للحب» ليست أشياء مادية محددة، ولا يمكن فهمها عن طريق القرائن والاستشهادات، وإنما يمكن للمرء أن ينحت نموذجا إفتراضيا للحضارة الغربية الحديثة يكون بمثابة استعارة أو صورة مصغرة تحوي في داخلها بنية تشاكل بنية الواقع. ولذا فمثل هذا النموذج قادر على تفسير هذا الواقع أو تفسير جزئياته الكثيرة لا كمضامين متناثرة وإنما كبنية متكاملة متداخلة وكمجموعة من العلاقات الحية.

٣ ـ وفي تصوري أن إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال فكراً مضمونياً أي يتعامل مع المضامين المباشرة ولا يصل إلى العلاقات المجردة الكامنة، أو إلى النماذج المعرفية كما عرّفتها. ولنضرب مثلاً عملياً على ما نقول بالإشارة الى حديثين شريفين.

أ- قال رسول الله ﷺ: «عذبت امرأة في هرة، حبستها حتى ماتت، فدخلت فيها النار. فلا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من حشاش الأرض».

ب- قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبه أجر» (أي كل حي من الحيوان والطير ونحوهما).

لو نظرنا إلى هذين الحديثين الشريفين من منظور المضمون المباشر لقلنا إنهما يقفان على طرفي النقيض، الحديث الشريف الأول عن القطط والنساء وجهنم

والثاني عن الرجال والكلاب والجنة، وإذا نظرتُ إليهما بمنظار بنيوي (بالمعنى الغربي الشائع الآن) لجردتهما إلى بنية لغوية ولقلت إن ثمة تعارضات ثنائية (المرأة ضد الرجل، قط ضد الكلب، الجوع ضد العطش ، وزيادة الجوع ضد السقيا، والجنة ضد جهنم) ولقلنا - على سبيل المثال- إن العلاقة بين العناصر المختلفة في الحديثين الشريفين تشبه علاقة الفاعل بالمفعول.

وأعتقد أنه لا التحليل المضموني الأول، الذي يكتفي بالمضمون المباشر الواضح، ولا التحليل البنيوي الثاني، الذي يجرد الحديث من أي مضمون ويحوله إلى بنية لغوية مجردة أو بنية هندسية طريفة خالية من المضمون- لا هذا ولا ذاك يفي بالغرض، ويمكننا أن نقول إن التحليل النماذجي، بالمعنى الذي أطرحه للكلمة، لن يقوم بتحليل الحديثين للوصول إلي نماذج لغوية أو أنثروبولوجية عامة، وإنما سيجرد منهما نماذج معرفية تؤكد العام والخاص، وتتحرك من المضمون الخاص إلى البنية العامة المجردة دون أن تنسى خصوصية الحديثين ويمكننا أن نرى الحديثين في هذا الضوء على أنهما يحاولان تحديد علاقة الرجل والمرأة بالقطة والكلب، أي علاقة الإنسان بالحيوان، بل والإنسان بالطبيعة. ويمكننا القول أنها في جوهرها علاقة توازن مع الطبيعة (عُذبت المرأه في هرة) (بلغ هذا مثل الذي بلغ مني) (في كل ذات كبد رطبة أجر) ولكنه توازن لا ينطوي على مساواة بين الإنسان والطبيعة (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)، وإنما تفترض تميز الإنسان وتفرده ومسئوليته. ففي الحديثين الشريفين الفاعل هو الإنسان (رجل أو امرأة) والمتلقي هو الحيوان (قطة أو كلب) والثواب والعقاب من نصيب الفاعل المسئول. وإن تعمقنا لوجدنا أن بنية الحديثين تتسق مع النهج الإسلامي في التفكير ومع البنية الكامنة في القرآن الكريم والحديث الشريف ومع النموذج المعرفي الإسلامي وبنية الإسلام الفلسفية ككل.

٤- يتسم التفكير المضموني أنه لصيق بالواقع لا يحاول تجاوزه، ولذلك كما بينا نجد أن النظم التصنيفية ذات الطابع المضموني ليست جيدة ولا مفيده. فالتفكير المضموني يبدأ عادة من الشواهد الملموسة والقرائن الجزئيه- أي من مكونات أو عناصر المضمون المختلفة، ولذا فهو يظل حبيس هذا المضمون وحبيس الأجزاء، لا يمكنه أن يصل إلى الكل إلا بصعوبة بالغة. وحين يصل إلى هناك يصعب عليه أن يربط بين هذا الكل وكليات أكثر تجريداً لأن عيونه مستقرة دائما على الشواهد والقرائن والاستشهادات الجزئية المتناثرة الملموسة. فالتفكير المضموني «يحدق ولا يحلق» (على حد قول جمال حمدان) ولا يمكن أن يصل إلى الكليات ولذلك فمثل هذا التفكير لا يمكنه أن يأتي بأطروحات جديدة خلاقة، ويمثل حجرة عثرة في طريق الإبداع، فالإبداع هو أساساً اكتشاف علاقات جديدة بين الأشياء. بل إن الهوية الحقيقيه لأي شئ لا توجد فيه في حد ذاته أو في عناصره المختلفة وإنما توجد داخل شبكة مركبة من العلاقات بين هذه العناصر.

ولنتخيل عالما إسلاميا يتعامل مع الأحاديث الشريفة من منظور المضمون وحسب لا شك أنه سيفشل في ربطها مع المفاهيم الكلية الإسلامية الأخرى. هذا على عكس عالم إسلامي على قدر كبير من الخيال والثقافة والاطلاع والمعرفة بالتراث الديني، كنصوص وكممارسات عبر التاريخ الإسلامي قادر على تجريد النماذج المعرفية الكامنة فيها، وعلى تجريد النموذج المعرفي الكامن في الحديثين. سيكون بوسع هذا العالم أن يأخذ النموذج الذي جردناه بخصوص التصور الإسلامي لعلاقة الإنسان بالطبيعة، باعتبارها علاقة اتصال وانفصال، علاقة استخلاف وليس علاقة هيمنة علي الطبيعة أو اذعان لها. وسيكون بوسعه أن يزيد هذا النموذج كثافة بالعودة لبعض ممارسات الصحابة- رضي اللهُ عنهم- وممارسات بعض المسلمين في أندونسيا - على سبيل المثال- وممارسات المسلمين في العصر العباسي. ويمكنه أن يربط هذا النموذج المعرفي التحليلي بالموقف الإسلامي من الذبح الشرعي

وقوانين الطعام، بل ويمكنه أن يربط هذا النموذج بفكرة السنة القمرية الإسلامية (التي تخالف فصول الطبيعة بحيث يأتي رمضان في الصيف أحيانا وفي الشتاء أحيانا أخرى)وبفكرة التقويم الإسلامي الذي يبدأ بالهجرة وليس بميلاد الرسول- باعتبار أن الهجرة عمل يقوم به فاعل بوحي من الخالق- عمل إنساني واع، وليس عمل طبيعي مثل الميلاد.

٥ ـ ومن خلال النماذج المعرفية يمكن أن نقوم بعمليات ذهنية فنقول: إن كان كذا فمن الممكن أن يكون كذا. ثم نختبر هذه الافتراضية الجديدة التي ولدت من النموذج بالعودة للواقع. ويمكن تصور العلاقة بين النموذج التحليلي والواقع على أنها علاقة حلزونية، إذ أننا نحتنا النموذج الافتراضي عن طريق معايشتنا لواقع ما وعن طريق تأملنا فيه وعن طريق قراءتنا وتمحيصنا. وبعد نحت النموذج نعمل فيه الذهن والفكر لنولد علاقات افتراضية، تكثفه وتصقله ثم نعود به إلى الواقع، فينيره لنا. ولكن الواقع في كثير من الأحيان، يتحدي النموذج فيعدله ويزيد من (تكثفه و صقله). الحركة إذن من الواقع إلى العقل ومن العقل إلى الواقع، وأثناء هذه العمليه الحلزونية يزداد النموذج التحليلي كثافة وحيوية أو مقدرة على التفسير تماما كما فعل العالم الإسلامي، صاحب الثقافة والإبداع.

٦ ـ النموذج المعرفي التحليلي هو استعاره مكثفة منفتحة على الواقع، وهو كاستعارة يعبر عن جوهر الواقع كعلاقات متشابكة، دون أن يكون لصيقا به. وحينما نقول استعارة فنحن لا نعني شيئا خياليا هبط علينا من القمر، وإنما نتحدث عن وسيلة لإدراك ما لايمكن إدراكه بشكل مباشر نظراً لتركيبيته. وكما نعلم يصف القرآن الكريم الله سبحانه وتعالى بأنه (ليس كمثله شئ) أي أنه لاتوجد لغة يمكنها أن تساعدنا على إدراك كنه الله عز وجل. ولكن مع هذا ينقل القرآن الكريم مفهوم الله إلى عقل الإنسان القاصر عن طريق الاستعارة المركبة، (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح). ويالها

من استعارة متواضعة، ولكنها تعكس لعقل الإنسان القاصر فكرة اللامتناهي. ثم ينطلق القرآن من هذه الاستعارة فيكثفها (المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري). وهكذا خرجنا من الاستعاره المتواضعة المستقرة في عالم الحدود إلى استعارة أخرى تكاد تكون لا متناهيه، فعقل الإنسان حينما ينظر الى الكوكب الدري، فإنه يشعر بالرهبة- ولكن الرهبة هنا لاتزال رهبة أمام المخلوق، ولكنها مع هذا تصلح كاستعارة على الرهبة التي يمارسها الإنسان أمام الخالق- إستعارة وحسب إذ يظل الله وحده هو اللامتناهي. ثم بعد الإشارة إلى اللانهائي والإيحاء به نعود مرة أخرى لعالم المألوف (يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية). لازلنا في عالم النور الإلهي، ولكننا انتقلنا من المشكاة إلى الكوكب ثم نعود إلى وقود المشكاة؛ إلى تلك الشجرة المباركة التي أخذ منها الزيت، ثم نصل إلى الزيت نفسه (يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار). وهكذا تزداد الاستعارة كثافة بإضافة الأبعاد لها، ويزداد تشتت مركزها مما يبعدها عن أي تجسد أو تشبيه. ولا يمكن أن ندعى أننا ندرك الذات الإلهية إدراكاً كاملاً في نهاية الآية، فهو عز وجل ليس كمثله شئ، وإن كنا قد اقتربنا منه في إدراكنا بعض الشئ.

٧- الدعوة إلى التفكير النماذجي، أي التفكير من خلال نماذج تحليليه والابتعاد عن التفكير المضموني، هي أيضا دعوة للابتعاد عن الإصرار على مستوى عال من اليقينية، وأن نبحث عن مستوى من اليقينية في العلوم الإنسانية يختلف عنه في العلوم الطبيعية (ولعل الفكر المضموني هو نتاج العقلية العلمية بالمعنى الشائع للكلمة التي ترى أنه لايمكن أن نصل الى الحقيقة إلا عن طريق الملاحظة الامبريقية وتراكم المعطيات ثم التوصل إلى النتائج). فمستوى اليقينية الذي نطمح له في دراستنا لتاريخ العباسيين أو لعلاقه الرومانسية بالصهيونية مختلف عن مستوى اليقينية في دراسة عن تكوين الأرض في منطقة الرياض أو منسوب المياه الجوفية فيها. فالعناصر المكونة للظاهرتين الأوليين عناصرمركبة، بعضها

مجهول لدينا، وربما قد يظل مجهولا أبد الأبدين. كما أن العلاقة بين عنصر وآخر وتأثير الواحد في الآخر أمر صعب التحقق منه، ومن هنا كانت ضرورة النماذج الافتراضية، ومن هنا أيضا البحث عن مستوى خاص من اليقينية.

٨ ـ يمكن أن نؤكد في هذا المضمار أن الواقع الإنساني(أو التاريخي أو الاقتصادي) مكون من عناصر وأنساق مختلفة ليست مترابطة بشكل عضوي أو حتمي، إذ توجد بينهما مسافات. فالعناصر الاقتصاديه في مجتمع ما قد تكون فاعلة في وقت ما، بينما يمكن أن تكون العناصر العقائدية أكثر فعالية في وقت آخر، أي أنه لا يوجد أولوية سببية لأي عنصر علي وجه التحديد، وبشكل مسبق. كما أننا يجب أن نؤكد أن العلاقة بين الفكر والسلوك وبين العناصر الفكرية والاجتماعية والعناصر الأخرى في المجتمع ليست علاقة سببية وإنما علاقة احتمالية، ولذا نجد أن بنية فكرية أو حضارية ما قد تؤدي إلي شئ ما وعكسه. فالرومانسية على سبيل المثال ساهمت في البعث الديني في أوروبا وفي بعث الإيمان بفكرة الجماعة العضوية المترابطة(جما ينشافت)، على عكس المجتمع الحديث الذي تراه النظرية الرومانسية باعتباره مجتمعا ذريا تعاقديا، الروابط فيه خارجية وليست عضوية (جيسيلشافت) . ولكن الرومانسية أيضا أفرزت الفردية المتطرفة والنيتشوية والصهيونية ومعظم التبريرات الفلسفية الإمبرياليه. والثورة الصناعية هي الأخرى قد أدت إلى ظهور نقيضين: الفردية الكاملة والجمعية المفرطة. ولنفس السبب نجد أن مجتمعاً عنصرياً مثل التجمع الصهيوني من الممكن أن يكون رومانسياً في رؤيته لنفسه ولفلسطين ، عمليا في سلوكه. والمجتمع النازي مثل آخر على مجتمع تبني أسطورة عنصرية ثم وظّف العلم والتكنولوجيا لترجمة الأسطورة إلى حقيقة.

٩ ـ لعله بسبب وجود مسافة بين الفكر والممارسة، وبين الفكرة والفكرة، يجب ألا نحكم على فكر سياسي كبنية فكرية محضة وإنما يجب أن نضع هذا الفكر في سياق أفكار أخرى وفي سياق الممارسات التي يقوم بها حاملو هذا الفكر. ولنتخيل النسق الفكري الصهيوني باعتباره محاولة أيديولوجية لبعث التراث

اليهودي بين يهود المنفى وحسب، أو أن التجربة الصهيونية قد نُفذت في أرض فراغ في الأرجنتين كما كان مقرراً لها في بداية الأمر، بحيث يؤدي الاستيطان الصهيوني إلى حل مشكلة يهود شرق أوروبا وإلى ازدهار الاقتصاد الأرجنتيني دون طرد للسكان وتشريد للملايين، وغارات تقذف النابالم على مخيمات اللاجئين ـ دون حاجة إلي صابرا وشاتيلا. أعتقد أن اعتراضنا عليها ما كان ليصبح بهذه الحده. والفكر النازي إن قُرأ بمعزل عن الممارسة النازية فكر قومى رائع. وقد كتب النازيون على أحد معسكرات الاعتقال: (إن العمل سيمنحك الحرية) وهي ولاشك أفكار سامية لم يكن يشارك فيها المعتقلون الذين كانوا يعملون في نظام السخرة.

١٠- يجب ألا نحكم على نسق فكري أو اجتماعي ما إلا بعد توصيفه وتصنيفه، ثم ننصرف بعد ذلك لإطلاق الأحكام القيمية. وحينما نفعل ذلك يجب أن نكون واعين بما نفعل وبأن التقييم يختلف عن الوصف. كما يجب أن نكون مدركين للمنظومة القيمية التي ننطلق منه والفلسفة التي نصدر عنها، وأن نعرف أن الحكم القيمي هو في نهاية الأمر حكم يحوى داخله شرعيته، فإن كنت تحكم على الظاهرة من منظور إسلامي فأنت تفعل ذلك لأنك مؤمن بالإسلام، وبالتالي فمنطق الحكم (الذاتي) مختلف عن منطق الأشياء (الموضوعي). ولعل هذا الموقف يمكننا نحن المسلمين من أن ننفتح على العالم دون أن نفقد هويتنا وقيمنا، إذ يمكنني، في هذه الحالة، أن أقوم بقراءة عمل أدبي ما فأصفه وأحلله وأبين بنيته والصور المتواترة فيه ومعناه وارتباط شكله بمضمونه، بل يمكنني أن أبين مواطن الجمال فيه كعمل أدبي وأربطه بالتقاليد الأدبية التي يصدر عنها-أي أن أقوم بعملى كناقد أدبي. ثم بعد أن أنتهي من المرحلة الأولى هذه أنتقل إلى المرحلة التقييمية التي أتحدث فيها كمسلم وأرفض القيم التي وردت في العمل الذي قمت بتحليله وتوصيفه وتقييمه كناقد أدبي- أرفضه كمسلم لأنه ربما يجسد قيما أخلاقية لاتتفق مع قيمي الدينية. وبهذا لن يضطر المسلم إلى رفض دراسة عمل ما أوظاهرة ما لأنها

متنافية للدين والأخلاق، وإنما سيدرسها بموضوعية وحيادية ثم يقيّمها من منظوره. وقد يقال إن في هذا تناقض مع الذات، ولكنني أرد قائلاً إن في هذا تقبل لحقيقة أساسية وهي أن الواقع الإنساني مركب يحتوي على بنىً متداخلة غير مترابطة. وحيث أنه لا توجد علاقة حتمية بين الجمال والخير والقبح والشر، فعلينا أن نتقبل تعدد البنيات فنصف ثم نقيّم.

١١- وأخيراً يجب ألا نخجل من التعميم وألا نصدق ما يقوله بعض التجريبيين والوضعيين (في العالم الغربي أساسا)من أن التعميم والتجريد أمور يجب الابتعاد عنها بقدر المستطاع وأنهما يجب أن يستندا إلى التجريب وحده وإلى ما يدرك بالحواس الخمسة وحسب. إن التجريد والتعميم أمور أساسية وضرورية للفكر الإنساني فنحن إن قلنا«أخلاقيات العالم الغربي» أو«الرومانسية» أو حتي«الصهيونية» فإننا نكون قد فكرنا من خلال تعميمات واستخدمنا مقولات ليس لها أساس تجريبي ولا يمكن إدراكها بالحواس الخمسة وإنما توصلنا لها من خلال نماذج عقلية افتراضية تساعدنا على تصنيف معطيات الواقع، وهي مقولات لا يمكن أن ندرك العالم ونصنفه ونعرّفه ونتعامل معه دونها. وبدون تعميم لا يمكن أن يكون هناك إبداع. فمن خلال التعميم (وتجريد النماذج الكامنة) نصل إلى علاقات الأشياء كما ندركها نحن من خلال تجاربنا ونصل إلى تعريفات يمكن لتجاربنا التاريخية الخاصة أن تنضوي تحتها.

بل ويمكننا القول أنه بدون المقدرة على التعميم والتجريد الخلاق لا يمكن أن نحقق أي تحرر من الواقع المباشر، وواقعنا العربي -أي حاضرنا- ساهم الغرب في صياغته عن طريق سلعه ومفاهيمه وجيوشه. وإذا استمر الآخرون في القيام بعملية التعميم بالنيابة عنا، من خلال تجاربهم هم ومن خلال إدراكهم، فإنهم سيلقون علينا بمقولاتهم جاهزة إما أن نقبلها فنخضع لرؤيتهم أو نرفضها فنقف في مهب ريح التفاصيل المتناثرة - وهذا ما أشرنا له في المقدمة بعبارة «إمبريالية المقولات».

ومن أهم الأمثلة على ما نقول تعريف كلمة «قومية» أو «أمة» كما هو شائع في

العلوم الاجتماعية. هذا التعريف ناتج عن التشكيل الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر، أفرزته الحضارة الغربية الصناعية الرأسمالية (والاشتراكية) بعد قرون من الحروب بين كل دول ومقاطعات أوروبا، وأعقب تبنيه عدة حروب صغيرة وحربان عالميتان تمت كلها في إطار هذا المفهوم. وقد صُدر لنا -ولكل دول آسيا وأفريقيا- هذا التعريف وبدأنا نحكم على أنفسنا وعلى تجربتنا الحضارية من منظوره بل وبدأ بعضنا يتحدث عن «الشعوب العربية» أو عن «الشعوب المتحدثة بالعربية» باعتبار أننا لسنا أمة. ولكنهم يقولون في واقع الأمر أننا لسنا أمة بالمعنى الغربي للكلمة الذي جرى تجريده من البنية السياسية الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

لكل هذا يجب ألا نرفض التعميم بل وأن نصر عليه، على أن يكون منطلقاً من كل التجارب التاريخية والحضارية في الشرق والغرب. بل ويمكن أن يكون التعميم مؤقتاً وهو أمر مقبول طالما أنه يفسر جوانب من الواقع، وهو مايسمى بالتعريف الإجرائي - أي تعريف قادر على تفسير جوانب هامة من الظاهرة ولكنه لا يدعي أنه تعريف جامع مانع.

إن مايجب أن يحدد موقفنا ليس هو مدى دقة التعميم أو مدى تطابقه مع الواقع بشكل مجرد، وإنما مدى مقدرته التفسيرية وملاءمته للمستوى التحليلي الذي اختاره الباحث لنفسه - أي مدى ملاءمته للواقع الذي يجري تفسيره. فلو كان الحديث عن معدل الجريمة في مدينة ألمانية في القرن التاسع عشر فإن المستوى التحليلي لا يسمح بالحديث عن الحضارة الغربية إلا كعنصر واحد من بين عناصر أكثر خصوصية ومباشرة. ولكن لو كان الحديث عن أزمة المجتمع الحديث فإن الحضارة الغربية تصبح مقولة أساسية ومستوى تعميمياً مقبولاً لأنه يتفق مع المستوى التحليلي، أي أن مستوى التجريد لابد وأن يتطابق مع المستوى التحليلي. وهذا في تصورنا هو مشكلة البنيوية الأساسية، فهي تصل إلى مستوى تجريدي عال وتصل إلى بنيات تشبه البنيات الرياضية، ثم تطبقها على كل النصوص والظواهر

بغض النظر عن المستوى التحليلي، ولذا فهي غير قادرة على التعامل مع خصوصية الأعمال الأدبية ولا مع تاريخية الظواهر الاجتماعية، وتظل ضائعة في الثنائيات المتعارضة. ونحن لا ننكر هنا جدوى المستوى التجريدي العالي، مهما بلغ ارتفاعه، ولكن نبين عدم جدواه بالنسبة لمستويات تحليلية تكون خصوصية الظاهرة وتاريخيتها أكثر أهميه من جوانبها العامة التى تشترك فيها مع ظواهر أخرى. فقد قال الرسول ﷺ (لا فضل لعربي علي عجمي إلا بالتقوى) فهو يؤكد تساوي كل البشر وإنسانيتهم المشتركة، وبذا تصبح التقوى مقياساً واحداً ينطبق عليهم كلهم في كل زمان ومكان. ولكنه مع هذا أكد هوية كل، وهي هوية لها خصوصيتها وتاريخيتها. فتوجه للعربي وللعجمي ولم يطلب من أي منهما التنازل عن هذه الهوية وإنما اعترف بها بأن توجه لها.

٢- الادراك والمقدرة التنبئية للنموذج

يمكن القول أنه كلما ازداد النموذج إحاطة بجوانب الظواهر وأبعادها المختلفة، أي كلما ازداد تركيبية، زادت مقدرته التفسيرية والتنبئية. ونحن نرى أن استرداد العامل الإنساني (بدوافعه ورؤاه وذكرياته وأحزانه وأفراحه ومصالحه ومصلحته الحقيقية والمتخيلة) هي أهم عناصر التركيب، ومن ثم أهم العناصر في زيادة المقدرة التنبئية للنموذج. وقد يكون من المفيد أن أضرب مثلاً بمحاولة سابقة قمت بها في محاولة رصد الواقع من خلال نموذج مركب وكيف أن زيادة التركيب تؤدي إلى زيادة المقدرة التفسيرية والتنبئية. فقد نشرت في جريدة **الرياض** (المملكة العربية السعودية) مقالاً بعنوان "إلقاء الحجارة في الضفة الغربية" وذلك في ٢٤ فبراير ١٩٨٤ . وقد تنبأت في هذا المقال بأن استخدام الحجارة سيكون أحد أشكال النضال الأساسية. والواقع أنني توصلت إلى هذه النتيجة بعد صياغة نموذج مركب يسترجع العامل الإنساني الإسرائيلي والعامل الإنساني العربي وادراك كل منهما للواقع. فبدأته بالإشارة إلى الوهم الإسرائيلي الذي يستند إلى الرؤية المادية بأن «المقاومة قد اجتثت تماماً من جذورها» وأن هناك علامات وقرائن على ما سماه الجنرال بنيامين بن أليعازر (منظم الأنشطة في الضفة الغربية وحاكمها العسكري) "الاتجاه المتردد أو الحذر نحو البرجماتية" والذي يعني في نهاية الأمر «التكيف مع الأمر الواقع وتقبله» (**الجيروساليم بوست** ١٤ نوفمبر ١٩٨٣). وقد رأى الجنرال إمكانية تقوية هذا الاتجاه عن طريق إنشاء عدد أكبر من البنوك والشركات الاستثمارية، أي عن طريق إشباع الحاجات الاقتصادية لدى العرب وإغراق هويتهم، الأمر الذي يؤدي إلى استغراقهم فكريًا في أمور الدنيا والمال بدلاً من قضايا الوطن والأرض والهوية!

ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن هذا الاتجاه التطبيعي البرجماتي، فقد قامت الولايات المتحدة (كما أذكر في المقال) بمد يد المساعدة إلى الجنرال الإسرائيل المذكور، فدُعي إلى الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الأمريكية وكبار موظفي الوزارة ليبحث معهم كيف يمكن تحسين مستوى معيشة العرب في الأرض

المحتلة (أي مزيد من البنوك) وكيف يمكن للولايات المتحدة أن تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الإسرائيلي عن طريق المساعدات الفنية والتنموية ·

وبعد أن عرضت للرؤية الصهيونية المادية الاختزالية للعرب، حاولت أن أحدد الحالة العقلية والنفسية للصهاينة والأهداف المحددة التي يرمون إلى إنجازها، فوصفت الاستعمار الصهيوني بأنه استعمار استيطاني إحلالي لا يود استغلالنا أو استغلال مواردنا الطبيعية وحسب (كما كان الحال مع الاستعمار الإنجليزي في مصر) وإنما يرمي إلى ما يلي :

١ - استلاب الأرض ·

٢ - العيش فيها ينعم براحة البال والهدوء ·

٣ - كما أنه يود أن يسلبنا أسباب الحياة والاستمرار حتى نرحل من الأرض ليحل محلنا فيها ·

والمستوطنون الصهاينة، في تصورنا، هم أساساً مرتزقة، ولكن بينما كان القدامى منهم على استعداد لتحمل شظف العيش وإرجاء الإشباع وانتظار المكافأة المادية المؤجلة، نجد أن المستوطنين الجدد، مع تزايد معدلات العلمنة، يصرون على تحقيق مستويات معيشية وأمنية عالية عاجلة دون تأجيل · ولذا، فإن المنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشاوي الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق مُعدّة خصيصاً لهم ومدارس لأطفالهم وحراسة مشددة حتى ينعموا بالعيش في هواء «أرض الميعاد المكيَّف» · إن النموذج الإدراكي للصهاينة نموذج آلي اختزالي مادي، وبالتالي كانت رؤيتهم للعرب ولأنفسهم آلية اختزالية مادية ·

في مقابل ذلك، رصدت موقف العرب فلاحظت أنهم يرفضون الانصياع للنموذج الاختزالي المادي الذي يُطبق عليهم · وقد لاحَظ الجنرال بن أليعازر نفسه أن العرب يلقون بالحجارة على الإسرائيليين، وصرح لجريدة **معاريف** (١٤ نوفمبر ١٩٨٣) عن قرار بوضع حد لظاهرة إلقاء الحجارة · ثم بعد يومين اثنين، اصطحب

الجنرال الإسرائيلي البرجماتي أحد مؤسسي روابط القرى لافتتاح مبنى بلدية جديد في إحدى مدن الضفة. ولكن الجماهير الفلسطينية العنيدة لم تبد أي برجماتية أو اعتدال أو تقبل للقانون الطبيعي المادي، ولم تقابل أبطال البنوك والاستثمارات بالزهور وإنما بالحجارة (**الجيروساليم بوست** ١٦ نوفمبر ١٩٨٣). وقد أشرت في المقال إلى وقائع عديدة أخرى عن إلقاء الحجارة أدّت إلى غضب المستوطنين الصهاينة وإلى مطالبتهم الجيش الإسرائيلي بالتدخل لوضع حد لهذه الظاهرة. بل إن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (كما ورد في **الجيروساليم بوست** ٢٤ يناير ١٩٨٤) اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة هتحيا وأخبرهما أن إلقاء الحجارة من أسباب قلقه العميق ووعد بأن يدرس القضية شخصياً.

بعد أن رصدت ما تصورته النموذج الإدراكي للفلسطينيين العرب وتصورهم لأنفسهم، حاولت أن أرصد إدراكهم لحالة الإسرائيليين النفسية والعقلية ولنموذجهم الإدراكي، فقلت بالحرف الواحد: "إن مواطني الضفة الغربية أدركوا أن كل ما ينغص على المستوطنين (مكيّفي الهواء) حياتهم هو في نهاية الأمر إحباط للمخطط الصهيوني"، ومن هنا أصبح إلقاء الحجارة سلاحاً أساسيًا في الضفة الغربية. وقد تنبأت في المقال ذاته أن هذا السلاح، رغم ضعفه وبدائيته، قد أصبح سلاحاً فعّالاً سيتزايد في أهميته.

والواقع أنني قد وصلت إلى ما توصلت إليه من نتائج لا من خلال عملية رصد خارجية لأحداث لا معنى لها تتم على مساحة وإنما من خلال مراقبتي لبشر لهم رؤية محددة تحدد استجابتهم وتوقعاتهم وبالتالي سلوكهم. فالصهيوني الذي يحاول أن يرفع مستوى معيشة العرب، حتى ينسوا الوطن والهوية، هو نفسه الذي يوّد أن يتمتع بحمام السباحة في المستوطنة والذي يصر على مستويات عالية من الراحة والمتعة. والعربي الذي يرفض الانصياع للرؤية البرجماتية التي تود تطبيعه وتدجينه هو نفسه القادر على أن يدرك التآكل الداخلي للمستوطنين وتحولهم إلى شخصيات شرهة مستهلكة غير منتجة. من هنا الحجر الذي قد لا يقتل ولكنه يعكر صفو المستوطنين ويسقط معنى حياتهم. ومن هنا كانت الانتفاضة.والله أعلم.

* المؤلف *

الدكتور عبد الوهاب المسيرى مؤلف عربى معنى بالحضارة الغربية الحديثة وبشئون أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم وبالفكر الإسلامي.

ولد فى دمنهور (البحيرة) عام ١٩٣٨ ويعمل أستاذاً غير متفرغ للأدب الإنجليزى والمقارن بجامعة عين شمس (كلية البنات).

له عدة دراسات فى الصهيونية وتاريخ الحضارة والنقد الأدبى من أهمها :

* نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (القاهرة، ١٩٧١).
* الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (الكويت ١٩٨٨)
* الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الادراك والكرامة (القاهرة ١٩٩٠)
* هجرة اليهود السوفييت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات (القاهرة ١٩٩٠)
* الجمعيات السرية في العالم (البروتوكولات - الماسونية - البهائية) (القاهرة ١٩٩٣)
* العرس الفلسطيني : مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية (واشنطن ١٩٨٨)
* الفردوس الأرضي : دراسات وإنطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة (بيروت ١٩٧٩)
* الشعر الرومانتيكي الإنجليزي : النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية (بيروت ١٩٧٩)
* إشكالية التحيز (جزآن) (القاهرة ١٩٩٥)

وله العديد من المقالات فى الشعر الإنجليزى والأمريكى والأدب المقارن والحضارة الغربية الحديثة والصراع العربى الإسرائيلي. وسيصدر له فى مطلع عام ١٩٩٦ العمل الذى عكف على إنجازه منذ خمسة وعشرين عاماً : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري وتصنيفي جديد (سبعة أجزاء)، كما سيصدر له فى غضون عام ١٩٩٦ كتاب من ثلاث أجزاء بعنوان مقدمة لتفكيك الخطاب العلماني.

فهـــرس

الصفحة

هـــذا الكتـــاب

من أعقد القضايا التى يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (الوعى والأفكار والرموز) فى السلوك الإنساني. وهى قضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتيه والموضوعية فى العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية.

وهذا الكتاب يحاول أن يلقى بعض الضوء علي هذه القضية وعلى الرغم من أن كل الفصول تدور حول الصراع العربى الإسرائيلى وما يتعلق به من موضوعات إلا أن هذه بعض دراسات لحالات أتينا بها لتوضيح أسرار العقل الصهيونى.

النـــاشـــر

دار الحســام



١٠١٢٥١
١٥,٠٠